العالِق في الزَّمن

إلى أورشليم

ولاء عودة أبو غندر

ح: ولاء عودة ابو غندر ، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابو غندر ، ولاء عوده مساعد

العالق في الزمن-إلى أورشليم. / ولاء عوده مساعد ابو غندر .-

الرياض ، ١٤٤٠ هـ

٢٣٤ ص ؛ ..سم

٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٩٣٧٤- ردمك: ٢

١- القصص العربية - السعودية أ. العنوان

١٤٤٠/٤٩١٤ ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١

١٤٤٠/ رقم الإيداع: ٤٩١٤

٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٩٣٧٤- ردمك: ٢

تظلُّ الأمنيات لا تَفنى؛ بل تتوالد كما تتوالد المطالب دوماً مِن رَحِمِ الحقِّ.

إلى أورشليم:

﴿وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٧].

ملخَّص أحداث الجزء الثاني:

بعد أنْ التقى (رائد) بـ (حارث) و(مارغريت) طلب منه والي بغداد أنْ يقوم بمهمةٍ استكشافيةٍ للقوة العظمى المتمثِّلة في (بيت المقدس). انطلق ثلاثتُهم عابرين في هذه الرحلة قرىً ومدناً كثيرةً، وهَاهُم الآن يقتربون من أبواب (دمشق).

الفصل الأول: دمشق (مدينة الياسمين).

التغيُّراتُ الكونيةِ التي تحدثُ حولنا

والعواصف التي تدكُّ الثبات، تؤكِّد لنا حقيقةً واحدة:

(لا شيءَ سرمديٌّ على وجهِ الحياة).

كان لصوت أحذيتهم الثقيلة وهي تنغرس لعمق سنتمترات في الأرض المغطاة بالثلوج وقعاً ثقيلاً عليهم، كثقل المهمة الملقاة على كواهلهم، وكانت الريح الشديدة تخترق عظامهم وتترك مكانها رعدة خفيفة، تبدو آثارها جلية في انكماش ملامح أحدهم المفاجئ.

كان (ليونهارد) يتوسطهم، وبينما هو يجاهِد، رفع ساقه، مال قليلاً نحو (مارغريت)، وإذ بملامحها توحي بمدى حجم الإرهاق الذي ألمَّ بها، وهي تحاول إخفاءه جاهدة، كانت أرنبةُ أنفها المحمرة لا تختلف كثيراً عن وشاحها الأحمر الذي لثمت به وجهها. أمسك بكتف (رائد)؛ لإيقافه، ثم أشار إليه بعينيه؛ ففهم مُراده، وتوقف معلناً شعوره بالتَّعب، متحاشياً النظر إليها؛ خشية أنْ تظنَّ بأنَّ الوقوف كان مراعاة لها؛ لأنَّها كانت في كلِّ مرة تشعر فيها بذلك تجاهد نفسها أو تتابع الطريق وحدها بعنادٍ تام، أو تصبح ليلتهم تلك صاخبة ممطرة بلعناتها التي تصبُّها عليهما صبّاً دون كللٍ أو مللٍ حتى بزوغ الفجر.

استند ثلاثتهم إلى أقرب جذع شجرة، يتوسطهم (رائد)، زفر الهواء مِن صدره وهو يحكُّ كلتا يديه ببعضهما في محاولة يائسة؛ للحصول على بعض الدفء، وقال معلقاً: يكاد قلبي يقفز مِن صدري مِن شدة البرد!

ثم دار بعينيه حوله وأتبع بتذمر: ورغم كثرة الأشجار حولنا ما مِن خشب جاف هنا!

كان (حارث) هو الآخر ينفخ الهواء في كلتا كفيه، وأجاب: على الأقل

هنا الثلج أُقل سُمكاً مما كان عليه في (دَارَيَّا)* ؛ أما (مارغريت) فكانت في اللحظة ذاتها تتحسَّسُ الثلج بكفها العارية، وتكوِّره بأصابعها عابثة وهي تسأل: متى سنَصِل (دِمَشْقَ) على أية حال؟ كم بقي لنا؟

أجابها (حارث): ربما غداً - بإذن الله-؛ أما (رائد) الذي صبَّ كلَّ تركيزه على كرة الثلج التي في كفها، حدجها بامتعاضٍ وعلَّق مستنكراً: ألا تشعرين بالبرد؟! توقَّفي عن فعل ذلك!

رفعت حاجبيها مستنكرةً، فأتبع مبرِّراً: إنَّ رؤيتي لشخص يلعب بالثلج تصيبني بالبرد، كلما لمسته بيديك أشعر بعظامي تتجمد، توقفي عن اللعب!

لم يُقنعها هذا التبرير؛ فأزاحت الوشاح عن فمها لتَظْهَرَ شفتاها الملتويتان ببسمتِهِما الساخرة، وهي تجيبه: إنَّها يدي أنا!

ثم شرعت تكوِّرُ الثلج إمعاناً في استفزازه أكثر، وأتبعت: قل فقط إنك تريد أنْ تجد سبباً؛ لتستفزني به كالعادة.

همَّ (رائد) بالردِّ؛ ليدافع عن نفسه، إلا إنَّ التنهيدة التي أطلقها حارث بصوت عالٍ أخرستهما وجعلتهما ينظران إليه، أغمض عينيه ثم قال: إلى هنا ويكفي رجاء! ستبتدئان شجاراً كالعادة، وأنا أريد أنْ أنامَ بهدوء.

**دَارَيَّا*: تقع دَارَيَّا في ريف دمشق غربَ العاصمة بنحو ٨ كيلومترات، و دَارَيَّا هي كلمة سريانية، تعني: البيوت الكثيرة، مشتقة من كلمة دار، والنسبة إليها: دَارَانِيّ.*

ثم فتح نصف عينيه بعد ثوان قليلة؛ ليشاهد أين وصلا، وإذ بهما كما توقَّع يتقاتلان بالنظرات، انتفخ فمه بضجرٍ وقال موجهاً حديثه لـ(رائد): عليك أنْ تبقى متيقظاً للحراسة، لا تُخفض سيفك.

باستياءٍ أدار (رائد) يده؛ ليحرِّر السيف مِن حزامه وقال: تبّاً! ولمَ عليَّ القيام بذلك؟

ثم تابع معركته مسدداً نظراته نحوها وهو يقول: صاحبة الساقين الطويلتين هذه لم تقم بذلك قبلاً، مع أنَّها لم تنفك عن تباهيها يومياً بحَمْلها السيف.

لم ترد عليه بشيء، وأشاحت رأسها إلى الجهة الأخرى، ولم تمر دقائق حتى فوجئ برأسها وهو يترنح ويميل ناحيته، أسندها إلى كتفه سريعاً، وتمتم بانزعاج: لديها مقدرة على النوم في كلِّ مكان، حتى إنها تنام على ظهر الخيل وهو يركض! (ليو...).

التفت برأسه ناحيته، وفوجئ به هو الآخر يميل برأسه على كتفه، وغطّ في نومه، لوى فمه ساخراً مِن وضعه الذي جعله وسادةً لهما، ثم ضمَّ ساقيه إليه، ووضع السيف بينهما متكئاً على مقبضه، تنهَّد بعمق وهو ينظر إلى السماء القاتمة فوقه عدا التماع بعض النجوم، متسائلاً في أعماقه: أيُّ (دمشق) سيراها الآن؟ (دمشق) القديمة التي قرأ عنها كما بغداد؟ (دمشق) الأموية؟ أم (دمشق) العباسية؟ أم أنَّها ستكون كـ(دمشق) القرن الواحد والعشرون؟ أم دمشق أخرى لم يرها أو يقرأ عنها مِن قبل؟ طرف بعينيه يميناً ناحية (مارغريت) النائمة في هدوء واستكنان، ثم ثوى بها حيث كان سيفها موضوعاً إلى جانبها، ظلت نظراته للحظاتٍ

مرتكزةً نحوها، تنهَّدت أعماقه معترضة: ما كان على (ليو) أنْ يدربها، لقد أصبحت أكثر اندفاعاً مِن قبل!

وعلى الفكرة ذاتها غفت عيناه قليلاً، وما إنْ شعر بأنَّ رأسه يهوي حتى فتح عينيه منتفضاً بوجلٍ، تلفَّت حولَه؛ ليطمئنَّ دافعاً النوم عن جفنيه، لكنه سرعان ما خضع لسطوته مجدداً.

وبعد مضيٍّ قليل مِن الوقت أحسَّ فجأة بشيء يهتز داخل جيبه؛ فانتفض سريعاً واقفاً؛ فارتطم رأسَ (مارغريت) و(حارث) ببعضهما؛ فاستيقظا سريعاً يتلمَّسان رأسَيْهما بنصف أعين مفتوحة، وعدم استيعاب.

كانت الأضواء قد انتشرت سريعاً، وعينَا (رائد) مثبتتان على ساعة الزمن في كفه بذهول، لقد كانت تهتز وتنشر أضواءها تماماً كما حدث معه سابقاً، لكنه فجأة شاهدها وهي تطير مِن كفه في الهواء، ثم هوت على الأرض وارتطمت بها محدثة صوتاً عالياً، استدار قليلاً محاولاً استيعاب ما حدث، كانت ذراع (مارغريت) التي قذفت بها الساعة ماتزال معلقةً في الهواء، وما إنْ التقت عيناهما حتى اندفعت نحوه، وتشبثت بكتفيه تنظر إليه بعينين ذاهلتين وهي تقول: لَمْ تختفِ! أنتَ لَمْ تختفِ حقاً كالمرة السابقة!

انبسطت أسارير وجهها وندت منها تنهيدة مرتاحة، ثم هوت على الأرض حاسرة وجهها بكلتا يديها وهي تهمس: أحمدك يا رب!

أما هو فكان ما يزال ينظر إليها ببلاهة من دون استيعاب، ثم غطَّى فمَه بكفِّه وكأنَّه قد استوعب ما حدث للتو، ثم راح يضغط على جبينه بانزعاجٍ وتوتر، ثم خفض يده أخيراً ونطق: ما الذي فعلته (سحاب)؟

ماذا لو كُسرت الساعة الآن؟ كيف يمكنني أنْ أعود لو حدث لها أي مكروه؟ ألا يكفي ما قام به (ليو) سابقاً؟

رمى (حارث) نفسه على الشجرة كأنه استوعب للتوِّ ما جرى، ثم ندت منه ضحكة صاخبة جعلتهما يلتفتان نحوه، ترنَّح برأسه وهو يقول: ما الذي حدث بالله عليكما؟ لقد كانت عيناي غافيتين، ثم وجَّه نظراته صوب (مارغريت) وأتبع: أحسنت صنيعاً! كنتِ أسرعَ منِّي.

لكن كان لـ(رائد) رأيٌ مغاير؛ إذ حدجها بنظرة موبِّخة ممزوجة باستياء واضح، ثم اتجه ناحية الساعة؛ ليلتقطها، وما إنْ انحنى حتى شعر بشيء قُذف تجاهه؛ فأوقفه قبل أنْ يلتقطه.

شخصت عيناه وهو يرى خنجر (مارغريت) منتصباً بين الثلوج على الأرض أمامه، استدار خلفه سريعاً؛ ليجدَها ماثلةً أمامه، وبلهجة آمرة قالت: لا تلمسْها (راد)!

تجمدت عيناه للحظة، ثم أخرج صوتاً ينمُّ عن السخرية والانزعاج، ثم انحنى والتقطه سريعاً وهو يقول: ما معنى هذا؟ ألا تعتقدين أنَّك بالغتِ كثيراً هذه المرة؟ تقذفين بالخنجر ناحيتي؟ هل تحاولين قتلي الآن؟

ثم التفت إلى (حارث) وأتمَّ بتهكّم وهو يشير ناحيتها: أرأيت؟! ألم أخبرك أنَّه مِن الخطر تعليم الأطفال حمل أسلحة خطيرة؟! هل أنت راضٍ عن هذا الآن؟!

كزَّت على أسنانها وهي تلتقط الخنجر قائلة: أنا حقاً أريد قتلك الآن، أعطِني الساعة!

ببرود ودون اكتراث غطَّى (حارث) نفسه بمعطفه، وأغمض عينيه والبسمة عالقة على شفتيه ثم قال: منَ سيبقى منكما حيّاً يوقظني فجراً.
لم يبتلعا مزحته تلك، ولم يعلِّقا عليها، ولكنهما مع هذا كانا ما يزالان ينظران إلى بعضهما كقطين شرسين سيدخلان في معركة حامية بعد ثوان. اقترب (رائد) منها وسأل: أريد أنْ أفهم، لماذا تريدين الاحتفاظ بساعة الزمن؟ ماذا لو انتقلتِ أنتِ عبر الزمن؟
تبدَّلت ملامح القطة الشرسة سريعاً واستحالت إلى ملامح امرأة مثقلة بالقلق وهي تجيبه: هذه الساعة المجنونة لا تومض إلا عندما تكون معكَ أنت!!كما أنَّها لا تومض إلا ليلاً.
ردَّ باعتراض: غير صحيح، لقد ومضت بالنهار حينما كنتُ بالمتحف، كما ومضت مع (ليو) ذات مرة.
أخذ يمسح بقايا الثلج عنها وهو يتفحصها ويقول بانزعاج: خرقاء! أشعر بأنَّها قد تعطلت تماماً الآن.
مدت يدها إليه قائلة: لقد ظننا ذلك سابقاً، وها هي قد عادت لتومض فجأة، أعطني إياها رجاءً! قلتُ لك سابقاً بأنِّي سأحتفظ بها وسأعطيك إياها بالوقت المناسب، ماذا لو اختفيتَ الآن؟ ماذا لو لم أستيقظ وأدفعها مِن يدك؟ هل نسيتَ وعدك لوالي بغداد؟ هل نسيت أنَّ لديك مهمة وعليك إنجازها؟
حدق في عينيها للحظات مفكراً، ثم باستسلام ناولها إياها قائلاً: أعتقد بأنِّي مدين لك بالشكر؛ لأنك تصرفتِ سريعاً، ومع هذا ما زلتُ غاضباً؛

لقذفك خنجرك علي! كان عليك أنْ تتصرفي بحكمة أكثر، لقد أصبحتِ تُقلدين (ليو) في حماقته.

دسَّتها في جيب ثوبها ثم رفعت رأسها ناظرةً إليه بعينين ممتنتين، وابتسمت برقة قائلة: شكراً لك، وآسفة بشأن ذلك! الحقيقة أردت استفزازك؛ لكي تُنازلني بالسيف، أنا أتوق إلى ذلك حقاً! فمتى ستفعلها؟

- محـــــــــــال!

قالها وهو يمدها، ثم سبقها نحو الشجرة وأتمَّ: لا تظني أنَّ تدريباتك مع (ليو) لشهرين ستجعلك قادرة على هزيمتي، ثم إنِّي لا أبارز امرأة.

انكمشت ملامحها للحظة جراء خيبة الأمل التي صفعتها للتو، ولكن سرعان ما كشفت شفتاها الضيقتان عن ابتسامة ماكرة وهي تسأل: هل قلت للتو امرأة؟

أدرك أنَّها قد اصطادته وأوقعته في شباكها؛ فذُهلت ملامحه للحظة، ثم رمقها بنصف عينيه، ثم أشاح بوجهه مُتَّكِئاً على الشجرة مقرِّراً تجاهلها، أدركت ذلك؛ فندت مِن شفتيها بسمة انتصار، ثم اتكأت هي الأخرى إلى جانبه وقالت: لا يهم أنْ تقرَّ بذلك، ولكن سأجعلك يوماً ما تنازلني، وسترى...

لم يجبها بشيء، وسرحت عيناه للحظات، ثم قال: (سحاب)، صحيح إنِّي أريد منك أنْ تكوني قوية وقادرة على الدفاع عن نفسك؛ إذ أمامنا طريق محفوف بالمخاطر، ولكن مع هذا لا أريد منكِ أنْ تتمادَي في ذلك، أتفهمين ما أعنيه؟

لم يصله أيُّ جواب؛ لأنَّها في الواقع لم تستمع لشيءٍ مما قاله، وكان رأسها يترنح يميناً ويساراً وهي تتنفس الهواء بعمق.

انتفخ فمه بضحكة خفيفة، ثم جذب رأسها مسنداً إياه على كتفه مجدداً وهمس: لديك حقاً موهبةٌ في النوم في أيِّ مكان وأيِّ وقت، ثم ألقى بنظرة سريعة على يدها التي كانت تدسها في جيبها، ثم عرج على وجهها الذي كانت تغطي نصفه الأسفل بوشاحها، وقد تورَّد خداها مِن شدة البرد، شعر بحرارةٍ تنبثق مِن خديه فجأة؛ فأشاح بوجهه في خجل محاولاً دفع تلك المشاعر التي راودته للتو، تلك المشاعر التي طالما حاول كبتها أو حتى قتلها إنْ لزم الأمر، لقد تذكَّر فجأة تلك الكلمات التي قرأها في إحدى الروايات: " الحب هو العاطفة الوحيدة التي لا تحتمل ماضياً ولا مستقبلاً)* ، ثم طرفها بعينيه وهو يحدِّث نفسه:" حتى لو كان الحب حقاً لا يحتمل ماضياً ولا مستقبلاً، لكنه مع هذا يحتاج أرضاً، يحتاج حاضراً وإلا لن يكون"، أعتقد بأنَّني بدأت أؤمن بأنَّ بعض العواطف لا مصير لها سوى الخلود، فتلك العواطف التي لا ماضٍ لها ولا مستقبل ولا حتى حاضر، تبقى معلقة أبية إلى الخلود، وكأنَّ القداسة مقدرة لها.

مال بعينيه نحوها مرة أخرى وتذكر للحظة ملامحهما وهي تمسك بكتفيه وتقول: "لَمْ تختفِ!"، شعر بنبضاته التي بدت وكأنها لم تخفق إلا للتو.

وضع يده على صدره وغطى بالأخرى وجهه بانزعاج، ثم مال برأسه قليلاً؛ ليسندها بحرص حتى لا يوقظها، وغفى على ذلك.

---

*رواية الناعقون لبلزاك.

وعند أول خيوط ضوء الفجر، كان ثلاثتهم ينفضون النوم من أعينهم بكسل.
أقام (حارث) و (رائد) صلاتهما، ثم تناولوا إفطارهم متابعين مسيرهم قاصدين (دمشق) مدينة الياسمين كما عُرفت على مرِّ العصور، وما إنْ اقتربت الشمس مِن المغيب، حتى بدأت أسوارها العظيمة تظهر أمامهم.
اقترب (حارث) بخيله مِن (رائد) وهو ينظر ناحية الأسوار ويقول:
(راد)، ألا ترى إنَّ هنالك شيئاً غريباً؟
ضاقت عينا (رائد) وهو يحاول أنْ يدقِّقَ النظر، فأكدت (مارغريت) ذلك بقولها: صحيح سيد (ليو)، ألم تلحظ؟ لا أحد يراقب الأسوار! لا أرى أحداً!
وضع (رائد) كفه فوق جبينه وضاقت عيناه وهو يحاول التركيز ثم قال بتهكم: أنتما بربكما، هل تملكان عينَيْ زرقاء اليمامة؟! لمَ أنا الوحيد بينكما الذي لا أرى شيئاً؟
لم تفت هذه الفرصة (مارغريت)؛ لذا رفعت رأسها نحوه قائلة بسخرية:
يبدو أنَّ هاتين العينين البليدتين على اتساعهما مصابتان بقصر النظر!
شدَّ (حارث) لجامه وقال: لنستطلع الأمر إذن، أسرعا!
ثم انطلق بخَيْله سريعاً يستبقهما.
بينما ابتسم (رائد) بمكر وهو يشد لجامه ويقول: ومع ذلك فهاتين العينين تستطيعان أنْ تريا النمش الذي في وجهك بوضوح!
كزت على أسنانها وهي تنظر نحوه بغيظ، ومع هذا أتبع قائلا: مِن الأفضل لك أنْ تتمسكي جيداً الآن، إنْ سقطتِ سأتركك وأمضي.

انحنت وتمسكت باللجام جيداً، وهي تصرخ قائلةً: بسببك سأتغلب على خوفي مِن الخيل، وستكون هذه المرة الأخيرة التي أركب بها معك.

ضرب اللجام وانطلق مستمتعاً وهو يشاهد كتفيها المشدودين على بعضهما مِن الخوف، وما إنْ اقتربوا من الأسوار، حتى بدأ تصدُّع جدرانها يظهر أكثر، وكان الجانبُ الغربيُّ منها محطماً تماماً، و آثار الحروق بادية عليه.

حكَّ (رائد) ذقنه مفكراً وهو يقول: هل ترى هذا (حارث)؟ كيف سقط هذا الجانب؟ بفعل أيِّ قوة سقط؟

تبادل ثلاثتهم النظرات قبل أنْ يجيب (حارث) قائلاً: لنفترض أنَّه منجنيق الآن، مع أنَّي أرى استحالة ذلك، لنتّجِهْ نحو البوابات الرئيسة، ثم سبقهم بخيله، بينما سار (رائد) ببطء متعمداً؛ ليتفحَّص آثار الحروق على السور أكثر، وتمتم محدِّثاً نفسه بصوت مسموع: لا يمكن أنْ يكون أثراً لمنجنيق فحسب، ربما مدافع هاون.

رفعت (مارغريت) ظهرها قليلاً متسائلة: وما مدفع الهاون؟

سلاح أثقل مِن المنجنيق، ولكن.. مَن قام بذلك؟

ثم ضرب على سرج خيله؛ ليلحق بـ(حارث)، وعلا صراخ (مارغريت) التي تشبثت باللجام وهي تشتمه؛ لانطلاقه المفاجئ والسريع.

ما إنْ وصل إلى البوابة الرئيسية حتى فوجئ بملامح (حارث) المصدومة أمام هذه البوابات الضخمة المفتوحة على مصاريعها.

ترجَّل عن الخيل، ولحقته (مارغريت)، وما إنْ وقف إلى جانب (حارث) حتى أدرك الخبر.

وظلت عيناه هو الآخر تتنقلان بصدمة في حجم الفراغ الكبير الذي لفَّ المدينة كلها، فمدينة الياسمين كانت خاوية على عروشها، وكأنَّ ريحاً عاتية قد مرَّت على أهلها؛ فاقتلعتهم دون أنْ تذر منهم أحداً، ولم يكن هنالك أيُّ صوت يدل على الحياة عدا صوت البوابات والنوافذ وهي تتمايل بفعل الريح محدِثةً صريراً رهيباً يبعث على القشعريرة!

اقترب (رائد) مِن (حارث) وقال معلقاً بوجل واضح: (ليو)، أشعر بشيءٍ ما يجثمُ على صدري! المدينة تبدو وكأنها خالية! فهل ندخل؟

بتردد أومأ برأسه موافقاً، ثم تقدم بضع خطوات أمامه، وما إنْ همَّ (رائد) باللحاق به حتى توقف فجأةً وهو يشعر بشيء يشده إلى الخلف، التفت؛ وإذ بيد (مارغريت) ممسكة بطرف ثوبه، رفع حاجبيه متسائلاً:

مـــــاذا؟ لماذا أوقفتني؟

أشارت بإصبعها إلى الخيل محاولة أنْ تخفي ارتباكها وهي تقول: هل أنتظِركما هنا بالخارج بينما تنهيان استطلاعكما؟

ندت مِن بين شفتيه بسمة ماكرة وهو يقول: هل يعني هذا بأنكِ ترقصين خوفاً الآن؟

لم تتوقع بأنَّ ملامحها قد فضحتها إلى هذا الحد؛ لذا ابتسمت بتوتر وتقدَّمتْه وهي تقول بكبرياء مصطنع: مَن الخائفة؟ هل تعتقد بأنَّي خائفة حقاً؟ أردت أنْ أحرس الجياد فقط، ولكنِّي لن أفعل ذلك الآن حتى لو رجوتني.

كتم ضحكته الساخرة ثم تبعها، وكانوا كلما توغلوا في المدينة لا يخترقون سوى الصمت المطبق فقط، لا شيء يدل على أنَّ ثمة أحياء

هنا، لا شيء سوى صرير الأبواب والنوافذ التي كانت جُلّها مفتوحة تكشف أثاث المنازل خلفها.

توقف (رائد) للحظة وقال معلقاً: إنَّها أسوأ مِن (دَارَيَّا) بكثير، على الأقل كان هنالك أناس، لا أظن أننا سنجد أحداً إنْ تقدَّمنا.

توقفت (مارغريت) أمامهما، ثم استدارت نحوهما قائلة: أنا أقترح أنْ نخرج من المدينة، فالشمس ستغرب الآن، وستصبح المدينة ظلماء، وسيصعب علينا إيجاد أحدهم إنْ وجــ..

شخصت عيناها للحظة بذهول قبل أنْ تكمل كلمتها، ثم أطلقت صرخة بهلع، واندفعت متشبثةً بذراعيهما، تنتفض بخوف، مشيرة بسبابتها إلى الأمام وهي تقول: رأيت شيئاً أبيضَ هناك يتحرك.. أنا واثقة..

شششششبح!

تلفَّتَا خلفهما في كلِّ الاتجاهات ثم علق (رائد)؛ ليطمئنها: ربما كانت ستارة بيضاء مِن أحد البيوت حركتها الريح، لابد أنَّكِ واهمة.

هزت رأسها نافية وهي تنتفض وتجيب: كلا، لقد كان له ساقان ويدان أيضاً، وكان يحمل بيده مزماراً!

ثم غطت رأسها بكفيها وهي تتمتم بوجل: ربما سيعزف الآن على مزماره ويسحرنا؛ لنتبعه!

لم يصدق (حارث) ما سمعه للتو منها؛ فدوت ضحكته الساخرة في المكان وهو يعلق: (مارغريت)، محـــال! هل تصدقين قصة عازف المزمار* إلى هذا الحد؟

هل كان الطبيب يخوفك بها؛ لتنامي مبكراً؟

ثم انخرط يضحك متمايلاً إلى الوراء، شاركه (رائد) الضحك والسخرية وعلق قائلاً: لنفترض أنَّ شبح المزمار هنا، فإنَّ أول مَن سيتبعه هو أنتِ بلا شك، إنَّه يخطف الأطفال فقط كما أعلم!

فجأة سمعا صوت شيء يتحرك خلفهما؛ فاندفع الاثنان لا شعورياً نحو (مارغريت) وأحاطا بها، دارت أعينهما حول المكان بوجل، وفجأةً، ظهر أمامهما رجلٌ بثوب أبيضَ ينفث الدخان مِن فمه وأنفه، وبيده يحمل غليوناً.

---

* : عازف المزمار: هي حكايةٌ مِن التراث الألماني، نالت قسطاً وافياً مِن الشهرة؛ بسبب الغموض الذي لفَّها، والشواهد التي جعلت الكثير يعتقد أنها حقيقة. وسواءً كان عازف المزمار هو مَن أخذ الأطفال أو غيره، تظل حقيقة اختفاء أطفال هاملن حقيقة، ففي هاملن نفسها يوجد منزل يدعى: بمنزل عازف المزمار، به بلاطة سوداء مكتوب عليها: (في ٢٦ يونيو حزيران ،عام ١٢٨٤م، في يوم عيد القديسين مئة وثلاثون طفلاً مِن أطفال هاملن خدعوا واقتيدوا خارج المدينة على يد عازف مزمار يرتدي ملابس ملونة، وبعد أن عبروا تلال كوبينبرغ اختفوا إلى الأبد.

أيضاً المخطوطات الألمانية الكنسية تطرقت إلى اختفاء أطفال هاملن مشيرةً إلى إنَّ الحادثة قد وقعت بالفعل، وغيرها مِن الشواهد كثير.

تيبَّست أطرافهما للحظات وهما يدققان النظر فيه، كان يرتدي ثوباً أبيضَ فاخراً، ويعصب رأسه بعمامة بيضاء، وكان وجهه أبيض شاحباً، وعينيه رماديتين

اقترب منهما وأخرج صوتا رقيقا منه متسائلاً: مَن أنتم؟ ما الذي تفعلونه هنا؟

تمتم (رائد) دون استيعاب بصوت مسموع: ينفث دخاناً، ويتحدث بلغتنا أيضاً!

سأله (حارث) بجدية: مَن تكون أنت؟

لم يدرك (رائد) أنَّه كان متشبثاً بكمِّ (مارغريت) يشده إليه حتى هذه اللحظة إلا بعد أنْ رفعت رأسها تنظر إليه بسخرية قائلةً بتهكم: يبدو أنَّ المزمار الذي رأيته بداية هو

(الغليون)! ثم عرجت بعينيها نحو يده المتشبثة بها، وأتمت بلكنة ساخرة: أيُّها البطل!

ابتسم ببلاهة، ثم حرَّر كمها، وابتعد خطوةً عنها بحرج واضح، فما كان منها إلا أنْ دفعته بيديها؛ ليبتعد أكثر وهي تقول: مَن الذي كان يسخر للتو ويتباهى علي؟ أنت أيضاً تخاف من قصص الأطفال!

اقترب ذلك الرجل الغريب مِن (حارث) وقال: آسف! يبدو أنَّني أفزعتكم بظهوري فجأة، اسمي: (جياد)، وأنا تاجرٌ رحّال، سعدت لرؤيتي بعض الأحياء هنا!

صافحه (حارث) وقال: تشرفت بك، اسمي: (حارث)، كل ما في الأمر أنَّنا لم نتوقع وجود شخص هنا.

نفث الدخان وهو يؤكد قائلاً: صحيح، فلا أحد هنا مطلقاً، لن تجدوا أحياء هنا.

سأله باهتمام: ولِمَاذا؟ ما الذي حدث هنا؟

أجابه دون اكتراث وهو يقرّب الغليون مِن فمه مجدداً: مدينة الياسمين هذه كانت تموت ببطء؛ بسبب المجاعة، ثم تعرَّضت لحصار أضناها؛ فاستسلمت أخيراً، ونزلت عند شروط العدو، لكن غُدِر بأهلها؛ فقُتل غالبيتهم، وهرب البعض، وتم أخذ البقية أسرى إلى (بيت المقدس)؛ ليموتوا هناك بالطبع تحت الآلات والعمل الشاق. مدينة الياسمين أصبحت مدينةً بزهور حمراء لا يسكنها سوى الأشباح.

أمال (رائد) رأسه ناحية (مارغريت) وهمس: أنا لا أخاف مِن قصص الأطفال ولا عازف المزمار الذي ذكرتِه أنتِ، لكني أؤمِنُ بالجان، ربما يكون جنياً، سأثبت لك ذلك، سيختفي الآن، انظري..

ثم تلا بصوت منخفض: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

حدَّق (جياد) في عينيّ (رائد)، ثم أشار إليه بتهكم وهو يقول: هل هذا الفتى معتوه؟! هل يظن حقاً أنِّي مِن الجان؟!

صرخ وهو يلتفت إلى (مارغريت) ويقول: أرأيتِ؟ لقد سمع ما قلته!

أجابته قائلة: بالطبع سيسمعه، كان صوتك عالياً.

حينها علا صوت صرير أحد أبواب المنازل أمامهم، أجبرهم الصوت على الصمت للحظة، التفت الجميع ناحيته، فعلَّق (رائد) وهو يمسح العرق عن جبينه قائلاً: (حارث)، أرى أنْ نخرج مِن هنا كما اقترحتْ

(مارغريت)، سيهبط الظلام قريباً، ولنكملْ حديثنا مع (جيد) أو رجل المزمار هذا خارجاً.
باستياء قاطعه قائلاً: (جياد)! قلتُ: إنَّ اسمي:(جياد)! ثم ما قصة المزمار الذي تتهامسون عنه منذ قليل؟ ما الذي يرعبكم إلى هذا الحد مِن غليون خشبي؟
كزَّ على أسنانه بسخرية وأتبع: هذا الفتى يثير أعصابي!
بحرجٍ أجابه (حارث): أعتذر إليك بالنيابة عنه! والحقيقة... لقد أصابنا الخوف قليلاً مِن كون المدينة خالية من السكان، نحن لم نتوقع هذا مطلقاً.
أشاح بوجهه باستياء واضح وهو يعلق قائلاً: ما المخيف؟! لقد بتُّ الليلة السابقة هنا وحدي، ولم يحدث لي شيء.
كان الاستنكار واضحاً على وجوههم مما قاله للتو، ومع هذا قال (حارث): مِن فضلك، إنْ لم تمانع سيد (جياد)، إنَّنا نحتاج إلى الحديث معك قليلاً، ولكن لنخرج مِن هنا أولاً، لقد ربطنا جيادنا عند البوابات.
نفث الدخان وهو يجيب: حسناً، سأتبعكم، ولكن لا أظن بأنَّي سأفيدكم كثيراً، انتظروا هنا، سأحضر خيلي.
غاب قليلاً، ثم عاد وهو يمتطي الخيل.
عادوا أدراجهم، وما إنْ وصلوا إلى البوابات حتى فوجئ الجميع باختفاء الجوادَيْن وأمتعتهما.
دارت أعينهم حول المكان بحثاً عن أيِّ أثر لهما دون جدوى.
-ما الذي حدث هنا؟ كيف هربا؟

قالتها (مارغريت) متسائلةً؛ فأجابها (رائد) وهو يرفع الحبال عن الأرض وهو يقول: لا شك أنَّ أحدهم قام بقَطْع الحبال وسرقهما دون شك.

أضاف (حارث): وليس واحداً أو اثنين؛ بل مجموعة رجال، انظروا إلى آثارهم.

أشار (جياد) شمالاً وقال: لقد اتجهوا شمالاً، هل نتبعهم؟

اقترب (حارث) مِن (رائد) وهمس في أذنه متسائلاً: هل الختم معك؟

لم يجبه (رائد) واكتفى بنظراته المرتبكة؛ ففهم (حارث) بأنه قد وضعه في الأمتعة.

تتبعوا الآثار، ولكن مع تساقط الثلج بكثافة وانتشار الرياح الشديدة كانت آثارهم قد اختفت تماماً، والرؤيا باتت معدومة.

وبعض مضي وقت توقف (جياد) وقال: لا جدوى مطلقاً، ثم إنَّ خيلي قد تعب، لا يمكننا الاستمرار.

انتقل (رائد) بعينه مستطلعاً بين (حارث) و(مارغريت) التي كان مِن الواضح بأنَّها تنتفض مِن البرد وسأل: ما الذي ستفعله (ليو) الآن؟ كيف لنا أنْ نكمل وقد هبط الظلام بالفعل؟

ترجَّل (جياد) عن خيله واقترح قائلاً: لنبقَ هنا الليلة، أنا حتى لا أستطيع تحديد المكان مع هذا الجو، بإمكاني أنْ أصحبكم غداً إلى (دَارَيًّا)؛ لتتزوَّدوا منها إنْ شئتم، ثم جلس على الأرض وأتمَّ قائلاً: الفلاة لا ترفض أحداً في النهاية.

اقترب (رائد) مِن (حارث) وهمس في أذنه قائلاً: هل لا بأس مِن الوثوق برجل المزمار هذا؟

نظر إلى عينه وحرك رأسه قليلاً مجيباً بـ: نعم.

ثم جلس إلى جانب (جياد) وهو يسأل: ما الذي أتى بك إلى دمشق؟

أخرج غليونه مِن جيبه وأشعله بقدّاحة وهو يقول: هل يمكن أنْ أسألكم أنا عن هذا أولاً؟

أومأ (حارث) برأسه موافقاً وأجاب: نحن نقصد (بيتَ المقدسِ).

صمت للحظة بدا فيها مندهشاً ثم علق قائلاً: بيت المقدس؟ أنتَ تمزح لا شك، ثم أنتم..

صمت للحظة وهو يتابع بنظراته(رائدا) الذي كان قد خلع معطفه وانحنى نحو (مارغريت)؛ ليغطيها به وتابع: ما علاقتكما ببعض؟ أنتما غرباء حقاً، أنتَ وتلك المرأة لا تبدوان لي عربيان رغم فصاحة لسان تلك المرأة، وذاك المعتوه بينكم هو الوحيد الذي أعتقد بأنَّه عربي، وتبدو لي ملامحه مِن الشام.

مع أنَّهما كانا يتعاركان بالكلام؛ إذ رفضت (مارغريت) قبول المعطف؛ فردَّ عليها: لماذا تعتقدين بأنَّني أقوم بذلك بدافع الشفقة؟

-الأمر ليس كذلك، ولكني أكره أيَّ معاملة خاصة!

انتبها إلى حديث (جياد) الأخير؛ إذ كان صوته مرتفعاً، فالتفتا سويّاً نحوه ورمقه (رائد) بحنق، أجابه (حارث) دون تردد: صحيح، هذه المرأة ابنة شقيقتي وهذا زوجها.

ارتخت ملامح وجه (مارغريت) للحظة، ثم سرعان ما قطبت جبينها باعتراض، وكادت أنْ تفضحهم؛ إذ قالت: منذ متى تزوجــ..

لكن (رائدا) لم يهبها الفرصة، ولفَّ المعطف على وجهها؛ لإسكاتها، ثم جلس أمامه وشرع يرتبه على كتفيها، وهو يصر على أسنانه هامساً لها: اصمتي! ستفضحيننا هكذا، عليك الآن أنْ تُجاري (ليو) وحسب، فنحن بالنهاية حلف غير معقول، ويُثير ريبة أيّ شخص.

ثم اتكأ إلى جانبها وأتبعَ: مِن الأفضل لكِ أن تنامي الآن وتصمتي.

استكنت ملامحها قليلاً، وبدا وكأنها قد اقتنعت، ولكنها شعرت بحرارة تنبثق مِن خديها فجأة، أيمكن أنْ تكون تلك الكذبة قد غازلت عواطفها؟

أشاحت بوجهها إلى الجهة الأخرى وهي تحدث نفسها: لا تسترسلي بالأحلام يا (مارغريت). استرقت النظر إليه، كان يتنفس بعمق وهدوء مُغمضاً عينيه، سألت دون أنْ تنظر إليه: ما الذي تفعله إلى جواري هنا؟ اذهب إليهما.

فتح نصف عينيه وكرر مستنكراً: ما الذي أفعله إلى جوارك؟!

رفع رأسه ونظر إليها وتابع: مَن الذي يتوسد كتفي كل يوم؟ إنَّنا نفعل ذلك دوماً، ما المشكلة معك اليوم؟ سيكون مِن الغريب إنْ تركتك الآن وحيدة هنا.

أرخى رأسه وهمَّ أنْ يغلق عينيه وهو يتم: لنكمل فقط كذبة زوج وزوجتـ..

لكنه لم يكمل الكلمة الأخيرة؛ إذ تلقى قذيفة ثلجية جعلت وجهه ينكمش مِن شدة البرد، مسح الثلج عن وجهه وهو يصرخ بانزعاج: ما الذي يحدث معك؟! هل فقدت عقلك اليوم؟! هل هذا وقت اللعب؟!

- ومن قال لك بأنّي ألعب معك؟

- ولماذا تقذفينني بالثلج على وجهي يا مجرمة؟!

تفل ما علق في فمه وأتم: إنَّ عظام فكي تتراقص الآن!

- هذا؛ لأني غاضبة؟

- وممَ أنت غاضبة؟ ها؟!

- مِن....مِن..

صمتت وحارت فيما تقوله وتوضحه؛ إذ إنَّها في الحقيقة لم تكن تعلم لماذا تصرفت على هذا النحو، لقد كان تصرفها غايةً في الطفولة، هي لم تكن حتماً غاضبة، ولكن الحقيقة أنَّها شعرت بالحرج أو الغضب لسماعها كلمة زواج، فهي لم تتخيل للحظة بأنَّه مِن الممكن أنْ تصل علاقتها بـ(رائد) إلى هذا الحد.

الأشياء التي لا نحلم حتى بامتلاكها نشعر دوماً حيالها بالغضب، كيف يمكنها أنْ تفسر له ذلك؟

لم تكن لتحلم بمجرد الحب، هي الأخرى تعلمت كيف تَئِد مشاعرها لحظة انبعاثها.

ابتلعت ريقها بحرج، وعليها أنْ تعترف الآن بأنَّها قد ارتبكت حماقة، وعليها أنْ تعتذر، ولكنها عوضاً عن ذلك أشاحت بوجهها وكأنها لم تفعل ولم تقل شيئاً.

وجَّه (جياد) حديثه الساخر نحو (حارث) وقال: لديك ابنة أخت صاخبة، ويبدو أنَّك أخطأت بتزويجها لذاك المعتوه، مِن الواضح بأنَّه يثير غضبها طوال الوقت.

ضحك (حارث) بخفةٍ وعلَّق ساخراً: أنت لا تعرفهما.

ثم ندت من بين شفتيه بسمة مشرقة وهو يتبع: كلاهما في الحقيقة مصابان بالجنون، جنون مِن نوع فريد.

وقف (رائد) معلناً استياءَه، وابتعد عنها مسافة خطوات، ثم جلس متكئاً على أحد أغصان السنديان وقال معلقاً: ما كان علي أنْ أعطيكِ معطفي!

ثم أدار رأسه إلى الجهة الأخرى وأتم: ربما يعود الرجال الذين سرقوا جيادنا، لا تحاولي أنْ تطلبي مساعدتي حينها، ابقَيْ مكانك ونامي بهدوء.

رفعت حاجبيها وسددت نحوه نظرة ساخرة وهي تربت على غمد سيفها وتقول بتباهٍ: لا يهمني ذلك طالما أنِّي أحمل سيفاً!

ثم أغمضت عينيها بهدوء محاولة النوم، وبعد لحظات مِن الصمت فتح (رائد) نصف عينيه وقال: (سحاب)، هل لاحظت غليون ذلك الرجل؟ ألم تلحظي أنَّه مثقوب؟

فتحت عينيها مُصغية إليه باهتمام، فتابع قائلاً: ألم تلحظي ذلك؟ إنَّه مثقوب أكثر مِن ثقب! كأنَّه..

اتكأت معتدلةً وهي تنظر ناحيته متسائلة باهتمام: كأنه ماذا؟

ابتسم بخبثٍ وتابَعَ: كأنَّه مزمار، ربما يكون مزماراً حقاً، وسيعزف به ما إنْ نخلد إلى النوم، وبالطبع لن يلحقه سواكِ..

نفثت الهواء مِن أنفها بنفاد صبرٍ وغطت وجهها بالوشاح وتمتمت باستياء: أحمق! تريد إخافتي فقط.

ضحك بصوت منخفض، ثم أغلق عينيه؛ ليغفو، لكنه سرعان ما شعر بشيءٍ يثقل كتفه، فتح عينيه وإذا بـ(مارغريت) تتوسده ، هز كتفه بخفة؛ ليدفع بها وهو يعلق ساخراً: مَن الذي كان يتبجح للتو بحمله سيفاً؟! لماذا تنامين على كتفي الآن؟! ابتعدي! أعلم أنَّك مستيقظة.

لكنها لم تتحرك وظلت متشبثة بكتفه رغم الاهتزازات التي كالها بها، علت شفتيها بسمة جميلة وظلت متظاهرةً بالنوم حتى غفت.

وما إنْ طلع الصباح حتى تأهَّب الجميع؛ لملاحقة أولئك السارقين.

مشى (جياد) مترجلاً معهم وهو يسوق خيله، وما إنْ ابتعدوا قليلاً عن المكان حتى توقفت (مارغريت) كمن تذكَّر شيئاً فجأة، ثم تحسست جيبها في قلق وقالت: مهلاً! لقد نسيت شيئاً، سأعود؛ لإحضِارَه.

أوقفها (رائد) بقوله: مهلاً، سآتي معك.

لكنها اعترضت بقولها: أبداً، سأعود حالاً.

وقف الجميع دقائقَ؛ لانتظارها في صمت، بينما أخرج (جياد) غليونه، وأشعله ونفث الدخان.

قبض (رائد) على مقبض سيفه، وقد بدا القلق يلفه فقال: (ليو)، ألا تعتقد أنَّها تأخرت أكثر مِن اللازم؟

علَّق (جياد) ببرود قائلاً: دعها يا رجل وشأنها قليلاً.

لكنَّ (رائداً) تجاهله، وأطلق ساقيه كالريح عائداً إلى المكان؛ فوجده خاوياً منها.

نادى عليها وهو يتلفت حوله بتوتر: سحاب، أين أنتِ؟

لمح وشاحها مُلقى على الأرض أمام الشجرة التي ناما إلى جوارها البارحة، وحولها آثار أقدام وحوافر خيل تتجه إلى اليمين، انكمش قلبه مضطرباً، فأسرع متتبعاً الأثر.

كانت (مارغريت) قد قُيِّدت على شجرة، وشُدَّ الحبل على بطنها، وعبثاً كانت تصرخ في وجوه مقيديها متسائلة: ما الذي يعنيه تقييدي هكذا؟

اقترب أحدهم منها ونظر إليها متفحصاً ثم قال بدهشة: مِن أين أتيتِ بفصاحة اللسان هذه؟ لكن لا بأس، فهذا سيزيد مِن ثمنك، والآن أجيبي، أين بقية الرجال الذين كانوا معك البارحة؟

أجابه أحدهم قائلاً: لا أثر لهم سيدي، لم نجدهم.

سألت (مارغريت): وما الذي تريده منهم بالضبط؟

أجابها بتهكُّمٍ وهو يضرب خدها بخفة ويقول: وهل هذا سؤال؟! سيزيد سعركم طبعاً.

لكنه كان قد ابتلع كلمته الأخيرة قبل أنْ ينهيها؛ إذ كانت (مارغريت) قد التقمت كفَّه بين أسنانها وعضته، لم تكن لتحتمل هذه الإهانة التي أُلحِقَت بها للتو.

ضرب هامتها بيده الأخرى محاولاً الإفلات منها، لكنها كانت ممسكة به بقوة، ولم تتركه إلا حينما ركلها على بطنها، مسح على كفه بتقزز وزمجر بغضب: تَعْساً لك يا قذرة! سأعلمكِ كيف تتعاملين مع أسيادك.

رغم توجعها نظرت إليه بتهكم وقالت: ظننت أنَّ هذا سيزيد مِن سعري!

اقترب أحدهم منها وهو يشد على سوطه ويقول: دعني سيدي أنال منها.

ابتلعت ريقها وهي تنظر للسوط في يده، لكن فجأة تناهى إلى أسماعهم صوت تصفير جعلهم يديرون أعناقهم إلى الخلف ليجدوا شاباً مكتفاً ذراعيه ويقول: يا لَلعـــار!

عشرة رجال يستعبدون امرأتي! ألا تشعرون بالخجل مِن أنفسكم؟

أشهر الجميع سيوفهم، لكنه مع هذا تقدَّم بثباتٍ حتى أصبح وسطهم وعلَّق قائلاً: وعشرة سيوف تُشهرونها فوق رجلٍ واحد، هل هذه شهامة ؟

أجاب سيدهم بتهكم: هل جئت لتلقي علينا خطبة؟! إنْ قاومت قليلاً؛ فسترى زوجتك كيف ستموتُ مِن أجلها.

أشهر سيفه وأشارَ به ناحية (مارغريت) وقال: وإنْ قتلتني، فهل تظن أنَّ هذه المرأة ستقف متفرجة؟ إنَّها متوحشة أكثر مما تظن، ثم أشار إليها بعينيه؛ ففهمت مقصده؛ إذ كان سيدهم يقف إلى جوارها، فقامت بعرقلته بساقها؛ فارتد إلى الخلف قليلاً، ثم فقدَ توازنه وسقط.

وما إنْ تمكن مِن رفع رأسه حتى أصبح (رائد) أمام (مارغريت) مباشرة تعلوه بسمة انتصار مستفزة، وجميع الأنظار تتجه نحوه بحنقٍ أكثر، فاقتربوا منه أكثر، وعلَّق أحدهم قائلاً: أنت حقاً معتوه وأحمق! جئتَ إلى قبرك بقدميك!

ردَّ عليه (رائد)ببرود: عن أيِّ قبرٍ تتحدث يا هذا؟

ثم أغمد سيفه في الأرض؛ فأثار تصرفه هذا دهشتهم، وظن البعض بأنَّه إعلانٌ عن استسلامه.

ولكن لم تمضِ ثانية واحدة حتى أتبع: بدل أنْ تتحدث عن القبور، يجب عليك أنْ تنتبه لظهرك، لا شأن لي إنْ هُوجمتم مِن الخلف الآن.

ما إنْ قال ذلك حتى سقط أحدهم ودبَّ التوتر فيهم؛ إذ كان (حارث) و(جياد) قد وصلا، واندفعا مِن الخلف، وبلمح البرق اشتبكا معهم.
استغلَّ (رائد) فرصة ارتباكهم وقتالهم، وحرَّر (مارغريت) مِن قيدها، وضعت يدها على مقبض سيفها؛ لتشهره باندفاع وهي تقول: سأريك ما الذي ستفعله المتوحشة الآن.
لكنه وضع كفه على غمد سيفها؛ لإيقافها، وقال وهو يراقب القتال: يكفي، لقد انتهى الأمر بالفعل، (حارث) وحدَه كان قادراً على هزيمتهم، وصاحب المزمار هذا قد أثار دهشتي حقاً بمهارته.
دفعت يده وقالت باستياء: تباً لك! لقد أردتُ أنْ استعرض ما تعلمته.
حينها كان الرجال يفرون هاربين تاركين أمتعتهم خلفهم.
احمرَّ وجهه غضباً، وناولها الوشاح قائلاً: هل تعتقدين أنَّ السيف لعبةً لتستعرضي به؟ لماذا لم تتمكني مِن فعل شيء حينما أمسكوا بكِ إذن؟ ماذا لو تأخرت؟ أسألك...ماذا لو تأخرت؟ ماذا لو تأخر (حارث) و (جياد)؟ لماذا عدتِ أصلاً مِن دوننا؟
كانت تحدق في عينيه واجمة، لم يكن رده الذي صعقها إلى هذا الحد، وإنما تلك النظرة الجادة والغاضبة التي رمقها بها.
ازدَرَدَتْ ريقها بضيق، وأشاحت بوجهها وهي تأخذ الوشاح، ظلت مثبتة نظرها عليه للحظات قبل أنْ تلفه على رأسها وهي تقول: لقد هاجموني بغتة مِن الخلف، لم أستطع فعل شيء، ثم دست كفها في جيب ثوبها وأتبعت بصوت يملؤه الحرج: لقد عدت؛ لأنَّني فقدتُ ساعتك الزمنية، لقد اكتشفتُ أنَّ جيبي كان مثقوباً.

باغَتَها بضربةٍ على جبينها أجبرتها على النظر إليه وهو يقول: ما مِن شيء مثقوب غير دماغك، ما المشكلة لو عدتُ معك؛ لالتقاطها؟ لماذا لم تخبريني؟

زاغت نظراتها هاربة وأخذت تمسح على جبينها بتوتر وهي تقول: خشيت أنْ تسخر مني!

ثم أتمَّت وهي تغالب الدموع في عينيها: كما تفعل الآن.

صمتَ للحظةٍ بعد أنْ لمح دموعها الملتصقة بجفنيها، ثم أدار برأسه بحرج، لم يكن يعلم لماذا فقد أعصابه هكذا، ما الذي ينبغي عليه قوله الآن؟ هل أخطأ وعليه أنْ يعتذر منها؟ ولكنها بنظره هي المخطئة، هي مَن أوصلته إلى هذا الحد، ما كان ليفقد هدوءه المعتاد لولا تهورها.

تمتم باستياء قائلاً: أنتِ طفلة بالفعل! ثم جرَّها مِن يدها مجبِراً إياها على المشي معه، اتجه ناحية (حارث) و(جياد)، فسألها (حارث): هل أنتِ بخير؟

أومأت برأسها: نعم، فعلَّق (رائد) بتهكم: كان عليك أنْ تطمئن على رئيسهم المسكين، فقد قطعت يده بأسنانها!

ربت (حارث) على كتفها وعلق مظهراً إعجابه: أحسنتِ مارغريت!

ثم أتبع موجهاً حديثه إليها ومشيراً إلى (رائد): كان عليك أنْ تجزِّي رقبته أيضاً.

شاركته الهدف ذاته وقالت: سأفعل ذلك المرة القادمة مُعلمي.

بينما اكتفى (رائد) بتحريك عينيه نحوهما بامتعاضٍ واضح.

جلس (جياد) أمام أحد أمتعتهم بعد أنْ استغلَّ انشغالهم، واختطف نظرة متفحصة لمتاع (رائد)، ثم قال: أظن أنَّ لدينا الوقت الكافي لنجلس ونرتاح قليلاً، الطعام الذي غنمتموه وفير، والمهم إنَّ الجياد قد عادت إليكم، أخبرتموني بأنكم متجهون نحو (بيت المقدس)؟

جلس (حارث) إلى جانبه وهو يجيبه بـ: نعـم.

لكن لا تستطيع دخولها، صدقني.

باهتمامٍ اقترب (رائد) منهما وقال: ولماذا لا نستطيع؟

رمقه بنظرة ساخرة وأجاب: لتدخلَها عليك أنْ تكون واحداً مِن ثلاثة: إما حريديمياً، وإما شكنازياً ؛ أما بوجهك العربي هذا ودينك لن تكون سوى عبدٍ، بمعنى أدق: أنت بالنسبة إليهم مجرد (جوييم) لا أكثر.

اتكأ (رائد) بقرب (حارث) وهو يضحك بسخرية، ثم رد قائلاً: يا للسخرية!

شكناز * وحريديم**؟!

ثم صمت وسأل بجدية: وماذا عن السفارديم*** إذن؟ ألا أبدو مثلهم قليلاً؟

---

* حريديم: بمعنى: يهودي متزمت، أو أرثوذوكسي.

** شكناز أو شكنازيم: هم يهود يزعمون أنهم أحفاد نبي الله نوح، وهم يتسمون بالتشدد والانغلاق عن باقي الحضارات، وهو مصطلح يطلق على يهود الغرب اليوم، وتعد الحركة الصهيونية حركة شكنازية.

* جوييم: هو مصطلح عبري عنصري يعني: القطيع البشري، وهو عَلَم على كل غير يهودي.

***: سفارديم: مصطلح يطلق على كلِّ اليهود الذين ليسوا مِن أصل غربي.

رفع عينيه باندهاشٍ نحوه، ثم دقق في عينيه وأجابه: لا يستطيعون دخولها هم أيضاً، إنَّهم موجودون في المدن حول (بيت المقدس)، ولا يُسمح لهم بدخولها إلا في مواسم معينة وبتصريح، ولا يتمكن الجميع مِن ذلك في النهاية.

رفع حاجبيه مستنكراً معلقاً: غريب حقاً! كيف لهم أنْ يصمتوا على ذلك؟!

لم يجبه بشيء، وعلت وجهه بسمة غامضة عجز(رائد) عن فهمها، ومع ذلك

ابتسم وأردف قائلاً: ظننت أنَّ كل هذه المواضيع قد ماتت مع الحرب الكبرى.

قام (حارث) يفتش أمتعتهم؛ ليطمئن على وجود الختم، وهو يعلق قائلاً: محـــــــال، أموت أنا وأنت ويظل البشر في كل وقت قادرين على خلق أي مسمى؛ لتبرير إمبرياليتهم ضد غيرهم، وإحاطتها بهالةٍ مِن القدسية والشرعية، ثم أتبع قائلاً: يوجد هنا الكثير مِن الفاكهة، ثم غمز(رائداً) بعينه مُطَمْئناً له بشأن الختم؛ ففهم مقصده، ثم أخرج كيساً مِن القماش كان ممتلئاً بالفاكهة، ثم قدَّمه لهما وقال: لا بأس، ستكفينا هذه حتى نعود إلى (دَارَيَّا).

التقم (جياد) مِن التفاح ثم قال: إنْ أردتم الدخول إلى (بيت المقدس) فبإمكاني أنْ أدلَّكم على رجل يستطيع فعل ذلك، سيمكنكم مِن دخولها ليس بامتيازات مذهلة، لكن على الأقل أحراراً.

باهتمام سأل (حارث): ومَن يكون؟
اسمه:(عزازيل)، وهو رجل جشع، يفعل أيَّ شيء مقابل المال، سيفعل لك كلَّ ما تريده فقط إنْ كان معك مال وفير.
وأين نجد (عزازيل) هذا؟
سأل (رائد)؛ فأجابه: إنه بـ (بيت لحم)، ستجدونه هناك. (بيت لحم) ليست غاية في الكبر، كما أنَّه معروفٌ هنالك جداً.
بتعجُّب سأل: وكيف سندخلها إذن؟
أخرج غليونه والتفت إليه وأجاب: دخول (بيت لحم) ليس صعباً بملامحك هذه، وإنْ كنتم تجاراً فالأمر أسهل، عكس (بيت المقدس) التي لها مكانة خاصة تمنع ذلك، لقد ولدتُ وعشتُ في (بيت لحم).
بدا واضحاً انزعاج (رائد) مِن رائحة الدخان، وفرَّت مِن شفتيه كلماتٌ تدل على مدى استيائه: أنت تدخن كثيراً يا رجل، وهذا مضرٌّ بصحتك!
نفث الدخان وهو يتابع حديثه ببرود غير آبهٍ بتعليقه: ستفاجَأ بما ستراه هناك، عموماً كما قلت: إن كنتم مصرِّين حقاً، لا يمكنني أنْ أقول لكم سوى أنْ تحذروا ولا تأمنوا أحداً هناك، فالجميع قادر على طعنك مِن الخلف إنْ سنحتْ له الفرصة، هذا ما يمكنني إفادتكم به.
التفت (حارث) إلى (رائد) مستفهماً وهو يشير ناحية (مارغريت) التي اتخذت لها مكاناً بعيداً عنهم؛ حيث اتكأت إلى الشجرة التي كانت مقيدة عليها، وأخذت تعبث بخنجرها على الجليد.

وقف (رائد) بعد أنْ التقط تفاحة بيده وأجاب: إنها غاضبة مني بلا شك، ثم اتجه إليها، وما إنْ أصبح واقفاً أمامها حتى رفعت رأسها ناظرةً إليه، انحنى نحوها وسأل: ما الذي تفعلينه هنا وحدك؟

خفضت رأسها وتابعت العبث بخنجرها، إلا إنَّها هذه المرة كانت تضغط عليه ضغطاً أقوى، وأجابت: لا شيء.

ندت مِن بين شفتيه بسمة ساخرة وهو ينظر إلى الأثر الذي يحدثه خنجرها على الجليد، وعلَّق قائلاً: أشعر وكأنَّك تتمنين لو كان في صدري، ألهذا الحد أنت غاضبة مني؟!

رفعت عينيها ناظرة إليه للحظة، ثم خفضتهما سريعاً دون أنْ ترد.

مدَّ التفاحة إليها وقال: ألن تأكلي؟ منذ البارحة لم تأكلي شيئاً!

لوت فمها بانزعاج وردت باقتضاب: لستُ جائعة.

لقد فشل بإثارتها مرة أخرى، مِن الواضح تماماً بأنَّها لا تريد الحديث معه وبأنها تتجنبه؛ لذا نفث الهواء بضجر ثم جلس إلى جانبها متكئاً إلى الشجرة، وأراح إحدى ساقيه أمامه وقال: أعلم بأنَّك غاضبة مني؛ لأنَّني صرخت بوجهك، آسف على ذلك!

قاطعَتْه قائلةً: لا تعتذر، لقد أخطأتُ بالفعل، لقد استرجعتُ ما حدث، أنا لستُ غاضبة منك، أنا غاضبة مِن نفسي فقط، ما كان لي أنْ أعود وحدي بدايةً.

سحب الخنجر مِن يدها، ثم شطر التفاحة نصفين وناولها النصف مبتسماً وهو يقول: لا بأس، لن أدَعَك تفعلين ذلك مرة أخرى، لن أدعك وحدَك بعد ذلك حتى لو رجوتني.

نظرت إلى التفاحة بعمق للحظات ثم قالت: أحمل سيفاً وخنجراً، ولم أستطع أنْ أدافع عن نفسي، كنتَ محقاً عندما قلتَ: إنَّ التدريبات مع (ليـو) ليست كما في الواقع، لكن..

التقمت مِن التفاحة ولاكَتْها قليلاً ثم أتمَّت: ثقْ في المرة القادمة سأكون قادرةً على سحبه، ولن أدعك تسخر مني مرة أخرى.

قبض على نصف التفاحة بيده وغرق في صمته للحظات ثم قال: أنا لا أريد أنْ تكون هنالك مرة أخرى.

توقفت عن المضغ وباهتمام أدارت رأسها نحوه مصغية فأكمل: ليس مِن الضروري أنْ تفعلي ذلك وتضغطي على نفسك، عليك أنْ تفهمي جيداً بأنَّ مَن يحمل السلاح سيكون أول مَن يتأذى به.

مضت لحظات صامتة بينهما، كان كلٌ منهما خلالها ينظر إلى الآخر فقط، ثم باغتَهَا حاشياً فمَها بنصف التفاحة التي معه وقال مازحاً: تعبتُ وأنا ممسك بها، أنتِ تأكلين ببطء!

أبعدتها مِن فمها وقالت متوعدةً: سأحشو فمك بالثلج وأنت نائم!

وقف مغادراً وهو يقول: أتساءل إنْ كان بمقدورك ذلك، أنت تنامين قبلي دوماً.

ابتسمت برقة، ثم لاكت ما بقي مِن التفاحة.

بعد ذلك اتجه الجميع ناحية (دَارَيَّا)، وما إنْ غربت الشمس وانتصف القمر في السماء حتى كان أربعتهم يقفون أمام مدخلها.

لكنَّ المفاجأة أنهَّا لم تكن كما تركوها؛ بل كانت خاليةً تماماً، مثل: مدينة الياسمين، بيْدَ أنَّ شوارعها كانت ما تزال تمتلئ بالجثث الملقاة على الأرض!

صرخت (مارغريت) بوجلٍ وهي تُدير ظهرها عما تراه، وأمام ذلك المنظر المُوحش

علق (حارث) قائلاً: أيُعقل؟! متى حدث كل هذا؟! هل وقعت مجزرة هنا؟ وقريباً أيضاً؟

تقدم (جياد) بضع خطوات وهو يقول: ربما كان مِن أهل (دمشق) مَن فرَّ هارباً إلى هنا، ولحقه الموت إلى هنا أيضاً، لا أظن أنَّنا سنجد أحياء هاهنا، لقد أخبرتكم مِن قبل بأنَّهم لا يرحمون.

حركت (مارغريت) ساقيها بثقلٍ وترددٍ وهي تقول: سأبحث، ربما أجد أشخاصاً يحتاجون إلى المعالجة، تبعها (حارث) سريعاً، بينما وقف (جياد) ينظر إلى عيني (رائد) الشاخصتين بغضب ونطق: كيف لهم أنْ ينتقلوا بهذه السرعة؟ أريد فقط أنْ أفهم، بأيِّ شيء يرتحل هؤلاء الناس؟

الفصل الثاني: بيتُكم.

الذين يحفظون تاريخهم، يحفظون وجودهم.

كانت أعينهم تحدِّق إلى الأعلى بدهشة على امتداد وارتفاع تلك الأسوار الفولاذية الضاربة على الأرض بقوة، والتي لم تكن حتماً مثل كل الأسوار التي رأوها سابقاً، كانت مغايرة في ضخامتها وقوتها؛ بل وحتى في مادتها.

لفت انتباه (حارث) و(مارغريت) تلك الأشياء البارزة فوق النوافذ الصغيرة، والتي يلتمع منها ضوء أحمر.

اقترب (رائد) مِن السور وتلمَّسه براحةِ يده، لم يُخفِ اندهاشهِ وهو يعلق:

فــــولاذ!

هذا الحصن مسّلح! كيف بُنِيَ؟!

وفي اللحظة ذاتها التي تحدَّث بها، كان ثمة ضوء أحمر يخترقه بشعاعه؛ فقفز سريعاً مذعوراً، وكسى الذعر ملامحهم المملوءة بالدهشة؛ لذا علق (جياد) بقوله: لقد أخبرتكم بأنَّكم ستُذهلون مما ترونه، بالمناسبة، مع تطور(بيت لحم) إلا إنَّها لا تساوي شيئاً أمام حضارة (بيت المقدس).

التفت ناحيته (رائد) متسائلاً: هل تلك المُعلّقة هناك كاميرات مراقبة؟ هل كان ذلك الضوء الأحمر شعاع ليزر؟

صمت (جياد) للحظة، وبرقت في عينيه نظرة مرتابة، كان (رائد) قادراً على فهمها؛ لذا استدرك قائلاً: لقد كان وصف صديقي غايةً في الدقة، ها أنا أرى ما وصفه الآن.

حكَّ (جياد) ذقنه وهو يرمقه بمكر قبل أنْ يطرح سؤاله: وهل صديقك هذا مِن (بغداد)؟

فهم (رائد) بأنَّ السؤال ليس للسؤال، وإنما للإيقاع به، فكما أنَّ كثيرا مِن الأسئلة تحمل أجوبتها معها، هنالك أسئلة لا تنتظر أيَّ جواب، وأيُّ جواب سيكون بمثابة الوقوع بفخ؛ لذا سدَّد إليه نظرات متفحصة، وللحظة ارتجف جفناه، كان مِن الواضح بأنَّه يخفي شيئاً؛ لذا أشاح بوجهه وندت منه بسمة تنم عن السخرية وهو يجيب: حسناً، سأعترف، لقد كانت كذبة، لم يخبرني بذلك أيُّ صديق، ولكن رأيتها بنفسي مِن قبل.

ازدادت بسمة (جياد) اتساعاً وهو يسأل: وأين رأيتها؟

خفض (رائد) رأسه وهو يبتسم بسخرية وتوتر، ثم ثبَّت عينيه في عيني (جياد) وهو يجيب: لو كنت أريد أنْ أجيب على هذا السؤال منذ البداية، لما اضطررت أنْ أخترع كذبة صديقي، ألستُ محقاً؟

حينها لم ينطق (جياد) بشيء، لكنَّ نظراته المرتابة ظلت مثبَّتة نحو (رائد)، استدار (رائد) إلى الخلف ضاماً يديه خلف ظهره، ثم استدار نصف استدارة، ثم عاد ليدير ظهره، كان مِن الواضح بأنَّ تلك الاضطرابات في سلوكه والتي لم يشاهدها(حارث) و(مارغريت) مِن قبل دلالة على أنَّه قد فقد هدوءه المعتاد، وإنَّ ثمة أمر كبير يشغله.

لم تمضِ ثوان على فعله ذاك حتى عاد ليتلفت إلى(جياد) ويقول: اسمع، إنَّني أكره مثل هذه الألعاب؛ لذا دعنا نتحدث بوضوح.

تطلع إليه باهتمام فأتبع: كلانا لا يثق بالآخر ويشك به، وكلانا كذب على الآخر، وكلانا مدرك لذلك... أصدقني القول، أنت، مَن أرسلك إلينا؟

خفض (جياد) عينيه إلى الأرض مبتسماً في سخرية، ثم رفع رأسه والتمعت في عينيه نظرة جادة وصادقة وهو يقول: لن أجيب على سؤالك، ولكن سأخبرك بشيء واحد فقط.

أحد النظر في عينيه وأتبع: أنا لستُ عدوك، ومع هذا أريد أنْ أسألك سؤالاً أيضاً.

رمقه (رائد) باهتمام، فطرح سؤاله قائلاً: أنت، لستَ مِن هنا؟

جفلت عينا (رائد) للحظة وذاك يتبع: أعني، بأنك لست مِن هذا العالـ... لم يكمل كلمته؛ بل انبرت مِن بين شفتيه صرخة؛ إذ وقعت عيناه على (مارغريت) التي لم تكن تتابع حوارهم؛ بل اتجهت نحو البوابة؛ إذ شدَّ انتباهها صندوقٌ معدني غريب الشكل مصمت مِن كل الجهات، وفي وسطه توجد فتحة تتسع لأصابع اليد؛ كانت في تلك اللحظة بالذات تحاول إدخال أصابعها متفحصة لولا أنَّه أوقفها بصراخه المفاجئ؛ فالتفتت نحوه مذعورة كما فعل الجميع، وأتبع يقول بنبرة عالية وكأنَّه ما يزال يواصل الصراخ: إنَّ هذا الصندوق مزود بطلقات ما إنْ يقترب منه غريب حتى يصيبه. ثم خفت صوته وعاد إلى طبيعته وهو يكمل: لذا ابتعدي رجاء!

ثم اقترب مِن الصندوق وأخرج بطاقة ممغنطة وقال: هذه التي ستسمحُ لكم بالعبور أحياء، ثم مرَّر البطاقة بخفة بجانب تلك الفتحة؛ فشعَّت مِن ذلك الصندوق أضواء عدة، وكأنَّها قد استجابت للأمر الذي تلقته للتو، وفجأةً بدأت البوابات الفولاذية تتحرك وتكشف عما وراءها.

التفت (جياد) نحوهم، كانت أفواه ثلاثتهم متدلية مِن الدهشة، وأعينهم لا تخفي شغفها باكتشاف ما وراء البوابات، أشار بيده نحو الداخل وقال: بإمكانكم أنْ تدخلوا الآن.

تبادل ثلاثتهم النظرات، ثم تقدمهم (حارث)، لحقه (رائد) ولكنه لم يخطو خطوة حتى شعر بمن يشده إلى الوراء، التفت فإذ بـ(مارغريت) بوجه شاحب تسأله همساً: هل مِن الجيد الوثوق بعازف المزمار هذا؟! لدي شعور سيء حياله!

لم يجبها (رائد)، وظلت عيناه للحظات تلاحقان (جياد) الذي كان يسبقهم ويتحدث مع (حارث)، ثم فغر فمه عن قوله: إنَّه يعرف.

أمالت (مارغريت) رأسها نحوه لتنظر في عينيه باهتمام، ابتلع ريقه وأتبع: إنَّه يعرف بأنَّي مسافرٌ عبر الزمن.

هزَّت (مارغريت) رأسها نافية وهي تقول: محال!

ابتسم بسخرية وأتبع: وربما يعرف أكثر مِن ذلك بكثير، لقد بدأت أشعر بالإثارة حقاً...

-لا، مستحيل، لا أحد يعلم بشأن سفرك عبر الزمن حتى والي بغد......اد، وجه (رائد) الذي انقلب إلى وجه شخص قد رأى شبحاً يقف أمامه، جعلها تبتر كلماتها الأخيرة.

كانت أطرافه جامدة في مكانها كأطراف تمثال، ونظراته المذعورة مصوبة نحو (جياد)، كان مِن الوضح بأنَّه غارقٌ في التفكير إلى حدِّ الذعر؛ لذا أمسكت بذراعه؛ فالتفت نحوها سريعاً، تأمَّلت ملامحه للحظة وقالت: ما الذي تفكر به؟ لمَ تبدو مذعوراً هكذا؟

عاد لينظر نحو (جياد) وهو يقول: هذا الشخص، لماذا أشعر بأنِّي شاهدته مِن قبل في مكان ما؟ أين يا ترى؟ هل يكون مسافرا عبر الزمن؟ ثم خفض رأسه ونظر إلى (مارغريت)، كان وجهها الصغير قد أُثْقِل بالقلق؛ لذا اصطنع ابتسامة وأمسك بكفها التي تمسك بذراعه وهو يقول: لا تقلقي، لنتبعهم فقط، إنَّ وقوفنا هنا يثير الريبة.

أومأت موافقة، ثم لحقاهما، وما إنْ أصبحا بمقربة منهما حتى سمعا (حارثا) يسأل: سيد (جياد)، ماذا عن خروجنا إذن؟ إنْ كان دخولنا معك سهلاً بهذه الطريقة، فكيف سنخرج؟

تقدمه بخطوات عدة وهو يجيب: بالطريقة ذاتها، ألا تريدون أنْ تقابلوا (عزازيل) الآن؟ سنتوقف عند إسطبل قريب مِن هنا؛ لنضع خيولنا فيه؛ إذ لا يُسمح بركوبها والتنقل بها عبر المدينة، ثم سآخذكم إلى بيتي؛ لترتاحوا، بإمكانكم أيضاً التجوُّل هنا بكل أريحية طالما أنَّكم دخلتم معي، ثم تقدمهم مرة أخرى، فسارعت (مارغريت) خطواتها حتى أمسكت بـ(حارث)؛ لإيقافه، ثم همست إليه: سيد (ليو)، هل يجب علينا أنْ نتقدم معه؟ إنَّ (رائدا) يعتقد ...

فوجئت بـ(رائد) يضع يده على كتفها وهو يقول: لا بأس، أنا أتوق الآن لرؤية هذه المدينة، وأنْ أعرف مَن يختبئ خلف عازف المزمار هذا، في الواقع إنَّني أشتعل حماسة، ثم ابتسم لهما، بادله (حارث) الابتسامة، ثم أومأ إلى (مارغريت) مؤيداً؛ أما هي فقلبُها الذي كان ينتفض مِن شعور غريب راودها حالَ دون ابتسامها.

سبقاها ببضع خطوات، ظلت واقفة للحظات وعيناها تتبعان كتفي (رائد) وشعره الناعم المنسدل على رقبته، وتحركت شفتاها: فقـــــــد؟! لماذا يراودني هذا الشعور؟

التفتا سوياً نحوها ما إنْ شعرا بأنَّها لا تتبعهما، فانتبهت لسرحانها؛ فلحقتهما، وما إنْ ساروا قليلاً حتى بدأت معالم المدينة تظهر أمامهم بوضوح، فالمباني العالية ترتفع لعدة طوابق، والطرق ممهدة بالإسفلت، والأشجار مغروسة على طول الطريق، والأعجب تلك اللوحات الإعلانية التي كانت ترتفع في كل مكان، ويافطات المحلات التجارية، كلُّ ذلك كان كفيلاً بخطف لُبّي (حارث) و(مارغريت)؛ أما بالنسبة لـ(رائد) فلم تكن جديدة عليه، لكنَّ انبهاره كان يكمن في هذا السؤال: كيف لكلِّ هذا التطور الحضاري أنْ يعود فجأةً وفي هذا المكان فقط؟ بينما بقية البقاع تعجّ بحالةٍ مِن الفوضى!

كان يتفرس في وجوه العابرين أمامه، والملاحظة ذاتها تنطبق عليهم، جميعهم ذوو دم عربي، وكانت أيضاً الأعين العابرة تراقبهم، ولم تكن تبدي نظراتها خيراً وهي ترمقهم بوصفهم شيئاً غريباً كلما عبروا مِن مكان أو انحنوا نحو زقاق، حتى توقف (جياد) أخيراً أمام أسوار منزلٍ تظهر حديقة وافرة الاخضرار من خلفه رغم بقايا الثلج الذي كان ينحسر في بعض أجزائها مؤذناً برحيله القريب.

التفت إليهم (جياد) وقال: هذا منزلي، تفضلوا بالدخول.

ثم دفع الباب وسار الجميع خلفه. كانت باحة المنزل الأمامية واسعةً جداً؛ أما مدخل البيت فقد كانت بوابته كبيرة لافتة للنظر، أشار (جياد) قبل أنْ

يفتح الباب إلى مبنى يقبع يمين الباب وقال: تلك هي مكتبتي الخاصة، صحيح إنَّني تاجر، لكن مع هذا أنا مولع بالقراءة، خاصة في الحضارات القديمة، ثم فتح الباب لتظهر مِن خلفه صالة كبيرة ممتلئة بأثاث فخم، والعديد مِن تُحف الزينة واللوحات الفنية الكبيرة، وسلَّم وسطها بُلِّطَ بأفخم أنواع البلاط، أضِفْ إلى ذلك الثريات العملاقة.

وقف الجميع باندهاش يتأملون هذه الجدران الرخامية، وتلك اللوحات التي زينتها، فعلقت (مارغريت) باندهاش: ما هذه الثريات العملاقة؟! لم أرَ مثلها مِن قبل!

أجابها (رائد): إنها ليست مجرد ثريا عادية، إنَّها مصابيح كهربائية.

اعتذر (جياد) قائلاً: آسف حقاً؛ لأن البيت متسخ وممتلئ بالغبار!

ثم فرَّج كلتا يديه وقال: هذا صالون البيت، ثم أشار بيده نحو اليمين وقال: هناك يقع المطبخ، وهنا ثلاث دورات مياه، وفي الأعلى غرف النوم، لم يُكمل تباهيهِ هذا حتى قاطعه (رائد) متسائلاً: أليس مِن الغريب أنْ تسكن في كلِّ هذا البيت الكبير وحدَك؟ أليس لديك عائلة؟

التفت إليه وقد علت شفتيه بسمة ساخرة؛ إذ بدا الآن وكأنَّ (رائدا) قد قلب الطاولة عليه، هزَّ (رائد) كتفيه وعلى شفتيه الابتسامة ذاتها وهو يقول: اعذرني، فأنا رجل فضولي!

نفض الغبار بيده عن إحدى الأرائك وأجابه: لا بأس، لك حق السؤال. نعم لديّ عائلة ولكنها الآن تقطن في (بيت المقدس).

وضع (رائد) سبابته وإبهامه على ذقنه وعلق بتحامُقٍ: (بيت المقدس)؟ غريب! ألم تقل: إنَّ بيت المقدس لا يسكنه سوى الشكناز؟

قاطعه وقد بدا الغضب ظاهراً على وجهه وقال: وما المشكلة إنْ كانت زوجتي مِن الشكناز؟!

تابع رائد باللهجة ذاتها: غريب أيضاً! كيف للأشكنازية أنْ يوافقوا على ذلك؟ ألست عربياً؟ أم أنك لا هذا ولا ذاك؟ هذا غريبٌ حقاً!

ندت مِن بين شفتيه ضحكة خفيفة ساخرة وظل صامتاً للحظات دون أنْ يجيب، ثم تقدَّم نحو السلم وقال: يجب أنْ تدرك بأنَّه لو لم أكن سفارديم فعلاً لمَا كنت أحمل تلك البطاقة، فتوقف عن التشكيك بي، ثم استدار نحوه نصف استدارة وقال: لقد أخبرتك: لست أنا مَن عليك أنْ تلعب معه هذا اللعبة، لستُ عدوك، ثم صعد ثلاث درجات مِن السلم وتابع حديثه قائلاً: إنَّ (الحاخامات) أصدروا فتوى بضرورة فصل الأشكنازية عن السفارديم، وتوزيعنا على (بيت لحم) وبقية المدن.

أرخى (رائد) ذراعيه دون أنْ يُعلّق، إنَّ أعماقه تخبره بأنَّ الواقف أمامه ليس كما يدعي، وإنَّ كل تلك القصص التي يرويها لهم ماهي إلا محض أكاذيب، ولكنه بالوقتِ ذاته ليس شخصاً سيئاً.

تبعه بنظراته حتى توقف فجأة والتفت خلفه، كان الجميع ما يزالون واقفين أسفل السلم ينظرون إليه؛ لذا علت وجهه نظرات تعجب وهو يقول: ما بالكم؟ ألن تصعدوا؟ سنذهب مبكراً إلى (عزازيل)، يجب أنْ ترتاحوا، ثم تابع الصعود.

تبادل ثلاثتهم النظرات فعلَّق (حارث) قائلاً: بدأتُ حقاً أشعر بالقلق، ما قاله ليس كلاماً سهلاً أبداً، علقت (مارغريت) موجهة حديثها لـ(رائد): لم

أفهم شيئاً بشأن حواركما هذا، لكنَّني أشعر بالريبة، ما تلك المصطلحات: شكناز و سفارديم؟ مع أنِّي أظن أنَّني قد قرأت عنها ولكني نسيت.
ثبَّت (رائد) نظره إلى السلم وقال بصوت جادّ: اسمعا، أنا لا أصدقه ومع هذا أنا أثق به، لا خيار آخر أمامنا، سيكون هو بوابتنا للدخول إلى (بيت المقدس)، لقد وعدتُ الوالي وعليّ أنْ أفيَ بوعدي، تلك الدماء التي رأيتها تفيض في القرى ومدينة الياسمين التي أصبحت مجردةً من الياسمين، لا يمكنني أنْ أصمت عنها أبداً وأقف متفرجاً، وإنْ كان يعني ذلك أنْ أخوض هذه المغامرة وأثق بهذا الرجل.
صعد درجتين، ثم استدار إلى الخلف كمن تذكر شيئاً للتو وقال: صحيح، ما إنْ أعرف الطريق إلى (بيت المقدس) حتى تعودَا معاً إلى (بغداد) أو إلى (دومدري)كما تشاءان، الخيار خياركما، ثم سأكمل مهمتي وحدي، لا أريد أنْ أورطكما بهذا معي.
ومع أنَّ الكلمات التي نطق بها (رائد) كانت جادة، إلا أنَّ وقعها عليهما كان كالطرفة؛ لذا علت وجهيهما البسمة الهازئة ذاتها، وصعدَا الدرج معاً، وما إنْ أصبحا بجانب رائد حتى سدد له (حارث) ضربة على ظهره جعلته يتمايل للأمام قليلاً، وهو يقول بلكنة ساخرة: هل سمعتِ (مارغريت)؟! ذلك الأحمق يريد أنْ يأخذ المجد وحده! سأتظاهر بأنَّي لم أسمع شيئاً.
ضربت (مارغريت) ظهره هي الأخرى بقوة أكبر جعلته يتمايل مجدداً وقالت: دعك منه سيد (حارث)، هذا الغر لا يمكنه أنْ يكبر ويَعقِل، سأتظاهر بأنِّي لم أسمع شيئاً، ثم تابعَا الصعود متجاهلَيْن وقوفه تماماً.

بإعجابٍ علق (حارث) قائلاً: لأول مرة تناديني بـ (حارث)، هذا جيد، أنتِ أفضل مِن ذلك الأحمق الذي ما زال يصرّ على مناداتي بـ(ليو).

هزت كتفَيْها وهي تتابع صعودها وقالت: دعك منه، هو يحاول فرض رأيه دوماً، انظر إلي، يناديني دوماً بـ (سحاب)؛ لأنه أنقذني فقط، وأنا لا أحب ذلك، ثم استدارا معاً بعد أنْ وصلا إلى نهاية السلم، كان ينظر إليهما رافعاً حاجبيه باندهاش، بتهكم قالا بصوت واحد: ماذا؟ ألن تصعد؟!

قذفهما بنظرات حانقة وهو يسابق خطواته صاعداً بقية الدرجات، وزمجر قائلاً: أنتما متواطئان ضدي! أنتما تتعمدان استفزازي، مع أنِّي كنتُ جاداً بشأن ما قلته!

التفتت (مارغريت) إلى حارث وقالت: ماذا كان يقول هذا؟ هل كان يقول: إنَّك تحاول استفزازه؟ هل تفعل ذلك سيد (حارث)؟ هل تستفزه؟

هز كتفيه نافياً بسخرية وقال: أبـــــــــداً!

توقف (رائد) وزفر الهواء بغضب مصطنع وقال: أنتما لم تتجاهلانِي فحسب؛ بل تستفزانِّي بكلامكما! ثم سدد لـ(مارغريت) نظرات حانقة قبل أنْ يكوِّر يده ويباغتها بضربة على جبينها جعلت رقبتها تميل إلى الخلف قليلاً ووجهها ينكمش وقال: أنا لم أنقذك.

مال نحوها وأتبع: بل اختطفتك.

ثم اعتدل وهو يقول: عليكِ ألا تنسي ذلك مطلقاً.

حملقت فيه للحظة باندهاش، ثم لوت فمها بسخرية، واستدارت موجهة حديثها لـ(حارث) قائلة: لنلحق بـ(جياد)، لقد عبر ذلك الممرّ.

هزَّ رأسه وهو يتبعها مُجيباً: أكيد.
ثم تابعا التقدم معا وهما يُخفيان ضحكتهما، بينما ظلَّ (رائد) واقفاً للحظات ينظر نحوهما باستياء، ثم تبعهما، وما إنْ وصل ثلاثتهم حتى علَّق (جياد) قائلاً: لقد تأخرتم كثيراً، عموماً..
أشار إلى غرفةٍ في آخر الرواق وقال: هذه غرفتي الخاصة، سأنام فيها، ثم التفت إلى (حارث) وهو يشير بيمينه إلى بوابة غرفةٍ وقال: هذه غرفة ابني الكبير، بإمكانك أنْ تستخدمها، ثم التفت ناحية (رائد) وأشار إلى يساره وقال: وهذه الغرفة المواجهة لها هي غرفة طفلي، بإمكانك أنْ تستخدمها مع زوجتك.
وَجَمَا معاً للحظات، وتجنبا النظر إلى بعضهما خشية أنْ يُفتضح أمرهما، وظلا ينظران ببلاهة نحو (حارث)، حتى اتَّجه (جياد) إلى آخر الرواق، وأغلق باب الغرفة خلفه؛ فتنفسا الصعداء، وما إنْ همَّ (رائد) بالحديث مع (حارث) حتى فوجئ به يندفع سريعاً نحو غرفته ويغلق الباب خلفه وهو يقول: تُصبحان على خيرٍ، ثم أدار مفتاحه مرتين، حلَّ صمتٌ رهيب في المكان، لم يستوعب كلاهما ما حدث للتو، أكان (حارث) يمازحهما؟ إنَّ الموضوع لا يحتمل المزاح إلى هذا الحد، كانا يفكران بأنَّه سيخرج الآن بلا شك وهو يضحك مُعلناً مزحه معهما، ولكن مضى أكثر مِن خمس دقائق بالفعل وهما ينظران نحو الباب ولا شيء سوى صمت القبور.
فقد (رائد) الأمل؛ لذا التفت ناحية (مارغريت)، لكنه وجدها واقفة هي الأخرى عند باب الغرفة المقابلة؛ إذ كانت قد سبقته ولوحت له بكفها وهي تقول: تُصبح على خير (راد)،ثم أغلقت الباب خلفها.

ظل (رائد) يقلب بصره بين البابين المغلقين، وأدرك أخيراً بأنَّه قد تم الغدر به وهو يقف وحيداً في الممر، فقفز سريعاً وقرع باب (ليو) قائلاً: مهلاً، هل ستتركانني حقاً أنام في الرواق؟ هل اتفقتما على هذه اللعبة؟ توقفا الآن، أنا لا أحتمل هذا المزاح الثقيل.

أجابته (مارغريت) مِن خلف الباب وهي تغالب ضحكتها: نم في الصالون إذن، هذا عقاب لك، أنت تستحق ذلك.

ابتعد عن الباب ووقف بالمنتصف ورفع صوته قاصداً أنْ يسمعاه: يا لكما مِن ماكرَيْن! هل تعاقبانني هكذا؟ الجو بارد هنا، ثم راح يقرع باب غرفة (حارث) محدثا جلبةً كبيرةً وهو يصرخ قائلاً: (ليو)، لا تكن أحمق هكذا، افتح الباب وإلا كسرته، كلّ هذا مِن جراء كذبك(ليـــــــــو).

حينها خرج (جياد) مِن غرفته مستطلعاً؛ إذ أجبرته هذه الجلبة على النهوض، دقق النظر في عينَيْ (رائد) الذي بدا عليه الارتباك، وعلَّقَ قائلاً: ماذا، هل طردَتْك زوجتك؟ عليك أنْ تُصلح علاقتك معها، أنت تسيء إليها كثيراً.

أطلق (رائد) ضحكةً حمقاء تعبِّر عن الخيبة وأجاب: كلا كلا، لقد خرجتُ؛ لأنني أريد دورة المياه.

أشار له بعينيه إلى اليمين وهو يقول: ستجدها هناك، ولا تُحدث مثل هذا الضجيج، أريد أنْ أنام، ثم أغلق الباب خلفه بقوة.

حينها فُتح باب غرفة (مارغريت)، وظهرت مِن خلفه تضع يدها على خصرها وتنظر إليه بازدراء؛ فعلق (رائد) قائلاً: ماذا؟ هل غيرتِ رأيك؟

قذفت في وجهه الغطاء وقالت: سيدفئك هذا، أنت تستحق أنْ تعاقب، ثم استدارت نحو الباب وأتبعت: بالمناسبة، الغرفة جميلة جداً ودافئة! ثم أغلقت الباب خلفها، وأدارت المفتاح مرتين.

وجد (رائد) نفسه في رواقٍ مظلم و بارد، وبجواره غطاء لا يبدو عليه السُّمك، التقط الغطاء عن الأرض وابتسم وهو يسرّ في نفسه: أشعر فجأة وكأنِّي أصبحت سندريلا أو ساليّ، ثم اتكأ على باب غرفة (حارث)، ولكن ما إنْ وقعت عيناه على باب غرفة (جياد) حتى بدل مكانه، واستند إلى جوار باب غرفة (مارغريت).

وضع سيفه إلى جانبه وهو يتمتم قائلاً: علمني (ليونهارد) ألا أضع سيفي مطلقاً، ثم غفا، وبعد بضع ساعات استيقظ فجأة، ولمح (جياداً) يتجه إلى يسار الممر، نفض الغطاء عنه، وسار يتبعه بأطراف أصابعه، اتجه (جياد) إلى آخر الرواق، ثم أدخلَ المفتاح في باب إحدى الغرف، وأدار الباب ودخل، فتراجع (رائد) إلى الوراء وعاد إلى حيث كان، وانتظر بعضَ الوقت متظاهراً بالنوم، وما إنْ عاد (جياد) إلى غرفته، حتى تحرك (رائد) عابراً المكان ذاته، وما إنْ اقترب حتى فوجئ بأنَّ باب تلك الغرفة مفتوح! وبدت خاليةً مِن كل شيء عدا اللوحات التي عُلّقت على جدرانها.

حدَّث نفسه قائلاً: هل نسي أنْ يوصدها؟ أم أنَّه تعمَّد فعل ذلك؟

لمح وهو ما يزال يقف قرب الباب اللوحةَ التي تقع بالمنتصف؛ فتوقف فجأة، دقق النظر فيها، ثم أدار الباب، ليجد نفسه واقفاً أمام لوحة رُسم

عليها شعارٌ غريبٌ، بدا كأنَّه شمعدان لخمس شموع، الثلاث الوسطى أطول مِن الاثنتين الباقيتين.

اقترب منه؛ ليتفحصه عن قرب، ثم لفت انتباهه وجودُ لفافةٍ قديمة مِن ورق، قام بفتحها، وإذ بها مخطط للسور الذي يحيط بالمدينة، وعليه علامات، ومواقع الكاميرات، ومواقع الضعف فيها كذلك، وفي نهاية الورقة دُوّنت ملاحظات تشرح كيفية اختراق نظام البوابات.

دقَّقَ النظر فيها للحظات محاولاً استيعابها وحفظها، ثم أحسَّ بالارتباك وسيطر الوجل عليه؛ فأغلقها على عَجَلٍ وهو يتلفَّت خلفه بذعر، تراجع بخطواته إلى الوراء، وهو يشدّ على ياقةِ ثوبه مُحدقاً بتلك اللفافة محدثاً نفسه: شيءٌ كهذا ما الذي يفعله في منزل عازف المزمار؟!

الفصل الثالث : النجمة الفضية.

نحن نمارس فرض هيمنة غير مقصودة؛ للاستحواذ، تحت مسمى:
الحب.

في صباح اليوم التالي استيقظ الجميع وهم في قمة نشاطهم عدا (رائدا) الذي كان يشعر بألمٍ في كتفيه جراء نومه في الرواق.
كان (جياد) قد أعدَّ وجبة إفطار لهم، وما إنْ تحلَّقوا جميعاً حول السفرة، حتى لاحظ (جياد) ما قامت به (مارغريت) قبل تناولها الطعام؛ أما (رائد) فقد كان ذهنه مشتَّتاً وصدره يتوغل بالأسئلة الكثيرة التي حيرته وأربكته حول ما شاهده ليلة البارحة في تلك الغرفة الغريبة، لكنه آثر الصمت عندما تنبَّه إلى نظرات (جياد) التي لم يرفعها عن (مارغريت)، فقام بإسقاط ملعقته فجأة؛ ليحيل نظراته عنها.
أدار (جياد) رأسه؛ ليلقي نظرة على ما حدث، لكنه أسند ذقنه على سبابته وسرعان ما وجَّه نظراته مجددًا نحو (مارغريت) وقال: هل سمعتِ يوماً عن كنيسة المهد؟
وضعت ملعقتها جانباً، ونظرت إليه بنظرات تكسوها الدهشة، وما إنْ همَّت بالجواب حتى قال (حارث): التي وُلد بها المسيح؟
باهتمامٍ واضحٍ على وجهها أجابت: لقد سمعت عنها سابقاً.
مسح (جياد) فمه بكل هدوء بينما كان الجميع ينظر إليه محدقاً، ثم قال وهو يوجِّه حديثه إلى (مارغريت): كانت كنسيةً في السابق، وأصبحت مُتحفاً للدراسة الآن، لكن النجمة الفضية ماتزال موجودة في مكانها، وهي تُعرض باعتبارها جزءا مِن المتحف، الحقيقة لقد أعيد بناؤها، وربما لا تكون قد وضعت في المكان الصحيح.
كررت (مارغريت) بصوت منخفض وكأنَّها تتساءل، والحرج يتشكَّل بين حاجبيها وعينيها: النجمة الفضية؟!

فهم (رائد) مِن نظراتها المرتبكة بأنَّها أول مرة تسمع بها عن هذه النجمة؛ لذا استدار نحوها وقال لها: إنَّه المكان الذي يُظن بأنَّ المسيح قد وُلد فيه، ثم أتبع بصوتٍ أقرب للهمس: لقد قرأت عنها سابقاً.

أومأت برأسها موافقة، ولكن كان الحرج قد غمر وجهها بالكلية، فبدأت تلعب بأصابعها على الطاولة علها تخفف مِن حدته، حينها قال (جياد): ما رأيكم أنْ نذهب إليها أولاً؟

لكنَّ (حارثا) اعترض بقوله: ماذا عن (عزازيل) الذي ذكرته؟ نحن لم نأتِ إلى هنا للسياحة؟

وقف (رائد) بعد أنْ ألقى نظرة سريعة على ملامح (مارغريت) التي فشلت بمحاولة الظهور بمظهر غير المهتمة ثم قال: دعنا نذهب (حارث)، إنَّها فرصةٌ لن تتكرر حتى بالنسبة إلي أيضاً، نريد أنْ نشاهد هذه المدينة، ما رأيكِ سحاب؟

ارتسمت على وجهها بسمة خجلة وهي تجيب: كما تشاء.

وقف (جياد) وهو يقول: إذن، لنتجهز، لكن..

التفت إلى (حارث) و(رائد) وقال: مِنْ الأفضل أنْ تُبدلا ثيابكما هذه، تستطيعان الاستعارة من ثيابي، ثم التفت إلى (مارغريت) وقال: وهذه المرأة أيضاً، طراز ملابسها لا يتناسب مع هذا المكان، بإمكانها أنْ تستعير مِن ملابس زوجتي، أظن بأنَّها تركت بعض الثياب.

لم يشعر (رائد) بارتياح جراء تعليقه الأخير، لكنه آثر الصمت، وصعد الجميع؛ ليبدلوا ثيابهم.

ارتدى (رائد) و(حارث) بِنطالين مِن الجينز، وقميصين ملونين.

علَّق (حارث) وهو ينظر إلى نفسه في المرآة قائلاً: هذه الثياب تذكرني بك في أول يوم قابلتك فيه في (دومدري).
ألقى (رائد) نظرة سريعة إليه وعلق بابتهاج: يبدو مظهرك كرجل في القرن الحادي والعشرون بهذا الزي!
ثم وقف للحظات ينظر إلى نفسه ويعيد خصلات شعره إلى الوراء وهو يقول: اعترف (ليو)، ألا أبدو جميلاً بهذا المظهر؟
اكتفى (حارث) ببسمة خفيفة دون أنْ يعلق بشيء، فتقدم (رائد) نحو الباب وقال قبل أنْ يديره: لستُ أتعجب مِن شيء هنا، ثم التفت إليه وأتم: أشعر بأنَّ هذا البيت وحده يحوي لغزاً كبيراً، ثم أدار الباب خلفه.
كانت (مارغريت) في اللحظة ذاتها قد أدارت باب غرفتها، وظهرت مِن خلفه وقد ارتدت فستاناً أحمر، ذا فتحة دائرية كبيرة عند العنق، وأكمام طويلة؛ أما طوله فقد كان أسفل ركبتيها بقليل.
ما إنْ وقعت عينا (رائد) عليها وهو الذي لم يشاهدها قبلاً بهذا المظهر، حتى أصبح وجهه بلونه أو قريباً منه، للحظات ظلَّ ينظر إليها بوجه جامد فاغراً فمه؛ أما هي فقد انكمشت ملامحها وقطبت حاجبيها بضيق وهي تسأل: مالك تنظر إليَّ هكذا؟!
غطى وجهه وكأنه قد استوعب للتو ثم قال: أنتِ، كيف لكِ أنْ..
ولكنَّ صوت انزلاق باب غرفة (جياد) أجبره على الصمت فجأة، ثم ومِن دون أنْ يفكر اندفع ناحية (مارغريت) ودفعها لدخول الغرفة، وأغلق الباب خلفه، وما إنْ تمالكت نفسها واعتدلت حتى صرخت بوجهه: لماذا دفعت بي هكذا؟!

أشار بسبابته نحوها دون أنْ ينظر إليها، وقال: بسرعة بدِّلي ثوبك هذا، أين تعتقدين نفسك؟

باعتراض قاطعته: هكذا إذن؟ حتى أنا لم يرق لي، ولكن قبل أنْ تعترض انظر هنا، جميعها الشيء ذاته.

رفع عينيه ببطء متجنباً النظر إليها، ونظر حيث وضعت بقية الثياب على السرير، فكان جلها كذلك.

أدار رأسه إلى الجانب الآخر محاولاً استعادة هدوءه وعلق قائلاً: هذا؛ لأنَّ ساقيك طويلتان زيادة.

صرَّت على أسنانها باستياء وهي تجيب: وماذا أفعل بهما! هل أقصهما؛ كي ترتاح!

ثم وضعت يدها على صدرها وربتت محاولة تهدئة نفسها وطمأنة قلبها الذي يخفق بشدة، ثم أخذت نفساً عميقاً وزفرته وقالت: لقد دفعتني بقوة، لقد أفزعتني حقاً!

وأخيراً استطاع أنْ يلتفت إليها وينظر في عينيها وقد غشيت وجهه لمحة أسف وقال: آسف حقاً! اعتذر لاندفاعي! المهم الآن بدلي هذا الثوب وارتدي أيَّ شيء مِن ثيابك.

لم تقل شيئاً يدل على اعتراضها، ولكنها اتجهت إلى حيث كان يقف هو إلى جوار الباب، وهمت بفتحه؛ لتغادر.

وضع يده على الباب وقال: سحاب، ولكنها لم تستمع إليه، وعادت تمدُّ يدها؛ لتفتح الباب، فأمسك بمعصمها؛ فتوقفت دون أنْ تنظر إليه، وكرَّر رجاءه، رفعت عينيها نحوه فأتم: ليكن هذا مِن أجلي.

شعرت بحرارة تنبثق مِن خديها؛ لذا أشاحت بوجهها، ودفعت يده وهي تتجه نحو الثياب وتجمعها بارتباك واضح وتقول: ليكن في علمك، لن أفعل هذا مِن أجلك، أنا فقط غير مرتاحة به، ثم سددت نحوه نظرات حانقة وقالت: ما الذي أصابك تعترض على كل ما أفعله؟

قذفت الثياب داخل الخزانة، ثم اتجهت نحو أغراضها وأخذت تعبث بها بتوتر واضح، والتقطت ثوباً منها ولكنه سقط مِن يدها، وبدلا مِن أن تنحني لتلقطه، رفعت رأسها وغشيت ملامحها لمسة حزن وقالت: إنني أدعو للشفقة حقاً، أتحدث عن قوتي وعن استخدامي السيف وأتحدث عن (يسوع) و(العذراء) أمامكما ومع هذا..

بدأ صوتها يتحشرج وهي تتم: كنتُ كالحمقاء بينكم حين تحدثتم عن كنيسة المهد، وأنا لم أسمع عنها مطلقا، ولاعن النجمة الفضية هذه، أنا لا أعرف شيئاً البتة.

لم يعلق (رائد) بشيء على كلامها الأخير، واستدار نحو الباب، وما إنْ همَّ بالخروج حتى قال: آسف؛ لأني أتصرف حيالك بأنانية بعض الشيء! رفعت رأسها تنظر إليه باستغراب وكانت قد التقطت الثوب عن الأرض؛ وإذ به يثبت عينيه في عينها ويقول: لقد أخبرتك مِن قبل بأنِّي خاطفك.

فغرت فمها لا تدري ما تقول، فقد غمر قلبها إحساس غريب؛ أما عيناها فقد امتلأت بالدموع؛ أما هو فوقف مديراً الباب وقد بدا نصف وجهه لها تعلوه بسمة مشرقة وأتم: عليكِ أنْ تتحملي تبعات ما وهبتني إياه، ثم أغلق الباب خلفه، ووصلها صوت (حارث) وهو يعلق ساخراً: (رائد)، لقد كنتُ أبحثُ عنك وأنت هنا! ما الذي كنت تفعله؟!

ظل الجميع واقفاً أمام البوابة بانتظار وصول (مارغريت)، في حين أخبرهما (جياد) بضرورة ترك سيفيهما في المكان؛ حيث لا يسمح هنا بحمل السلاح للمواطنين، وإنَّ مَن يفعل ذلك يعاقب بالسجن؛ فتركا السيفين جانباً على مضض، حينها قدِمت (مارغريت) وقد ارتدت ثوبها الفيروزي الذي سافرت به بداية، وربطت أطراف شعرها بشريط فيروزي بإهمال واضح، وما إنْ رآها (جياد) و(حارث) حتى سبقاها ببضع خطوات؛ أما (رائد) فظل واقفاً ينتظرها، وما إنْ توقفت أمامه حتى أشار إلى حزامها وقال: ضعي سيفكِ هنا، لقد أخبرنا (جياد) بذلك.

نظرت إليه باستنكار وسألت: ماذا عن الخنجر إذن؟

أخفيه في حزامك، ربما نحتاج إليه، مَن يدري ماذا سيحدث! أنا لست مرتاحاً لخروجنا هكذا دون أيّ سلاح، ثم تقدم خطوتين، ولكنه التفت إليها حينما شعر بأنَّها ما تزال واقفة مكانها، ونظر إليها متسائلاً؛ فأشاحت وجهها إلى الجهة الأخرى، وبرزت على خديها حمرة خجل وهي تقول: عليك ألا تتحدث معي لبعض الوقت، ما زلتُ أشعر بالغضب منك!

ابتسم برقة، وفوجئت به يقترب منها ويلتف خلفها، أمسك بشريط شعرها وهو يقول: قفي مكانك لا تلتفتي. ثم عقده لها جيداً، وما إنْ انتهى حتى قال: حسناً، لن أتحدث معك حتى تطلبي ذلك مني.

تقدمت بضع خطوات للأمام وهي تشعر بقلبها ينتفض في صدرها خجلاً، أخفت الخنجر في حزامها العريض بارتباك وتلعثمت قائلة: لئيم! لقد فعلت ذلك؛ لتسترضيني.

اعترض بقوله: أبداً، لقد كاد أنْ يقع، أعلم ما الذي سيحدث لو فقدته، ستجبريننا على البحث عنه كالمرة السابقة.

-قلت: لا تتحدث معي.

قالتها ثم سارعت بخطواتها وكأنها تفر هاربة، فلحقها حتى انضما إلى(جياد) و(حارث).

بعد ذلك عبروا الطريق قاصدين متحف المهد، كان كلُّ شيء مختلفاً في (بيت لحم)، الشوارع والناس، كانت المدينة تفيض بالحياة، فالكلُّ فيها في نشاط دائم، اليافطات كثيرة وذات أضواء مبهرة، والمحلات منوعة ومنظمة، ولكل شيء سوقه، أيضاً كانت ممتلئة بالمراقص الليلية وبيوت الاستحمام، وكانت غالبية النساء يرتدين ملابس تخلو مِن الحشمة على نقيض ما اعتادوا عليه في (دومدري) و(بغداد)؛ لذا كان (حارث) مستنكراً؛ أما (مارغريت) فترفع حاجباً وتخفض الآخر في تعجبٍ شديد.

علق (رائد) وهو ينظر إلى وجه (حارث) قائلاً: هل أنت متفاجئ مما تراه؟ عني أنا لا أشعر بأنَّي أرى شيئاً جديداً.

تلفَّت حوله وأتم: بل إنِّي أبحث عن بعض الأشياء الناقصة هنا.

علقت (مارغريت) موجهةً حديثها لـ(رائد): أنا أشعر بالبرد، عظامي تنتفض، بماذا يشعرن هؤلاء؟!

رمقها (رائد) بنظرة ماكرة، وقال: ألم تطلبي مني عدم الحديث معك؟!

توقفت فجأة، ورمقته بغيظ فقد نال منها هذه المرة؛ لذا ضربته على كتفه بخفة، وحاولت جاهدة أنْ تخفي ابتسامتها وهي تقول: لم أكن أحدثك،

كنتُ أحدث (حارثا)، ثم سبقتهما. بعدها بلحظات كان الجميع يقف أمام متحف المهد الذي كان (كنيسة)على مرِّ عصور كثيرة.

وقف (جياد) وهو يشير نحو البوابات، وقال: اسمعوا، أنتم لستم مهتمين بالمادة التي يعرضها المتحف، المهم هو أنْ تروا (النجمة الفضية)، ثم اقترب مِن (مارغريت) وقال محذراً: عليكِ ألا تُظهري أيَّ خشوع أو احترام، أو أيَّ شيء مِن هذا القبيل، هل فهمتِ؟

رفعت حاجبيها مستنكرة وهمَّت أنْ تسأله وتستفسر أكثر، ولكنه لم يمنحها الفرصة؛ إذ كان قد سبقهم وتركهم خلفه غارقين في حيرة. علق (رائد) قائلاً: أعتقد أنِّي فهمت لماذا قال ذلك، لا تشعري بالغضب جراء ما سوف ترينه الآن.

-ما الذي تعنيه؟

أشار إلى البوابات وقال: لندخل أولاً.

وبالفعل، لقد صدق حدسه، فالمتحف كان عبارة عن عرض لتاريخ المسيحية عبر القرون، ولكنه لم يكن سوى عرض يمتهنها في الواقع. ما إنْ عبروا مِن إحدى الغرف حتى توقفت (مارغريت) تنظر لإحدى الصور التي كُتبت تحتها كلماتٌ باللغة العبرية.

بقيت للحظات تتأملها ثم قالت معلقة: لقد فهمت ما قصدته يا (رائد)، وما عناه (جياد).

التفتا إليها باهتمام، فتابعت وهي تشير إلى الكلمات تحت اللوحة: إنها كلمات تمتهن (يسوع).

وَجمَ (رائد) للحظات، وكأنه يريد أنْ يستوعب ما عرفه للتو، ثم فغر فمه باندهاش قائلاً: لحظة، هل قرأتِ هذه الكلمات حقاً؟!

باندهاش تبادل النظرات مع (حارث) الذي علق هو الآخر قائلاً: أنتِ حقاً مذهلة (مارغريت)! أخبريني، كم لغة تتحدثين الآن؟ هل تعلمت العبرية مِن السيدة (جين) أيضاً؟

عدت بأصابعها وهي تقول: أنا الآن لا أجيد سوى لغتي الأم، والأرمنية، والعبرية، وأخيراً تعلمت العربية.

ضحك (رائد) باندهاش وهتف بإعجاب: وتقولين أنك لا تعرفين شيئاً! على الأقل أنتِ أفضل من هذا الهَرِم الذي ما زال يناديني بـ(راييد).

- مَن الذي تنعته بالهَرِم؟ ما زلتُ في الثلاثين!

رمقه بسخرية وهو يعلق: لقد قلت ذلك قبلاً ونحن في (دومدري)، هل أصبحتَ كالنساء؟

حينها قاطعتهم إحدى مرشدات المتحف وأمرتهم بالتزام الهدوء.

شعرا بالحرج وهما يتابعان طريقهما وسط تعليقات لاذعة مِن (مارغريت)، حتى وصلا أخيراً إلى حيث سبقهم (جياد) إلى النجمة الفضية، وما إنْ أبصرهم حتى قال: لقد تأخرتم.

أجابه (حارث): لقد لفت انتباهنا بعض الأشياء.

أشار إلى مدخل بدا كالمغارة وهو يقول: لا بأس، عموماً هنالك النجمة التي حدثتكم عنها.

-حيث ولد يسوع، هل ولد هنا حقاً؟

قالتها (مارغريت) وهي تضم كلتا كفيها، ربَّت (رائد)على كتفها، وقال: اذهبي بسرعة، سننتظرك هنا.

أومأت برأسها، ثم اتجهت إليها بينما وقف (حارث) يتبعها بنظراته، فسأله (رائد): ألن تذهب معها وتشاهد؟

هزَّ رأسه نافياً، فقال (رائد) باندهاش: غريب ألا يدفعك الفضول حتى!

هزَّ رأسه مجدداً وقال: أبداً، لم أؤمن ذات يوم ببعثه بعد صلبه أصلاً حتى حينما كنت مسيحياً، هل تصدق أنَّه ولد هنا (راد)؟ لقد زُيف التاريخ في فترات كثيرة منه؛ ليخدم مصالح فئات ضد أخرى، أنا لا أؤمن بمصداقيته، وهل تعلم أيضاً حتى عودة المسيح كنتُ أكذبها أيضاً؟ لكني اليوم أنتظر عودته بفارغ الصبر.

سَرَت قشعريرة في جسد (رائد) انتصبت لها شعيرات جسده، فطوق نفسه بذراعيه، وأخذ يمسح عليهما براحة كفيه، وهو يقول: لقد أحسست بالرعب فقط؛ لتخيل تلك الأحداث، أريد أنْ أعود قبلاً.

أطلق (حارث) ضحكة بصوت عالٍ وهو يعلق قائلاً: مَن يدري؟ ربما يحدث ذلك الآن.

-توقف عن اللعب بأعصابي!

حينئذ كانت (مارغريت) قد عادت، لكن بوجه مختلف.

سأل (جياد) باهتمام: هل نذهب الآن لملاقاة (عزازيل)؟

أومأ الجميع بالموافقة؛ فعبروا الطريق نحو بوابات الخروج.

أثناء ذلك لاحظ (رائد) شرود (مارغريت) وصمتها، فأمال برأسه ناحيتها، وقال: ماذا دهاك؟ أنتِ لا تبدين على ما يرام.

توقفت فجأة وعيناها مثبتتان على الأرض، وقالت: (رائد)، أنا لم أشعر بأي شيء، أنا حتى لم أعرف ما الذي يجب عليَّ قوله.

أمسك بكفها فجأة، فرفعت عينيها نحوه، فإذا به يقول: في (القدس) هنالك كنيسة تسمى: (القيامة)، يعتقد المسيحيون أنَّه المكان الذي صُلب فيه (يسوع)، ومنه قام مِن بين الأموات في اليوم الثالث، أنا لا أؤمن بهذا، لكن...، ثم ضغط على كفها وشدَّ عليها دافعاً إياها للمشي وأتم: أعدك بأنني سأجعلك تشاهدينها.

توقَّفت تنظر إليه تُغالب دموعَها ثم غطت عينيها بكفها، وارتسمت على شفتيها ببسمة ممتنة وهي تقول: أنـــــــــتَ، تستطيع تعديل مزاجي بكلمة، وتستطيع استفزازي بكلمة أيضاً.

ندت مِن شفتيه بسمة مشرقة وهو يجيبها: هذا؛ لأني أخبرتك سابقاً بأنَّك (سحابة).

أزاحت كفها ونظرت إليه باهتمام وسألت: ما الرابط بينهما الآن؟

تنهد بخيبة وهو يجيب: نشِّطي دماغك المثقوب، وستفهمين.

أوقفته قائلة: مهلاً، وما الذي قصدته اليوم بقولك: عليَّ أنْ أتحمل تبعات ما وهبتك إياه؟ لا أذكر بأنِّي أعطيتك شيئاً، هل سرقتَ شيئاً مني وأنا لا أعلم؟

توقَّف ينظر إليها وقد كست ملامحه الصدمة، ولوهلة تمنى في أعماقه لو يمد يده ويصفعها، زفر باستياء وتمتم بصوت منخفض: أنت لماحة وذكية، ولكنك غبية فيما يتعلق بك، ثم رفع صوته وهو يكرِّر: نشِّطي دماغك المثقوب.

حينئذ جاء صوت (حارث) منادياً، وهو يلوِّح بكفِّه أمامهما وقد سبقهما بمسافة: أنتما، متى ستصلان؟ توقفا عن الثرثرة.

علَّق (جياد) قائلاً: هذان زوجان ثرثاران حقاً.

لكن (مارغريت) تجاهلت ما سمعته تماماً، وظلت تردد سؤالها على (رائد): توقف عن السخرية، ما الذي قصدته؟ لماذا لا تريد إفهامي؟

أمسك بكفها، ثم جذبها للإسراع وهو يجيب: ألم تقولي لي ألا أتحدث معك؟

-لا تتغابى! تعرف أنِّني لا أستطيع ذلك، لقد أصبتُ بالعدوى منك.

ولكنه مع هذا تجاهلها، ولم يجب رغم محاولاتها الكثيرة، وأخيراً وبعد طول مشي وبعد أنْ عبروا شوارع عدة كان يتفرَّس فيها (رائد) وجوه العابرين توقف (جياد) عند حانة وأشار إليها وهو يقول: هذه هي، هنا سنجد (عزازيل) حتماً، ثم دخل قبلهما. أوقف (رائدٌ) (حارثاً) الذي كان يتبعه وقال: مهلاً.

التفت إليه، ثم قال وهو ينتقل بعينيه بينهما: ألم تلحظا ذلك البرج الكبير الحديدي الذي كان يظهر مِن خلف المباني؟

بلى، لقد رأيته.

أجابه (حارث)، فأتبع (رائد): لقد تصورت بأنَّه برج للاتصالات، ولكن لم أجد أحداً مِن الناس يحمل هاتفاً! مع أنِّي لا أشك بوجودها هنا.

باهتمام سأل (حارث): تعني مثل ذلك الجهاز الذي وجدته معك أول مرة؟

- بالضبط.

اقتربت (مارغريت) مِن الباب وقالت: ربما تكون اتصالات، ولكن ليست كالتي تعرفها، أو اتصالات لنوع مختلف، ربما ليست بين الناس.
صمتا للحظة وقد بدت الدهشة على وجهيهما، رفعت حاجبها بتعجب وقالت: ماذا؟ لمَ أنتما مندهشان هكذا؟ هل قلتُ شيئاً خاطئاً؟
ابتسم (رائد) وهو يقول: بل أظنك قد أمسكتِ بمربط الفرس.
أيَّده (حارث) بقوله: صحيح، ربما يكون مركز اتصال لمركز الحكومة الرئيسة في (بيت المقدس)؛ أي: مركز للمراقبة، لندخل الآن، مِن الأفضل لنا أنْ نكون حذرين بحوارنا معه.
حينما فتحوا الباب، بدت الحانة كبيرة مِن الداخل، ذات ديكور غريب في تصميمه، تتوسطها عدة طاولات دائرية، الغريب أنَّ جميع الجالسين مِن الرجال، عدا امرأة واحدة كانت تصبُّ الخمر وتملأ كؤوسهم!
أشار إليهم (جياد)، كان يجلس في منتصف الحانة، وإلى جواره رجل يضع الكيبا* على رأسه، كان ذو وجه دائري، وخدين واسعين، وجبهة عريضة تمتلئ بالخطوط كذلك، وأنف كبير، وعينين صغيرتين، وشفتين بالكاد تبرزان.
اقترب ثلاثتهم منهما، وما إنْ أصبحوا أمامهما حتى قال (جياد) موجهاً حديثه لـ(عزازيل): هؤلاء الذين حدثتك عنهم.

---

*الكيبا أو الكيباه: هي غطاء رأس صغير ومستدير الشكل، يرتديه الرجال اليهود الأرثوذكسيين طيلة الوقت توقيرًا لـ(الله)؛ حيث لا يجوز ذكر اسم الرب على فم مَن كان رأسه مكشوفًا بحسب شريعة الهالاخاة.

نظر إليهم متفحصاً بينما هم يجلسون، ثم قال بعربية ركيكة: مرحباً بكم.

أجابه (حارث): ومرحباً بك.

قرَّب رأسه منهم وقال بهمس: هل تريدون حقاً دخول (أورشليم)؟

هز ثلاثتهم رؤوسهم مؤكدين، حينها وقف (جياد) معتذراً، وقال: لدي عمل مهم الآن، سأعود؛ لاصطحابكم بعد نصف ساعة.

ثم خرج بينما كانت أعَيُن ثلاثتهم تتبعه بوجلٍ شديد، حينها نادى (عزازيل) على النادلة وقال: أحضري ثلاثة كؤوس إضافية.

رفع (رائد) يده معترضاً وهو يقول: سيدي، هذا لطف منك، ولكننا حقيقة أتينا إلى هنا للعمل، ولم نأتِ لنشرب، أليس كذلك؟

حرَّك الاثنان رأسيهما موافقين، فعلَّق (عزازيل) باستنكار: غريب! وهل يُعقد عملٌ دون كأس شراب؟! المهم، أخبروني الآن لمَ تريدون الذهاب؟

تبادل النظرات ثلاثتهم، ثم تحدث (رائد): نحن مهووسون بالتراث، قد لا يبدو هذا واضحاً علينا، ولكننا نعشق التراث ودراسته، وعلمنا أنَّ في القدس...، تلعثم وأكمل: أعني، في الواقع كنت أقول علمنا بأنَّ في (أورشليم) أماكن أثرية كثيرة.

مع أنَّ (عزازيل) قد تنبَّه لخطأ (رائد) إلا أنَّه تظاهر وكأنَّه لم يسمع شيئاً وعلق قائلاً: ولكنَّ هذا ممنوع قانونياً هناك.

نعرف ذلك، لكننا نعشق المغامرة.

أجابه (رائد) بذلك، فارتشف (عزازيل) مِن كأس الخمر أمامه، وقد بدا واضحاً على وجهه عدم اقتناعه، ثم قال: ولكنني لستُ مسؤولاً عما سيحدث لكم، أنا فقط سأضمن دخولكم إلى هناك بمأمن، ولكن ليس بالقليل طبعاً.

أخرج (رائد) مِن جيبه كيساً قماشياً وضعه أمامه وقال: أتكفي هذه؟ مئة قطعة ذهبية.

نظر إليها باحتقار مُخرجاً إحدى القطع؛ ليتفحصها، وقال: هذا يكفي لبطاقة واحدة فقط، لواحد منكم، ثم استدار بعينيه ناحية (مارغريت) وقال متبجحاً: ربما هذه تفي بثمن واحدة أخرى وربما لا.

شخصت عينا (رائد) وانتفش وجهه بالغضب؛ إذ لم يتخيل أنْ يتلقى مثل هذا الجواب منه؛ فوقف وصرخ: ما الذي تظنه بنا أنت؟

أمسك (حارث) بذراعه؛ ليجلسه، وقال وهو يرمق (عزازيل) بازدراء: اهدأ (رائد) إنَّه ثَمِل.

علَّق (عزازيل) بتهكم: لست ثملاً، أنا بكامل قواي العقلية.

وقفت (مارغريت) وعلامات الاشمئزاز بادية على وجهها وهي تقول: لنذهب.

نظر إليه (رائد) وقال: أنت تريد ضعفي هذا المبلغ، سنحضره لك، على أنْ تعدنا بضمان دخلونا لـ(أورشليم) أحراراً.

هزَّ رأسه دون اكتراث، وهو يقول: إنْ أحضرتموه طبعاً.

بينما وقف ثلاثتهم مغادرين، أردف وهو ينظر لـ(مارغريت) ويقول بتهكم: تستطيعون دفع الثمن بها!

استدارت (مارغريت) نحوه، ورمقته بعينين تشتعلان غضباً واشمئزازاً، بينما أطلق هو ضحكات هستيرية.
تمتم (رائد) وهو يكز على أسنانه: لو أنَّ سيفي معي فقط، لكان هو أول جرائمي.
أجابه حارث: إنَّه فقط يريد استفزازنا، على الأرجح هو لم يصدق ما قلته له، يبدو أنَّنا مضطرون للتعامل معه للأسف.
تلفَّت (رائد) حوله وهو يقول: ماذا الآن؟ هل ننتظر (جياداً) هنا؟
أجابه (حارث): ما مِن خيار آخر.
وقف ثلاثتهم بجوار الحانة منتظرين عودة (جياد)؛ أما (مارغريت) فقد كانت غارقة بالصمت، تزفر الهواء مِن صدرها بقوة، وكأنها تلفظ معه الإهانة التي تعرَّضت لها للتو.

الفصل الرابع: الخديعة.

هل كان الحب يوماً سوى ضرب مِن الأنانية، ووجه مِن الانغماس في كيان الطرف الآخر؟

بعد أنْ عاد الجميع إلى منزل (جياد)، وعند تناول وجبة العشاء، تحدَّث (رائد) موجهاً حديثه إلى (جياد) قائلاً: هل تستطيع إعارتنا مئتي قطعة نقدية؟

نظرا إليه باستغراب، بينما كان الآخر يتابع مضغ طعامه بهدوء ثم أجاب: وكيف سأضمن استردادها؟

أجابه بكل ثقة: ستصلك خلال ثلاثة أشهر، سأرسل إلى أقربائي في (بغداد)؛ ليرسلوها لك، نحن بحاجة للدخول إلى هناك بسرعة.

فرك كفيه ببعضهما مخفياً الابتسامة التي انبلجت على شفتيه وهو يجيب: لا بأس إذن، لن أستغلك وأفعل كما فعل (عزازيل) وأطلب زيادة عليها، سأعطيك إياها غداً.

لم يستطع (رائد) أنْ يمرر كلماته الأخيرة دون تفكير؛ فخفض رأسه مفكراً، لقد شعر بأنَّه تعمَّد قولها له؛ ليلمح له بشيء ما، بينما ذهب الآخر مغادراً وهو يقول: أستأذنكم، أريد أنْ أنام الآن،

ثم التفت إلى (رائد) وقال: أرجو ألا تُحدِث ضجة كالأمس.

ابتسم (رائد) بحرج، وقال: آسف بشأن البارحة!

لوَّح بيده له، ثم غادر.

التفت (حارث) إليه وهو يقول باندفاع: لِمَ لَمْ تقل لي أنَّك تخطط لذلك؟ هل أنت واثقٌ من نجاحك؟ كيف تطلب المزيدَ مِن المال؟

أجابه بهدوء: سنرسل خطاباً مع أيِّ شخص هنا، ربما يدلنا (جياد) على أحدهم، ليس هذا الغريب الآن، الغريب كلماته الأخيرة تلك!

رفع (حارث) حاجبيه مستنكراً، وقال: محال! كفاك حماقة، كيف سترسل خطاباً رسمياً مِن هنا مع أيِّ شخص؟ ماذا لو رأى أحدهم الختم؟ لا تقل لي أنَّك سترسله بلا ختم!

ثم خفض صوته وأتبع: لو كان بلا ختم لن يقبله الوالي، أليس هذا صحيحاً (مارغريت)؟

كانت (مارغريت) شاردة، ولم تنتبه لحديثهما، فهزت رأسها موافقة دون فَهْم لما دار بينهما.

لاحظ ذلك (رائد) فقال: لقد كنتِ شاردةً، يبدو أنَّك متعبة.

ضغطت على جبينها بحرج، وقالت: صحيح، أنا أشعر بالنعاس الآن، سأصعد إلى الغرفة.

ثم وقفت؛ لتغادر، فأوقفها (رائد) بقوله: مهلاً، سنصعد جميعاً.

ثم التفت إلى (حارث) وتابع يقول: بالطبع لست بتلك الحماقة لأضع ختم الوالي، ولكني سأضع شفرة سرية لن يفهما أحد غيره.

وقف (حارث) وعلَّق بامتعاض شديد: ما زلت أرى أنها مخاطرة (رائد)!

وقف هو الآخر وأجابه وهو يبتسم: وما المشكلة؟ الحياة تحتاج إلى المخاطرة أحياناً.

وما إنْ وصل ثلاثتهم إلى السلم وصعدوا بضع خطوات حتى توقف (رائد) وقال: إن لم تكن موافقاً يا (ليو) فإنَّ المئة قطعة ستدخلني أنا، وعُد أنت و(سحاب) وأخبراه بما رأيناه، عليه أنْ يستعد.

استدارا وتابعا طريقهما متجاهلين كلماته الأخيرة، فوجه (حارث) حديثه لـ(مارغريت) وقال: يبدو أنَّ النوم في الرواق قد أعجبه، أليس كذلك؟

أجابت: وبدون غطاء، لن يكفيني غطاء واحد اليوم.

ضحك (رائد) وهو يصعد السلم، ولم يتوقف حتى وقف أمام باب الغرفة، وقال: لا بأس، لقد أحببت حقاً النوم في الرواق.

ثم أتكأ على باب غرفة (مارغريت) وقال: سأنام هنا.

وقف (حارث) أمام باب غرفته وقال قبل أنْ يدخل: أيها الأحمق، كنتُ أمزح معك، لن أوصد باب الغرفة، تعال.

هزَّ رأسه نافياً: قلت لك أريد أنْ أنام هنا.

نظرت إليه (مارغريت) بنصف عين، وقالت: لن أتنازل عن الغطاء اليوم، مِن الأفضل لك أنْ تذهب إلى غرفة (ليو).

أجابها: قلت لك: لن أفعل، لقد أعجبني النوم هنا بالفعل.

ثم مدد ذراعيه في الهواء وهو يتثاءب ويقول: مع أنَّ كتفيّ آلماني قليلاً.

رفعت أحد حاجبيها مستنكرة دون أنْ تعلق ثم أغلقت الباب خلفها، وأدارت المفتاح مرتين، وما هي إلا دقائق، حتى عادت وفتحت الباب وبيديها الغطاء.

ما إنْ رآها (رائد) حتى انفجر ضاحكاً، وعلق: لقد كنت أعرف أنك ستحضرينه لي في النهاية.

قذفته على وجهه وقالت: لأنك مغفل في النهاية.

لفَّ نفسه بالغطاء، وهو يقول: بل؛ لأنك بقلب رقيق في النهاية.

شعرتْ بالخجل يملأ قسمات وجهها؛ فتدلّت عيناها إلى الأسفل نحو سيفه الموضوع إلى جانبه فتعجبت! ثم فوجئت بقوله: إلى متى ستظلين واقفة؟ أنتِ تشعرين بالتعب.

بارتباك سألت: لا تقل لي!!..... لِمَ تفعل ذلك؟

رفع عينيه ناظراً إليها متسائلاً: ماذا قلتِ؟ لم أفهم، عمَّا تسألين بالضبط؟

صمتت ولم تُجبه، وظلت متسمَّرة في مكانها مثبتة عينيها نحوه، ثم انتفضت وهي تشعر بخفقان قلبها فجأة؛ فتراجعت إلى الخلف وأغلقت الباب خلفها في وجهه، تشهق ارتباكها وتزفره، وظلت للحظات واقفة خلف الباب تحاول أنْ تستوعب لماذا ارتبكت كل هذا الارتباك.

رمت بنفسها على السرير، التحفت الغطاء ثم نطقت بهمس: هل فعل ذلك الليلة الماضية أيضاً خوفاً علي؟ لقد أصبح يربكني بتصرفاته! وضعت يدها على صدرها تربت عليه، وعيناها تسرحان في السقف، متجاوزة إياه إلى عمق بعيد، إلى النقطة التي التقته بها، إلى تلك اللحظة في منزل الطبيب في (دومدري).

الأصوات التي اختلطت بأعماقها، والصور التي تُبعث بتتابع على امتداد شرودها، أرغمت عينيها على ذرف دموع غريبة، وجعل شفتيها ترسمان ابتسامة مبددة، تلك الفكرة تجبرها على الغور في لج التناقض بين أنْ تريد وبين أنْ ترفض، بين أنْ تتساوى لديك الرغبات، بين أنْ تحب وترغب، أنْ تكون مثالياً وبين أنْ تحب وتكون أنانياً.

وهل كان الحب يوماً سوى ضربٍ مِن الأنانية، ووجهٍ مِن الانغماس في كيان الطرف الآخر؟

نهضت تُحرِّك رأسها وكأنها تنفض عنها تلك الأفكار، ولكنها ما إنْ عادت لتتمدد حتى عادت لمهاجمتها مجدداً:

يده وهو يمدها إليها في سوق (دومدري) قائلاً: ما زلتُ عند عرضي لك إنْ أردت الهرب فسأساعدك.

وجهه وهو يضع سبابته على فمه ويقول: لا يحق للمخطوف أنْ يبدي أيَّ اعتراض.

يده وهو يمدها إليها في (سر من رأى) وهو يقول: إن كنتِ تؤمنين بأنِّي ما زلت خاطفك فتعالي معي.

تحدَّرت دموعها حارَّة، وعيناها ما تزالان تغوران في تلك الذكريات.

زفرت بقوة ثم همست: توقفي يا (مارغريت) عن هذا، إنَّ هذا لن ينفع، لقد تعودتِ على كبح مشاعرك، فلماذا الآن أنتِ...، أغلقت عينيها بألم وهي تتم: أريد أنْ أنام وحسب.

بعد مضي ساعتين مِن الليل، استيقظ (رائد) فزعاً بعد أنْ شعر بأصوات فوضى، وصوت تكسُّر شيء فجأة جعله ينهض سريعاً ملتقطاً سيفه، أرخى لأذنه السماع؛ فوصله صوت قعقعة قادم من الأسفل أثار تعجبه! اتجه نحو الدرج، ونزل بحذر وهدوء، وما إنْ وقف في منتصف الصالون حتى أبصر أضواء المطبخ مُضاءة.

تقدم بريبة، وما إنْ نظر مِن فتحة الباب حتى أبصر ظهر (مارغريت) تتسلل بهدوء، وما إنْ اقترب حتى دفع الباب بقوة كمن نصب كميناً وأوقع فيه طريدته، ثم قال بسخرية: كشفتك! ما الذي يحضرك إلى المطبخ في منتصف الليل، أيتها النهمة، ألم تشبعي؟

لكنه توقف عن كلامه فجأة بعد أنْ التفتت إليه وبيدها قرطاس حلوى، وفي الأرض انتشرت عدة قراطيس حولها وكأس مكسور ينسكب منه ما بقي مِن الماء.

قطب حاجبيه متسائلاً بريبة: أنتِ، لا تخبريني بأنَّك تناولتِ... يا غبية مِن هذه الحلوى؟!

كان وجهها المحموم ونظراتها الزائغة كفيلة بجوابه، تقدمت نحوه تترنح في مشيتها، مدت له إحداها، وهي تقول: ماذا، هل تريد أنْ تأكل منها؟ إنَّها لذيذة فعلاً!

التقط الحلوى منها وقبط عليها وهو يكز على أسنانه بانزعاج ويقول: يا مجنونة! هذه الحلوى فيها نسبة عالية مِن الكحول، ويبدو بأنَّها قد أثرت فيك، أنتِ فعلاً فقدت عقلك الآن.

قطبت حاجبيها ثم اقتربت منه حتى وقفت أمامه مباشرة ثم رفعت نفسها على أطراف أصابعها ومالت عليه وأخذت تحدق في عينيه للحظة، ثم رمقته بسخرية وهي تقول: مَن، مَن التي فقدت عقلها؟! هل تعتقد أنَّني سأفقد عقلي بهذه النسبة القليلة فقط مِن الكحول؟

ثم ضربت على كتفه بتتابع وهي تقول: أنت السبب، نعم.. أنت السبب.

أمسك بكفها؛ لإيقافها قائلاً: لقد فقدتِ عقلك فعلاً بهذه النسبة القليلة، ما باليد حيلة، لقد أكلتِ وانتهى الأمر، نامي الآن، وغداً....، كز على أسنانه وأتم: سوف أضربك على فعلتك هذه، ألا تعرفين أنَّ تناول الكحول مضر بصحتك، أنت تتصرفين كطفلة جاهلة حقاً.

دفعت كتفه بلا مبالاة، ثم ترنح جسدها إلى الخلف قليلاً، وكادت أنْ تسقط لولا أنَّ الطاولة خلفها قد أوقفتها، تأوَّهت بصوت عالٍ ثم صرخت:
اخرس واعطني بعض الماء! أشعر بالعطش الشديد، ثم تابعت بهذيان:
أنت تهينني دائما، ثم هوت على الأرض واحتضنت ساقيها وغطت وجهها وأتبعت بصوت مكتوم: أنت دوماً تهينني، أنت السبب.
ظل للحظات ينظر إليها حائراً، ثم اقترب منها وقد غمره إحساس بالشفقة، أمسك بمعصمها ورفعه وقال: (سحاب)، سنتفاهم حول ذلك غداً، هيا عودي إلى غرفتك؛ لتنامي، كلما تحدثت وأنتِ بهذا الوضع شعرت بالغضب.
رفعت عينيها ناظرة إليه بازدراء وقالت: سأنام هنا!
ثم أشارت بسبابتها إلى رأسها وهي تقول: دماغي المثقوب يقول لي ذلك، هل يعجبك هذا؟
شهق بنفاد صبر وأجاب: طبعاً لا يعجبني، لقد فقدت عقلك كله حقاً، اصمتي.
ندت منها صرخة مكتومة أفزعته، ثم قالت باندفاع: أنت لا يعجبك شيئاً أصلاً! أنت مغرور في الحقيقة! دائماً ما تعيِّرني بالنمش في وجهي، وبأنَّ عقلي مثقوب وفارغ، وتناديني كيفما أردت بـ(سحاب) مع أنِّي أخبرتك بأنَّه لا يعجبني ولا يروق لي، وفوق هذا تصفني بالطفلة، وتصفني بالقبيحة، ولم تقل يوماً بأني جميلة، حتى لو مجاملة!
نظر إليها بإشفاق، ثم أشاح بوجهه إلى الجهة الأخرى للحظات صامتاً لا يدري ما يفعل وما يقول، بينما كانت هي تلتقط أنفاسها بصعوبة، ثم وقف

أخيراً يسكب لها الماء في كأس، ولكنها ما إنْ رأت ذلك حتى ندت منها شهقة مملوءة بالوجع وأخذت تضرب على صدرها بتتابع وهي تقول: هل كان خطئي أنّي أحببتك؟! هل كان مِن الحمق أنْ يحبك هذا القلب الموجود هنا؟!

توقَّفَ عن سكب الماء والتفت إليها محاولاً استيعاب ما سمعه للتو، فكررت وهي تنظر نحوه بحنق وتقول: ألم تفهم؟! هل أكرر ما قلته؟ هل كان خطئي أنِّي أحببتك حقاً؟ ظللت لخمس سنوات أضرب كل يوم على صدري وأسلي نفسي بأنَّ هذا وهم، لا(رائد)، لا وجود لـ(رائد) بعد اليوم في حياتك، توقفي يا (مارغريت)، توقفي عن ذلك.

تحشرج صوتها وهي تتبع: توقفي وتعقَّلي لن تري (رائدا) مجدداً، لكن ما إنْ استطعت تجاوز مشاعري تلك حتى عدت لتظهر أمامي في (سر من رأى)، عدت لتفتح الجرح مرة أخرى، عدت لتجعلني أعيش على أمل يائس! ثم ستختفي بعدها في أية لحظة، وتتركني كما فعلت سابقاً، لماذا تفعل هذا بي؟! هل يروق لك عذابي إلى هذا الحد؟! إنَّني أتعذب كل يوم؛ بل كل لحظة، أنت الذي فقد عقله لا أنا، أنت صاحب الدماغ المثقوب ولست أنا. ثم أخفت وجهها بين ساقيها صريعة بين غفوة وبكاء؛ أما هو فقد ظل متسمراً في مكانه مثبتاً عينيه نحوها يكاد لا يصدق ما سمعه للتو حائراً فيما يفعله.

وأخيراً، انحنى وناولها كأس الماء؛ فشربته سريعاً، ثم عادت لتغطي رأسها، جلس أمامها وظل للحظات صامتاً دون أنْ ينطق بشيء، ثم مدَّ يده بعد تردد، ومسح على شعرها برقة، لكنها ما إنْ استوعبت ذلك حتى

لفظت يده بانزعاج وقالت: أبعد يدك عني، أنت ما زلت تعاملني كطفلة، أيها القصير الأبله!

غمرته لمحة حزن؛ فخفض رأسه بيأس، ولكنه عاد ليرفعه ويتمتم بصوت مسموع وكأنَّه يحدث نفسه: هل وجودي قاسٍ عليك إلى هذا الحد؟ هل أحدثت كلَّ هذا الجرح لكِ؟ هل أنا...أسبب لك كلّ هذا الألم حقاً؟

شعر بالدموع تملأ عينيه؛ لذا صمت وأغمض عينيه للحظات، ثم وقف ومدَّ يده إليها وقال: هيا قفي؛ لتعودي معي إلى الغرفة.

أشارت بيدها (لا)، وأرخت برأسها على خشبة الطاولة، فعاد ليجلس إلى جانبها، وظل صامتاً دون أنْ يتحدث، ظلت شفتاه تفتحان وتغلقان، لكن دون أنْ ينبري منهما أي حديث؛ أما أعماقه فقد كانت تفيض بالاحتجاجات؛ إذ نشبت فيها ثورة، هو الذي كان يجاهد نفسه لكبح مشاعره ما باله الآن يكاد ينطق بكل ما يختلج صدره! وأخيراً تحركت شفتاه وتحررت الكلمات مِن سجنها وتمتم قائلاً: هذا ليس عدلاً مطلقاً، أنْ تلقي عليّ كلَّ الذنب، حتى أنتِ تتعبينني كثيراً دون أنْ تشعري، أتعلمين حينما قابلت (بيلسان) أدركت بأنني...

صوت أنفاسها الذي قد علا فجأة، جعله يصمت ويلتفت نحوها ببطء ليجدها نائمة، وجم وجه للحظة، ثم لان عن بسمة مريرة وهو يقول: ما الذي كنتَ ستقوله (رائد)؟!

ضرب جبهته، ثم وقف وألقى بنظرة حانية عليها وعلق: مزعجة بالفعل. ثم انحنى وحملها بين ذراعيه، ترنح قليلاً وكاد أنْ يسقط، وما إنْ اعتدل

حتى علق بأعماقه: لقد كبرت حقاً، وازداد وزنها عن المرة الأخيرة التي حملتها فيها بـ(دومدري).

اقترب مِن السلم، وما إنْ هم برفع ساقه، حتى خطر بذهنه صوتها وهي تقول: هل كان خطئي بأنِّي أحببتك حقاً؟، توقفي يا (مارغريت) توقفي!

نظر إليها بعمق وسرح بخصلات شعرها المفروشة على جبينها، كانت غارقة في النوم وتتنفس بعمق، كانت ملامحها الصغيرة تبدو ملائكية، أغلق جفنيه للحظات على الصوت ذاته وهو يردد: توقفي يا (مارغريت)، توقفي.

فتح عينيه فجأة ومِن دون أنْ يدرك وجد نفسه ينجذب نحوها، ويطبع على جبينها قبلة وهو يسر بأعماقه: لا تتوقفي.

رفع رأسه وهم يتم: (مارغريت)، ثم صعد السلم ووضعها على السرير وغطاها، حدق في ملامحها للحظات وحدث نفسه قائلاً: أعلم بأنكِ لست بطفلة، إنني أقولها كغطاء فقط حتى لا أنجرف بمشاعري نحوك، وهذا مؤلم أكثر، استدار واتجه نحو الباب وأغلقه خلفه، ونام متكئاً عليه.

في الصباح فتحت (مارغريت) عينيها المتعبتين متلفتة حولها بكسل، ثم نهضت بتثاقل وهي تضغط على رأسها بكلتا يديها.

-ما الذي حدث البارحة؟ أشعر بدوار فظيع.

زادت مِن الضغط على رأسها، ثم قامت عن السرير وعصبت رأسها بوشاح.

نظرت إلى نفسها في المرآة؛ وإذ بصور تلك الليلة تنهال عليها متساقطة كالمطر.

خرجت مسرعة مِن الغرفة تهبط درجات السلم، وما إنْ وصلت إلى الصالون حتى وصلها صوت (رائد) معلقاً: استيقظتِ إذن؟ إفطارك على طاولة المطبخ، مِن الأفضل أنْ تتناوليه حالاً، سيصل (حارث) و (جياد) في أية لحظة.

استدارت خلفها ببطء حيث يجلس هو، وما إنْ التقت عيناها بعينيه حتى شَهِقَت بقوة وغطَّت وجهها، وأسرعت عائدةً أدراجَها، ثم أغلقت الباب خلفها بقوة و أوصدته.

غطت على فمها وانهالت الأفكار واختلطت في رأسها.

ما هذه الحماقة التي تفعلينها يا (مارغريت)؟ كان مِن الأسهل التظاهر بالنسيان وكأنَّ شيئاً لم يكن.

ولكن، لا يمكنني النظر في وجهه، لا يمكنني!

ما الذي قلته البارحة؟ ما الذي قلته البارحة له؟

وبينما هي تعارك نفسها كان (رائد) قد صعد إلى الأعلى، طَرَق البابَ بخفة وناداها لأول مرة بعد مدة طويلة: (مارغريت)، افتحي الباب، لماذا فررتِ هكذا؟ أريد أنْ أتحدث معك.

أدركت ذلك وطوقتها مشاعر الندم، عضت شفتها السفلى، ثم ابتلعت ريقها وأجابته بتوتر: كلا، أنا أشعر بصداع، لا يمكنني أنْ أتحدث الآن، أريد أنْ أكمل نومي.

بتعجب قال: مـــــــــــاذا؟ قلت لك سنذهب الآن! ألم تشبعي مِن النوم؟ لقد بقيت هنا بسببك.

لم تجبه بشيء، فعاود الطرْقَ مجدداً، وقال: أرجوك! افتحي الباب، أريد أنْ أتحدث معك.

أسندت كفيها على الباب وكأنها تحكم إغلاقه، وخفضت رأسها، ثم أجابته بصوت مرتبك: أرجوك! لا تقل أيَّ شيء، لقد أخطأت، أنا أعرف ذلك جيداً، كنتُ أعرف أنَّ الحلوى بها نسبة مِن الكحول، ولكني كنتُ أشعر بالأرق وجائعة أيضاً، ولا أعلم كيف سمحت لي نفسي فعل ذلك.

زفرت بعمق ثم أتمت: وأعدك بأنَّي لن أفعل ذلك مجدداً، أعدك!

نطق باسمها قائلاً: (مارغريت...)، شعرت بأنَّ ذلك يؤلمها، هي التي كانت تعترض كلما ناداها بـ(سحاب)، وتتوق لأنْ يناديها باسمها، تشعر الآن بأنه يؤلمها أكثر؛ لذا قاطعته بصوت يرتجف: أخبرتك بأنِّي لا أريد أنْ أسمع شيئاً، توقف أرجوك!

ثم أرخت برأسها على الباب، وأتبعت: انسَ كلَّ ما قلته البارحة، فقد كنت غير مدركة لما كنت أقوله.

صمت للحظات ثم اقترب من الباب أكثر وقال: وإن قلت لكِ....بأني.. لا أريد أنْ أنسى!

رفعت رأسها قليلاً، ولوهلة شعرت بكفيه وهو يثبتهما على الباب؛ حيث موضع كفيها بالضبط، زفر الهواء وقال: (مارغريت...)، قاطعته مجدداً وهي تشعر بحرارة تنبثق مِن خديها وبخدر يسري في جسدها: قلت لكَ أرجوك لا تتحدث بشيء! انسَ ما قلته وحسب، لا تصعِّب الموضوعَ عليَّ أكثر من ذلك.. أنا... لن أستطيع أنْ أنظر إلى وجهك بعد الآن.

صمتَ قليلاً، ثم أرخى برأسه على الباب وقال: ألم أخبركِ يوماً بأنَّك مثل السحاب؟ ألم أفعل ذلك؟

رفعت عينيها باندهاش ثم عضَّت شفتها السفلى بألم، وقالت: نعم، فأنا أُمطرك بالإزعاج.

ابتسم خافضاً رأسه إلى أسفل للحظة، ثم رفع رأسه وقال: (سحاب)، هل مِن الضروري أنْ يتخذ السحاب شكلاً معيناً ليكون جميلاً؟ ألسنا نرى كلَّ السحاب جميلاً مهما كان الشكل الذي يتخذه؟ نحن نرى كلَّ السحاب جميلاً كيفما تشكَّل، وحتى لو لم يكن محملاً بالغيث فهو سيظللك، فهل هناك شيء أجمل مِن هذا؟ بالنسبة لي أرى أنَّ هذا أجمل شيء في الوجود.

أطبق شفتيه للحظة شاعراً بالخجل، أخذ نفساً عميقاً ثم أتبع:

مهما كان شكلك (مارغريت)، مهما نظرتُ إليك في حال استيقاظك وعينيك منتفختين، أو في حال نعاسك وعينيك نصف مفتوحتين، مهما نظرتُ إليك وأنت تضحكين بعينين تكادان تختفيان، مهما كان النمش في وجهك كثيراً أو قليلاً، لا يمكنني أنْ أرى السحاب إلا جميلاً، أليس كذلك؟

غطَّت فمها ببطء، محدقة في أسفل قدميها وقد اعتراها الخجل فهي لم تكن لتتخيل بأنَّ هذه الكلمات مِن الممكن أنْ ينطق بها (رائد) يوماً، ومع ذلك ردت عليه بقولها: أنت لست مضطراً لمجاملتي هكذا، قلتُ لك انسَ ما قلتُه وحسب.

ابتسم ببشاشة وقال: أنا لا أجامل أحداً، وأنت تعرفين هذا جيداً عني.

اهتزت عيناها في خضوع، وارتجفت شفتاها تدافع البكاء، ثم قالت بعد جهد: أعلم ذلك، أعرف حقا، ولكني أشعر بالخجل مِن نفسي؛ لأنني قلت ذلك بكل حماقة، وأجبرتك على قول ذلك الآن، عدّ أنَّ الموضوع لم يكن، أنت تصعِّب الأمر عليَّ.

ضغط على الباب بقوة أكبر، وأجاب: لن أفعل ذلك، لقد قلتِ ما في قلبكِ، ثم أرخى بذراعيه وتابع قائلاً: لذا سأصرح لك بشيء، لنكن متعادلين، وسأقول لكِ ما في قلبي.

ومع أنَّ قلبها قد وجل، إلا أنَّها مالت برأسها مصغية باهتمام وإذ به يتم: هل تعرفين كم تمنيت بأعماقي لو أنَّ ساعة الزمن تتعطل، وأظل عالقاً في الزمن؟

أرخت بذراعيها هي الأخرى للحظات دون أنْ تجيب، ولكنها لم تحتمل؛ فأمسكت بمقبض الباب وفتحته لتلتقي بعينيه أخيراً وتسأل: ولِـــــمَ تتمنى ذلك؟

بزغ فرح في عينيه؛ لرؤيتها، ولكن ما إنْ أبعدت خصلات شعرها وهي تتطلع إليه باهتمام وبدا له جزء مِن جبينها حتى شعر بالدم يتجمع في خديه؛ فأشاح بعينيه عنها، وأجاب بارتباك واضح: لأنكِ غبية! ثم استدار مغادراً وهو يقول: هيا، لقد تأخرنا كثيراً، اغسلي وجهك الباكي هذا ولنذهب.

حسرت عينيها بكفيها وهي تضحك وتعلق قائلة: هكذا أفضل.

أشار بإصبعه نحو الأسفل وهو يقول: (مارغريت)، سأنتظرك بالأسفل.

أدارت برأسها جانباً، وقالت بخجل لم تستطع أنْ تخفيه: مهلاً.

التفت إليها متسائلاً، فأتمت وهي تشيح بعينيها في خجل: نادني: (سحاب).

شعت مِن بين شفتيه بسمة خجلة ثم أومأ برأسه موافقاً.

حينها كان صوت (حارث) يصل إلى الأعلى منادياً: (رائد)،هل أنت بالأعلى؟

اتَّجَه ناحية السلم وأجابه: نعم، عدتما أخيراً؟

أجابه: لقد أعطاني (جياد) المال، وقد ذهب للعمل الآن، لنذهب؛ لملاقاة ذلك الجشع، ألم تستيقظ (مارغريت) بعد؟

أجابه وهو ينزل سريعاً على الدرج: بلى، إنَّها تتأهب الآن.

لم تتأخر (مارغريت) كثيراً، فما هي إلا دقائق حتى نزلت وهي متأهبة وقد غدت ملامحها أكثر إشراقاً من البارحة، وبعد أنْ تناولت إفطارها، سار ثلاثتهم معاً إلى تلك الحانة، وما إنْ وصلوا ودخلوا حتى وجدوا ذلك الرجل يجلس في مكانه نفسه وبيده كأس خمر.

اقتربوا منه، وما إنْ رآهم حتى علَّق بتهكم: الثلاثة مِن البارحة، هل جئتم؛ لتقدموا بقية المال أم المرأة؟

ضرب (رائد) بكيس النقود على الطاولة بقوة؛ فاهتزت محدثة صريراً، ثم حدق في عينيه بحنق وهو يقول: بقية النقود، هكذا يكون المبلغ قد اكتمل؛ لتخرج لنا ثلاث بطاقات.

رفع حاجبيه وهو ينظر باستنكار نحو (رائد)، وقال: هذا عجيب حقاً ! متى استطعت جمعه؟

تجاهل (رائد) سؤاله تماماً، وسأل: كم سيستغرق عملك كي ندخل؟

شرع كلتا ذراعيه وهو يشير إليهم بالجلوس قائلاً: اجلسوا؛ لنتفق أولاً.

جلس ثلاثتهم بجانب بعض، فنادى (عزازيل) على النادلة؛ لتحضر المزيد مِن الشراب والأكواب.

قاطعه (رائد) وهو يقول: لقد أخبرتك ألا وقت لدينا لذلك، مِن فضلك أجبني عن سؤالي.

تلمس شاربه الغليظ وهو يجيب: قلتم لي إنكم تريدون دخول (أورشليم)، والمطلوب مني إخراج بطاقات ممغنطة مزورة، الأمر عادة يتطلب أسبوعاً فقط.

وضعت حينها النادلة الأكواب، ووزعتها عليهم، ثم سكبت بها الخمر.

اتسعت حدقتا (مارغريت) وهي تسترق نظرة نحو (رائد) وتتذكر ما حدث لها البارحة جرّاء الكحول، فأحمّر خداها سريعاً، وانخرطت في نوبة مِن السعال المفاجئ.

التفت إليها (رائد) وبقلق سأل: ماذا أصابك، أنت بخير؟

أبعدت الكوب مِن أمامها بعينين تفران خجلاً، وقالت: لا شيء مطلقاً.

-ماذا، ألن تشربوا؟

سأل (عزازيل)؛ فردَّ (رائد) وهو يبعد كأسه معلقاً: آسف! فأنا لا أشرب هذا النوع.

ثم أبعد (حارث) كأسه وردَّد العبارة ذاتها، وفي شفتيهما تختبئ بسمة ساخرة.

نظر إليه (رائد) وقال: أسبوع كثير! أريدها في أقل من ذلك.

قرَّب الكأس من فمه، ثم ارتشف منه قليلاً، وضرب به على الطاولة؛ فتطاير بعض ما فيه وانسكب، ثم ضحك بصوت منخفض، ثم اشتد ضحكه، تلفت ثلاثتهم ينظرون ناحيته بريبة!

صمت قليلاً ثم قال وهو يشير إلى (رائد): أنت بالذات، دمك يثير أعصابي، يثير اشمئزازي كثيراً؛ لذا سأجعلك تدخلها اليوم إن شئت أيها (الممزير)*.

لم يفهم أحدهم معنى كلمته وعلت وجوههم نظرات شك وريبة، رد (رائد): عفواً، نحن نريد أن ندخلها ثلاثتنا معاً.

وقف (عزازيل) وهو يضرب على الطاولة، وقد انتابته نوبة ضحك هستيرية، ثم شرع كلتا ذراعيه وقال: نعم، ستدخلونها جميعكم، والآن، لكن يؤسفني أنْ أقول...، ثم شرع في ضحكاته المجنونة مجدداً؛ فوقف ثلاثتهم سريعاً منتفضين بغضب ووجل، فأتم هو: كعبيد.

-ما الذي تعنيه؟!

سأل (حارث) باستنكار، ثم التفت نحو (رائد) وقال: (رائد)، إنَّ هذا الرجل غاية في الثمالة، خذ النقود، ولنخرج مِن هنا سريعاً.

مدَّ (رائد) يده نحو الكيس، لكن (عزازيل) التقطه قبلاً وهو يقول ساخراً: مَن الثمل هنا؟! يمكنكم النظر خلفكم؛ لتعرفوا.

---

١ : الممزير: كلمة عبرية يعيرون بها المسلمين العرب بالذات، ويعنون بها-لعنهم الله-: أبناء غير الرشدة .

استدار ثلاثتهم ببطء إلى الخلف، واتسعت أعينهم في دهشة ووجل؛ إذ تبدل وضع الحانة في لحظة، فقد تبدل حال الرجال المخمورين والمرهقين إلى رجال أشداء وبحوزة كل واحد منهم أسطوانة حديدية!
التفَّ ثلاثتهم حول بعضهم، تحاصرهم ضحكات (عزازيل) المجنونة.
تمتمت (مارغريت) بصوت لا يخفي خيبته: لقد خدعنا رجل المزمار، لقد كنتُ محقة!
صرَّ (حارث) على أسنانه ونطق بغضب وخيبة: لو أنَّني أخذت السيف معي فقط!
أما (رائد) فقد كانت عيناه مثبتين على إحدى الأسطوانات الحديدية التي بيد أحدهم، والتي لم تكن حتماً سوى سلاح ناري، ابتلع ريقه وعلق قائلاً: (حارث)، هذا شيء لا يمكن لسيفك صده، هذا الشيء قادر على قتلك في ثانية!
صرخ (عزازيل) بصوت مرتفع: إلى متى ستظلون ملتصقين ببعضكم كالفئران هكذا؟ ارفعوا أيديكم سريعاً.
أغمض (رائد) عينيه وهو يشعر بحرارة أنفاسه لهيباً يحرقه، لقد لام نفسه سريعاً، ويده التي كان يمدها ناحية (مارغريت) و(حارث) لن تكفي لصد طلقات ذاك السلاح أمامه، وحتماً لن تكون كافية؛ لتكفر عن ذنبه في توريطهما معه.
اقترب ثلاثة منهم مشهرين البنادق نحو صدورهم، وما إنْ تم تقييدهم، حتى تقدم (عزازيل) قاصداً (مارغريت) ينظر إليها، وما إنْ أصبح ماثلاً

أمامها حتى شعرت بخدر يشل جسدها، بيد أنَّ أنفاسها كانت تخرج كلهيب تنين غاضب!

أمسك بذقنها، ورفع رأسها إليه، وقال بفم تخرج منه رائحة الخمر الكريهة: أنتِ الآن، أين نظرات الازدراء التي كنتِ تنظرين إلي بها البارحة؟

أدارت رأسها بتقزز واضح رغم إحساس فكاها الواقعان تحت سطوة كفه الغليظ بالوجع.

حينها لم يستطع (رائد) الصمت؛ فصرخ بصوت عالٍ: أبعد يديك عنها! لا تقترب منها! إنْ كنت رجلاً تفاهم مع الرجال أمثالك!

التفت إليه وقد علت شفتيه بسمة ساخرة، ثم زاد من قوة ضغطه على فكي (مارغريت) حتى انقبضت ملامحها معلنة عن الوجع.

مال برأسه وعلق محاولاً استفزاز (رائد): شفتاها جميلتان!

فغر رائد فمه، ولكن ثمة صرخة عالية متوعدة خرجت مِن فم (حارث) سبقته: توقف أيها اللعين! ليس هو مَن سيقتلك إنْ مسستها بسوء؛ بل أنا!

لم يكد يستوعب التهديد الذي ألقي عليه للتو حتى التصق في خده بصاق (رائد)، تلمس خده في ذهول، ثم التفت ناحيته منتفشاً بغضب ليجده وقد أطبق شفتيه عن بسمة مستفزة.

اندفع نحوه مهتاجاً وجذبه مِن ياقة قميصه وهو يصرخ: كيف تجرؤ على البصاق علي أيها الممزير!

ثم هوى بكفه وصفعه على وجهه بقوة، ومع أنَّ الصفعة جعلت رأسه يدور مِن قوته، إلا أنَّه عاد لينظر إليه تعلوه النظرات الساخرة ذاتها.

أشار إلى أحد رجاله؛ كي يناوله العصا التي في يده، وما إنْ أصبحت بيده حتى أنهال بها على (رائد) يضربه في كل اتجاه، بينما يحاول (حارث) عبثاً تحرير نفسه، و(مارغريت) تصرخ راجية بأنْ يتوقف؛ إذ جن جنونها حينما رأت الدم ينزف مِن رأسه.

وفي ظل هذه اللحظات العصبية انبرى صوت في الحانة يأمر (عزازيل) بالتوقف؛ فدارت أعناق الجميع بما فيهم (رائد). كان (جياد) يقف أمام الباب، وما إنْ وقعت عيناه على (رائد) حتى شقَّ طريقه؛ ليصل إليه.

(حارث) الذي أحس بالخيبة؛ لأنه وثق به تمتم بغيظ: أتجرؤ على الظهور بعد الذي فعلته؟! أهكذا تفعل بنا بعد أنْ وثقنا بك؟!

بينما اكتفت (مارغريت) بنظرات حانقة نحوه.

تجاهل قول (حارث) تماماً ونظرات(مارغريت)، ولم يعرهما أيَّ انتباه.

وحده (رائد) كان يشعر بأنَّ كلَّ ما يحدث الآن أمرٌ قد رُتِّب له من قبل، وإنَّ الذي يقف أمامه رغم كل شيء ليس عدواً.

ما إنْ أصبح (جياد) ماثلاً أمامه حتى انحنى إليه وجلس أمامه مباشرة، بالكاد رفع (رائد) رأسه بإعياء ينظر إليه، كان الدم يسيل على جبهته ويمر بإحدى عينيه مروراً بشفتيه؛ لذا أغمض عينيه بانزعاج، فمدَّ (جياد) يده ومسح الدماء بكم قميصه وسط دهشة واستغراب (مارغريت) و(حارث)، تمكن (رائد) مِن فتح عينيه وتبادلا النظرات للحظات في صمت.

ثم ندت من شفتي (رائد) بسمة أثارت فضول كل الناظرين إليه، ولم ينبته أيٌّ من الواقفين بأنَّه أشار بعينيه خلفه، إلا (جياد) المقصود بذلك.

ساعده على النهوض وأسنده بذراعه التي لفها حول خصره، وقال وهو ينظر لـ(عزازيل) معاتباً: أيها الأحمق، قد تفسد البضاعة، كيف له أنْ يعمل الآن؟!

ثم مد يده خفية إلى جيب بنطال (رائد) باللحظة ذاتها وانتزع منه شيئاً.

ثم أدخل يده في جيبه؛ ليدسه فيه، وأخرج كيساً مِن النقود قذفه في وجه (عزازيل) وهو يقول: لا تؤذِ هذه المرأة أبداً، ولا تفكر حتى بالاقتراب منها، إياك أنْ تفعل، وإلا فلن أعطيك مالاً بعد الآن.

رفعت (مارغريت) رأسها وقد علتها الحيرة والدهشة بينما التقط (عزازيل) النقود، وأخذ يتفحصها بجشع، وهو يعلق قائلاً: لا بأس، إنَّها لا تبدو كامرأة على أية حال.

ثم واصل ضحكاته الهستيرية بينما كان (حارث) و(مارغريت) يسددان له نظرات حانقة؛

أما (جياد) فقد استغل انشغاله في الضحك ومال على أذن (رائد) وهمس: أمامك ثلاثة أشهر فقط، لا تنسَ ما رأيته في اللفافة، سأكرر...، على طول الخط الممتد مِن عند كنيسة القيامة ستفتح الأبواب بعد أنْ يهيج المد.

دُهش رائد وغمرته الحيرة، لقد كان هذا مكتوباً باللفافة، هل يشير له الآن إلى خطة واتفاق معه ؟!

أما (جياد) فقد علت وجهه ابتسامة رضا، ثم غادر المكان تتبعه النظرات، وما إنْ خرج حتى تلمَّس جيبه مطمئناً بأنَّ الشيء الذي كان سيشكل خطراً على حياة (رائد) ومَن معه قد أصبح بحوزته الآن؛ حيث لم يكن ذلك الشيء سوى ختم الرسائل لوالي بغداد.

الفصل الخامس: إلى أورشليم.

تأتي السعادة بوجوهٍ عدة، ويأتي الدفء على هيئةٍ واحدة تشبه (الغيث).

كان ثلاثتهم يدركون أنَّ أجسادهم ليست ساكنة كما يعتقدون، وإنَّهم يتحركون فوق شيء يجهلون ماهيته، لم يكن الحديث بينهم ممكناً، كما أنَّ أعينهم كانت معصوبة، وحده (رائد) كان يدرك أنَّ الشيء الذي ينقله الآن هو نوعٌ مِن السيارات ولا شك.

توقف ذلك الشيء بعد رحلة طويلة مِن الصمت، حينها أمرهم أحد الجنود بالنزول.

كان ثلاثتهم مقيدي الأيدي بحبال مربوطة بعضها ببعض، يسيرون في خطٍّ واحد، وما أنْ يفتح أحدهم فمه بالحديث حتى يتلقى ضربة على ظهره بطرف البندقية.

شعروا بخطوات شخص يقترب منهم، أخذ يتفحصهم الواحد تلو الآخر، ثم وقف وقال للجندي بلغة لم يفهمها (حارث) و(رائد) عدا (مارغريت) التي فهمت ما جرى بينهم مِن حديث؛ إذ أخبره قائلا: إنَّ هذه النفايات لا تبدو ذات فائدة؛ لذا دعهم في مصانع الغذاء يطحنون حتى الموت، ثم عاد ذلك الجندي يدفعهم للمشي، وهو ينهال عليهم بالسباب والشتم، وبعد طول رحلة في الظلام الحالك، صعدوا خلالها درجات كثيرة، وهبطوا أخرى، وعبروا أروقةً كثيرة، وطرقاً كثيرة، حُلَّت قيودهم، ثم أزيحت العصبات عن أعينهم؛ فوجدوا أنفسهم وسط حشد هائل مِن الناس داخل سجن صغير، أخذوا يتفحصون بدهشة هذا السجن أو القبر المرعب، كان عالي الأسوار، ساحته ترابية، ويحوي مبنى صغيرا يحتوي غرفاً ضيقة، لا تكفي لكل هذا العدد الكبير مِن السجناء.

كانت يدا (مارغريت) قد بدأتا ترتجفان دون وعي منها، فقبضت على معصمها؛ لتخفف من حدة توترها وقالت: عازف المزمار ذاك قد خدعنا، فهمت الآن لماذا قال ذاك الجندي دعهم حتى يموتوا، هذا المكان يبدو كقبر.

أيدها (حارث) بقوله: أنا أشعر بالأسف حيالكما! فقد كنتُ أكثر مَن وثق به.

أما (رائد) فقد ألقى بنظرة متفحصة على ما حوله وهو يحكُّ شعره، وما أنْ لامس مكان الضربة التي تلقاها على رأسه حتى انكمشت ملامحه وأخرج صوتاً ينم عن الوجع جعلهما يلتفتان نحوه مستطلعين، اقترب منه (حارث) وهو يقول: هل التأم جرحك؟

ابتسم بحرج وهو يجيبه: لا بأس! لقد تخثر الدم على ما يبدو.

أما (مارغريت) فقد اقتربت وشدته مِن كتفه نحوها وهي تقول: دعني أرى.

ابتعد عنها خطوة معترضاً وهو يقول: إنَّه بسيط، قلت: إنَّني بخير.

رمقته بنفاد صبرٍ، ثم شدته نحوها أكثر حتى مال وهي تقول: أنسيتَ بأنِّي طبيبة؟ اجلس، لا يمكنني أنْ أرى الجرح هكذا.

اعتدل وهو يبتعد ويقول: هذا لن يجدي الآن، أنت لا تملكين شيئاً لتعالجيني به.

اعترضت قائلة: وإن يكن، دعني أرى، أخشى أنْ يتلوث الجرح.

دون اكتراث مدَّ ذراعيه في الهواء وأخذ نفساً عميقاً، ثم التفت نحوهما مبتسماً وهو يقول: في الواقع صاحب المزمار ليس سيئاً إلى هذا الحد، وأعتقد بأنَّه حليفاً لنا.

ازدادت نظرات الاندهاش على وجهيهما فأتبع موضحاً: هل نسيتما أمر الختم؟ ألم يتم تفتيشنا؟

تبادلا النظرات مندهشين فأتمَّ: لو لم يأخذه مني ويدسه في جيبه لما عبرنا هذه البوابات، وكنا أمواتاً الآن، ليس هذا وحسب؛ بل حتى (بغداد) ستكون في خطر، كنتُ أشك بصاحب المزمار وبهويته، وكنتُ أظنه يعرف بأنِّي مسافرٌ عبر الزمن، ولكن تبين لي الآن بأنَّه كان يعلم بأنَّنا مبعوثون مِن والي (بغداد)، وأظنه يعمل معنا.

تلمست (مارغريت) جبينها باضطراب وهي تعلق: إذن، لم يكن يكذب حينما قال بأنَّه ليس عدواً لنا!

أما حارث فندت منه تنهيدة وهو يعلق: لو كان الختم بحوزتك لكنا أعدمنا حالاً، كيف غابت عن بالي؟

أثناء حديثهم هذا، كان صبيٌّ في الثامنة مِن عمره يراقبهم مِن بعيد، ثم دنا منهم، تنبهوا له؛ فصمتوا جميعاً؛ أما هو فقد غمره الخجل والحرج، بدا هذا واضحاً في نظرات عينيه الزائغتين في كلِّ الاتجاهات، وكفه التي رفعها بجوار فمه وهو يسأل: أنتم جدد هنا أليس كذلك؟ أردت فقط أنْ أتعرف عليكم، مِن أين جئتم؟

لفت انتباههم جميعاً الشريط الأبيض المربوط بكفه، كان ذا بشرة بيضاء، وشفتين محمرتين، وعينين بنيتين غير واسعتين ولا ضيقتين، لكنَّ الناظر

إليهما لا يستطيع أنْ يتجاوز جمالهما دون أنْ يحدق بهما، وكلما أمعن بهما اصطدم بجرح في أغوارهما؛ أما شعره فبندقي اللون كشعر (حارث)، كانت ملامحه رغم ما فيها مِن بؤس يشبه إلى حدٍّ ما طفل الجرة المكسورة في لوحة (كاتوزيان) إلا أنَّها كانت ملائكية.

حدَّق ثلاثتهم فيه لبضع للحظات قبل أنْ يجيبه حارث: مِن داريا.

ابتسم (رائد) له وهو ينحني نحوه، اتكأ على ركبته ومسح على رأسه دون أنْ يدري لماذا زارته ملامح بارع هذه اللحظة، وكأنَّ هذا الصبي يذكِّره به.

سأله: ما اسمك يا فتى؟

-اسمي: غيث، وأنا مِن دمشق.

-أنا اسمي: رائد، وهذا صديقي (حارث)، بإمكانك مناداته بـ(ليو)، أتعلم ما يعنيه؟ إنَّه الأسد مع أنَّه هَرِم.

كز (حارث) على أسنانه وهو يعلق: مَن الذي تنعته بالهَرِم؟

وبينما كانت (مارغريت) تقترب وتهمُّ بالانحناء نحوه أشار إليها (غيث) وهو يسأل: ومَن هذه الجميلة؟

برزت أسنانها وهي تبتسم بخجل، اتكأت على إحدى ركبتيها، وربَّتت على رأسه وهي تقول: عيناك جميلتان يا غيث، حتى اسمك جميل جداً!

فوجئت به وهو يلتقط خصلةً مِن شعرها ويعلق قائلاً: حتى لون شعرك جميل! ما اسمك؟

أطلق (رائد) صوتاً ينمُّ عن السخرية، ثم علق وأسنانه تصطك ببعضها: تباً! هذا الصبي سيجعل أنفها كبيراً.

رمقته بنظرة ازدراء دون أنْ تعلق، ثم ابتسمت لـ(غيث) وهي تجيبه: اسمي ما....

توقفت للحظة بتردد قبل أنْ تنطق (سحاب)، كانت تشعر بأنَّ (رائدا) ينظر نحوها، وما أنْ نطقته حتى رفعت عينيها تنظر إليه؛ فأشاح بوجهه مخفياً ابتسامته.

أما (غيث) فقد علق ببهجة طفولية: وااااه! حتى اسمك جميل! سحاب، كلُّ السحاب جميل، إنَّه اسمٌ جميلٌ حقاً! مَن سمَّاك به؟

غمرت (رائدا) لمحةُ الانتصار؛ فرمق (مارغريت) بنظرةٍ تقول: ألم أقل ذلك؟، ولكنها تحاشت النظر إليه؛ وإذ به يفاجئها بقوله: أنا أسميتها بذلك؛ لأنَّها تمطرنا بالإزعاج دوماً.

شخصت عيناها وصرَّت على أسنانها وهي تقول: أنت؟ ألم تقل...

رفع حاجبيه بتحامق وهو يسأل: ماذا قلت؟ هل قلتُ شيئاً آخر؟

قاطعهما (غيث) بقوله: ولكني لا أرها هكذا.

تناول كفها وسأل: هل أستطيع أنْ أتناول الطعام بجانبك دوماً؟

مع أنَّها فوجئت بالطلب للحظة، لكنها سرعان ما أومأت بالموافقة، فاسترسل هو بمطالِبِه: وهل أستطيع أنْ ألعب معك بعد العمل، وأنْ أنام إلى جانبك؟

ازدادت دهشتها وهي تهز رأسها بالموافقة، بينما أتبع هو بالحماس ذاته: وهل يمكنكِ أنْ تحكي لي قصة قبل أنْ أنام أيضاً؟

(رائد) الذي لم يكن أقل منها اندهاشاً، وضع يده على كتفه؛ ليلفت انتباهه إليه وسأل: (غيث)، هل أنت وحيد هنا؟ أين والد...

قاطعته (مارغريت) متعمدة وقالت: لا بأس (غيث)، سأفعل كل ما قلته.
نفضهم صوت جرس قوي انبرى مِن مكبرات الصوت المعلقة في كلِّ مكان، رفع (غيث) رأسه وابتعد قليلاً وهو يقول بارتباك: هذا وقت العمل، سأعود؛ لأقابلك بعدها! ثم عاد ليقترب منها ويفاجئها بقبلة طبعها على خدها، ثم اعتدل ووجَّه حديثه لـ(رائد) وهو يقول: سأحضر لك بعض الضمادات بعد العمل، يبدو أنَّك مصاب، وقد نزفت الكثير مِن الدماء، ثم غادر سريعاً تتبعه (مارغريت) بنظرات لا تقل دهشة عن نظرات (رائد).

وقف معتدلاً ثم مال بعينيه نحوها؛ وإذ بها تتلمس خدها وتبتسم بسرور، علق محاولاً استفزازها: يكاد فمك ينشق نصفين، كل هذه الابتسامة فقط؛ لأنَّه وصفك بالجميلة!

أدار (حارث) وجهه إلى الجهة الأخرى يخفي ضحكته، فقد شعر بأنَّ تلك الكلمات ليست استفزازاً بقدر ما كانت تنم عن غيرة خرقاء، بينما أدارت هي وجهها عنه بلا اكتراث وقالت: لن أغضب، ولن أرد عليك؛ لأنَّك تريد ذلك، لن أفسد هذا الشعور الدافئ الذي منحني إياه للتو، أشعر أنَّه قد أزال كلَّ الخوف الذي تلبَّسني طوال الطريق. ولكنها مع ذلك رمقته بحدة وهي تتبع: كيف لك أنْ تسأل عن والديه وقد أخبرك بأنَّه مِن دمشق؟! لا شك بأنَّ والديه قد قُتلا.

بُهت وجهه للحظة مستنكراً غياب هذه النقطة عن باله، سمع صوت رجل يقول: ما قالته هذه المرأة صحيح.

التفت ثلاثتهم نحوه فأتبع قائلاً: أنا أقدم سجين هنا، واسمي: (بدر)، في الواقع ذلك الفتى لم يخسر والديه فحسب؛ بل خسر جميع إخوته أيضاً، هو وحيدٌ الآن.

غشي وجه (مارغريت) الحزن؛ فالتفتت لا شعورياً تنظر إلى الطريق الذي سلكه.

أشار الرجل إلى الطريق ذاته الذي ينتهي ببوابة حديدة وقال: يبدو أنَّكم وصلتم إلى هنا للتو، المهم، إذا لم تتحركوا إلى العمل بسرعة، فلن تبقوا أحياء حتماً.

سأل (حارث) بحيرة: وماذا علينا أنْ نفعل؟!

أجابه وهو يستدير مغادراً: عليك أنْ تتبع الناس مِن حولك فقط، ثم توقف فجأة والتفت إليهم وقد علت شفتيه بسمة، وقال: لقد كذبتم بشأن مجيئكم مِن (داريا)، أليس هذا صحيحاً؟

بدا ثلاثتهم متفاجئين، ثم ابتسم (رائد) باتساع وهو يجيب: بالضبط، أنت محق، نحن قادمون مِن (بغداد)، وقد أُلقي القبض علينا وأُخذنا إلى هنا.

لوَّح بيده وهو يتجه إلى البوابة ويقول: لا بـــأس.

انطلق ثلاثتهم يتبعونه عابرين البوابة الحديدية، ليجدوا أنفسهم أمام ممرٍّ طويل جداً مغطى مِن كل الجهات، وعليهم أنْ يعبروه كل يوم.

وصلوا أخيراً إلى المصنع الذي سيعملون به، وبينما كان جميع السجناء منهمكين في العمل وقف ثلاثتهم في ارتباكٍ وحيرة.

تنبَّه لذلك (بدر)؛ فأشار إليهم بالاقتراب، وما إنْ اقتربوا منه حتى قال: ماذا تفعلون؟ لو رآكم أحد الجنود واقفين هكذا، فلن يتردد في إفراغ

ذخيرته فيكم، ثم أشار لـ(مارغريت) وقال: اذهبي إلى هناك عند أولئك النسوة واعملي معهن.
نظرت (مارغريت) إلى حيث أشار، ثم اتجهت نحوهن واتخذت لها مكاناً بينهن.
اقترب (رائد) و(حارث) منه وما تزال علامات الحيرة بادية على وجهيهما، تنبَّه لذلك؛ فقال: انظرا إليَّ فقط، وافعلا مثلما أفعل، على الأقل عملنا هنا أرحم مِن بعض الأماكن، هنالك أناس لا يرون الشمس، هم يحضرون بعض الناس الذين أجهدوا مِن العمل هناك؛ ليعملوا هنا.
تناول (رائد) علبة معدنية وعلق قائلاً: لِمَ أعتقد أنَّه مصنع أغذية.
أجابه (بدر): نحن نصنع لهم طعامهم ولا نأكل سوى الخبز اليابس، على العموم، هذا أخفُّ عملٍ قمت به إلى الآن.
علَّق (حارث) باستياء بذكر ذلك: نحن لم نأكل شيئاً حتى الآن!
باهتمام سأل (رائد): لقد أخبرتني: إنَّ الذين أُرهقوا مِن العمل هناك يحضرونهم إلى هنا، ما نوع تلك المصانع التي أشرت إليها بهناك؟
أجابه سريعاً: مصانع سلاح بالتأكيد.
حك (رائد) ذقنه مراجعاً فكرة تدور في مخيلته، ثم سأل: وماذا عليَّ أنْ أفعل لأُنْقَل مِن هنا إلى تلك المصانع؟
صمت للحظة قبل أنْ يلتفت إليه بحاجبين مرفوعين ويقول: أحمق أنت؟
أجابه (رائد) دون اكتراث: نعم بالضبط.

ابتسم بسخرية وهو يجيبه: هذا سهل، كل ما عليك هو أنْ تتوقف عن العمل لتأخذ (علقة ساخنة) قد تموت منها أو تبقى حياً، ثم ستُنقَلُ عقاباً؛ لتلفظ آخر أنفاسك هناك.

بعد وقتٍ طويل تحت جو المصنع الخانق خُيِّل إليهم بأنَّه لن ينتهي، عبروا عائدين أدراجهم من الممر الطويل ذاته، وما إنْ بدت لهم طلائع السجن حتى أعتلت وجوهم البهجة، وكأنَّه على ضيقه قد أصبح فسحة واسعة، وما إنْ اشتمَّ ثلاثتهم الهواء النقي حتى انبرى صوتٌ مِن الخلف منادٍ:

"سحـــــــــــــاب".

التفتت بلهفة متطلعة، لم يكن ذلك الصوت سوى صوت (غيث).

فوجئت به يعانقها بذراعيه الصغيرتين، ثم نظر إلى وجهها مباشرة وسأل: ماذا، هل نلعب الآن؟

ومع أنَّ الإجهاد كان بادياً على وجهها، إلا أنَّها هزت رأسها بالموافقة، ثم اتسعت عيناه كمن تذكر شيئاً وقال: سأحضر بعض اللفائف النظيفة، لحظة.

ولم يمضِ القليل مِن الوقت حتى عاد ومعه اللفائف، وقذفها بيد (رائد)، ثم سحب (مارغريت) مِن كفها، ودفعها للمشي معه، وهو يقول بحماس: هنا لا أحد يُجبرك على النوم في مكان معين، سننام في أيِّ مكان! بينما التفت (رائد) نحو حارث وهو يشير إلى اللفائف بيده ويقول بحماقة: ما الذي سأفعله أنا بهذه؟!

ضحك (حارث) ثم تحرك مع (رائد) يتبعانهما، توقف (غيث) عند أحد الجدران، واتكأ عليه وقال: ما رأيك أنْ تحكي لي قصة؟ ولنلعب غداً.

تلفتت حولها تتفحص المكان؛ وإذ بالجميع قد التحف العراء، فمنهم مَن نام جالساً، ومنهم َمن توسد ذراعه، ومنهم مَن نام على بطنه، فعلقت متسائلة: الجو باردٌ هنا، هل سننام دون أية أغطية؟ هؤلاء لا يعاملوننا كبشر مطلقاً!

على مقربة منهما جلس (رائد) وأسند رأسه إلى ذراعيه وهو يهز رأسه مؤيداً.

جلس إلى جانبه (حارث) وقال: أتمنى فقط ألا يطول مكوثنا هنا كثيراً!

بثقة أجابه (رائد): سنخرج، سنخرج وسنحرِّر كلَّ هؤلاء - بإذن الله -.

ابتسم (حارث) برضى وهو يسأل: هل تعتقد أنَّ هذا سيحدث حقاً؟

أغلق عينيه وهو يجيبه: مَن يدري ماذا سيحدث غداً.

أما (مارغريت) فقد كانت تتابع حديثهما بقلق ظاهر حتى سحبها (غيث) من كُمِّ ثوبها؛ ليلفت انتباهها ثم قال: لقد أوشكتُ على النوم، ألن تحكي لي قصة؟

ألقت بنظرة سريعة على (رائد) الذي كان مغمضاً عينيه ثم قالت: نعم، ولكن أمهلني بعض الوقت، ثم وقفت واتجهت إلى حيث (رائد)، وجلست أمامه وهي تقول: أمل رأسك قليلاً وأعطيني اللفائف.

فتح عينيه مندهشاً وهو يقول: ألم تنسي بعد؟ أخبرتك أنَّ..

لم يكمل حديثه حتى مدت يدها وجذبته مِن مقدمة شعر رأسه؛ فصرخ متبرماً: أهكذا تعاملين المرضى؟

تجاهلته وأمعنت النظر في الجرح، ثم حررت رأسه، وبللت اللفافة بالماء وهي تقول: إنَّه عميق كما توقعت، كيف تحملت الألم؟

لم يجبها بشيء، وشرعت هي بتنظيف الجرح.

كانت ملامحه تنكمش مِن الألم، وما إنْ همَّت بلف الجرح حتى قال: لقد مضت مدة طويلة منذ رأيتك تفعلين هذا.

تابعت اللف ثم أجابته: ولا أريد أنْ تراه مرة أخرى، انتبه على نفسك جيداً وكفاك تهوراً، ثم ابتسمت بخجل وهي تتم: ومع ذلك، أعتقد بأنَّه مِن الواجب عليّ شكرك!

ثم أشاحت بعينيها؛ وإذ بـ(غيث) يشدها مِن الخلف وهو يقول: ألم تنتهي بعد، أنا أشعر بالنعاس.

ابتسمت له، ثم أرخت برأسها على الجدار وهي تقول: دعني أفكر فقط....

فوجئت به يتمدد ويسند رأسه فوق فخذها وهو يقول: حسناً، لا تتأخري كثيراً.

ندت مِن شفتيها بسمة مشرقة، وأخذت تعبث بشعره وتسرحه له وهي تروي له: كان هناك فتاة صغيرة، مرحة ونشيطة، وكان الجميع يحبونها، صنعت لها جدتها وشاحاً أحمر جميلاً، فأصبحت تلك الطفلة ترتديه دوماً وتتفاخر به. ذات يوم طلبت منها أمها أنْ..

فجأة أمسك بأصابعها التي كانت تلعب بها في شعره، وعرَّج بها على خده، وعلت وجهه لمحة حزن عميق، ظلا صامتين للحظات، هو غارق في لج الذكرى، وهي غارقة في الحيرة مما لفت انتباه البقية، فجعلهما

ينظران إليهما؛ وإذ به يقول بعد صمت: يدك...دافئة، هل أستطيع أنْ أناديك: أماه؟

تمايل حاجباها بشدة معبران عن ارتباكها، ثم سكنت ملامحها أخيراً وابتسمت قائلة: يسرني ذلك بكل تأكيد!

ثم شعرت بدمعة تداعب جفنها؛ لذا انحنت وقبلت رأسه لتذهب بها بعيداً، وما إنْ رفعت رأسها حتى ضرب (رائد) براحة كفه رأس (غيث)؛ فنهض متوجعاً ومستفهماً: لمَ ضربتني؟

وفي الوقت ذاته صرخت (مارغريت) بالسؤال نفسه: أنتَ، لِمَ ضربته؟ كفاك حماقة!

حدجه مطولاً قبل أنْ يقول: تريد أنْ تناديها بأمي، إذن عليك أنْ تناديني بأبي، فـ(سحاب) زوجتي.

ملامح الدهشة التي اعتلت (غيث) هي ذاتها التي اعتلت ملامح (مارغريت)، ولكن سرعان ما لوت فمها بسخرية وهي ترد: كذاب! متى حدث ذلك؟

ثم وجهت حديثها لـ(غيث): إنَّه يكذب فقط، إنَّه يشعر بالملل؛ لذا يبحث عن أيِّ شيء ليبدأ به شجاراً، يبدو أنَّ الضربة على رأسه قد افقدته ذاكرته أيضاً.

مدَّ (رائد) لسانه نحو (غيث)؛ ليغيظه، ثم رمق (مارغريت) بحنق وقال: ألم نكن متزوجان في (درايا؟!).

رمقته بتقزز وقالت وهي تصر على أسنانها: إنَّني أشفق عليك، يبدو أَنَّ إصابة رأسك عميقة.

أغمض عينيه، وأسند رأسه على ذراعيه، ثم علق بهدوء محاولاً استفزازها: حسناً، لقد أصبت برأسي، ولكنَّ (حارثا) شاهداً على ذلك، أليس هذا صحيحاً؟

أطلقت صوتاً ينم عن سخرية لاذعة، ثم أخذت تمسح على رأس (غيث) وهي تشيح برأسها إلى الجهة الأخرى؛ لتخفي أثر الخجل الذي خذلها وقالت: لقد كانت كذبة مِن أجل عازف المزمار.

(غيث) الذي شعر برأسه يُطحن تحت كفها أبعد رأسه وهو يسأل: هل صحيح هو زوجك؟

انتفخت أوداجها وهي تجيبه بعصبية: كذاب، لقد قلت لك ذلك!

انكمش وجهه جراء الصرخة التي تلقاها للتو وسأل باستنكار: إذن، لمَ تصرخين علي هكذا؟!

شعرت بالحرج وتلعثمت وهي تجيبه: آسفة! لم أقصد، في الواقع، كنت أريد أنْ أصرخ في وجهه هو، ثم التفتت ناظرة إليه، رمقها بنظرة غير مكترثة ثم عاد ليغلق عينيه؛ أما (غيث) فقد كان يدقق النظر في ملامحها ثم قال: لا بأس، لدى أمي ملامح جميلة مثلك، وهي تشعر بالخجل وتغضب مثلك تماماً.

نفد صبرها؛ إذ لم تعد تحتمل مزيداً من الإحراج؛ لذا ضربته على رأسه فجأة وهي تعلق: يكفي هذا، أنت تحرجني كثيراً، أنا لا أحتمله هو وتأتي أنت لتكمل الباقي.

انفجر (رائد) ضحكاً، وقال بسخرية: لقد حصلتَ على أمٍّ غاية في العنف.

ببرود فتح (حارث) عينيه أخيراً بعد كلِّ هذه الجلبة ليقول: أريد أنْ أسأل سؤالاً واحداً فقط،

التفتَوا إليه باهتمام فتابع: ماذا حصل لتلك الفتاة ذات الوشاح الأحمر؟ لقد نسيتِ القصة تماماً.

خيَّم الصمت للحظة، ثم انخرطوا في الضحك، وبعد أنْ صمتوا عادت (مارغريت) لتكمل القصة وهي تمسح على رأسه، حتى شعرت به قد غفا.

رفعت رأسها تحدق في السماء، لاحظها (رائد)، فحمل جسده بيده واقترب منها، وما إنْ شعرت به حتى نظرت إليه وإذ به يقول: بإمكانك أنْ تضعي رأسك على كتفي؛ لتنامي، أنتِ لا تستطيعين النوم هكذا.

أشاحت برأسها إلى الجهة الأخرى وهي تقول: وكأني سأفعل، ثم رمقته بازدراء وهي تقول: هل أعدُّ هذا اعتذراً منك؟ لقد أفقدتني صوابي.

هز رأسه نافياً وهو يبتسم بسخرية؛ فزمت شفتيها ورمقته بغيظ، ثم أرخت برأسها على الجدار وأغمضت عينيها وسرعان ما استسلمت للنوم؛ أما (رائد) فقد رفع عينيه محدقاً في السماء للحظات، ثم مال بعينيه نحوها واعتلت شفتيه بسمة جميلة.

-"راد".

التفت مندهشاً ناحية (حارث) وعلق: ظننتك نائماً!

هزَّ رأسه نافياً، ثم خيَّم الصمت قليلاً قبل أنْ يتحدث (حارث) ويفصح عما يقلقه: لا تقل لي إنَّ هذا ما تخطط له؟

عدل جلسته باهتمام، والتفت إليه بنصف جسده وعلامات التعجب بادية على وجهه وهو يسأل: ما الذي تعنيه (ليو)؟ لم أفهم... ما الذي تعنيه بسؤالك؟

حملق في عينيه للحظات، ثم أشار إلى (مارغريت) وهو يقول: أعني بشأنها؟ أنت تُدرك تماماً أنَّ هذا مستحيل، صحيح؟

نزلت كلماته تلك عليه كالصاعقة؛ فعبس وارتخت أطرافه، أشاح بوجهه إلى الجهة الأخرى بارتباك وهو يعلق: بالطبع لا، أنا لم أفكر بذلك مطلقاً، أعلم بأنَّ هذا مستحيل.

ضاقت عيناه فجأة وهو يتم: لا داعي لتذكيري بهذا، كنتُ أمزح معها فحسب.

(حارث) الذي يفهمه جيداً لم تنطلِ عليه هذه الإجابة؛ إذ يدرك بأنَّه يخفي هذه الرغبة في أعماقه وإنْ لم يصرِّح بها؛ لذا أغمض عينيه وقال: ومع هذا، أراك تنجرف كلّ يوم بمشاعرك نحوها، إنْ لم تدرك ذلك، فأنت تؤذيها بمشاعرك هذه، سيكون مِن الصعب عليها فراقك بعد الآن، أرجو أنْ تضع هذا في الحسبان، لا يكفي أنْ تحبَّ شخصاً ما، عليك أيضاً أنْ تحرص على عدم إيذائه.

وجم وجه (رائد) للحظات شعر خلالها بانقباض قلبه، وانبرى صوتها في أعماقه وهي تقول: ما إنْ استطعت تجاوز مشاعري تلك حتى عدت لتظهر فجأة أمامي في (سر من رأى)، عدت؛ لتفتح الجرح مرة أخرى، عدت؛ لتجعلني أعيش على أمل يائس، ثم ستختفي بعدها في أية لحظة

وتتركني كما فعلت سابقاً، لماذا تفعل هذا بي؟ هل يروق لك عذابي إلى هذا الحد؟!

ابتسم بمرارة وهو يشيح بوجهه عن (حارث) ويقول: هل أنا حقاً هكذا؟! هل أبدو كذلك حقاً؟!

ثم عاد ليلتفت إليه، ولكنه أجابه بالصمت فقط؛ لذا زَفَر بيأس وعلَّق: أعتقد بأنِّي قد أخطأت فعلاً عندما أخذتها مِن (سر من رأى)، كان علي أنْ أتقبل الأمر وحسب، ما كان علي أنْ أبحث عنها بكل ذاك الإصرار، أعتقد بأنَّ هذه أكبر حماقة ارتكبتها، بدأت أدرك هذا الآن، ليس كلُّ ما نفعله خيارنا حتى لو اعتقدنا ذلك، في كلِّ الأحوال لم أكن قادراً على تجاهل وجودها ومع هذا...

صمت للحظة وشخصت عيناه بذعر؛ إذ شعر برأسها يصطدم بظهره؛ استدار ببطء نحوها فاطمأنَّ قلبه؛ إذ كانت غارقة في النوم، ظل ينظر إليها بعينين زائغتين للحظة، ثم ضاقت عيناه ونطق: (ليو)، لا يمكنك أنْ تطلب مني أنْ أتوقف بكل هذه السهولة، إنَّ هذا...يؤلمني أكثر!

حملق (حارث) مندهشاً مِن رده، لكن الآخر كان منشغلاً بتثبيتها، وما إنْ انتهى حتى نظر إليه وابتسم برقة وهو يتم: لا يمكنني التوقف الآن، أنا أتمنى لو أبقى عالقاً في الزمن إلى الأبد!

الفصل الخامس: الأبحاث الحيَّة.

تنتصر قوة الروح على الآلات و الحديد.

أمام بوابات (أورشليم) الضخمة احتشد جمع غفير مِن (السفارديم) رافعين شعارات تطالب برؤية أبنائهم وزوجاتهم داخل (أورشليم)، وبحقهم المشروع في الدخول والعيش فيها.

مكثوا لأيام محتشدين حتى جاءهم الجواب أخيراً، صُوِّبت نحوهم مدافع البوابات، وأُفرغت في صدورهم العارية؛ فسقطوا ميتين.

وفي أعلى تلٍّ يحيط بـ(أورشليم) التقم غليونه ونفث الدخان وهو يلقي بنظره على تلك الأسوار الفولاذية ثم قال: بقي القليل حتى يأتي دورك (رائد).

****

كان قد مضى شهر على ثلاثتهم وهم يُطحنون يومياً تحت عجلات تلك الآلات الضخمة، الإنهاك أخذ جزءاً ليس بالقليل مِن أجسادهم، ففي كلِّ يوم يمر عليهم كانوا يفقدون فيه جزءاً مِن قوتهم وحيويتهم، ومع هذا كانت أرواحهم تتوقُ كلَّ يوم للخروج، وأعينهم لا تنظر إلا للأمام، وأحلامهم العابرة لم تكن تصور لهم سوى هواء الخلاص، وأحاديثهم الليلية لم تخلُ مِن قصص الطامحين دوماً إلى الحرية.

ذات يوم وبينما الجميع منهمكٌ في عمل المصنع، لاحظ (رائد) قلة الجنود والحرس المحيطين بهم، فسأل (بدراً): ألم تلحظ قلة الجنود هذه الأيام؟

تلفَّت حوله وأجاب: ربما لديهم ما يشغلهم بالخارج، ليحترقوا جميعاً!

انغمس (رائد) قليلاً في العمل، ثم قرَّر فجأة المضي؛ لاستكشاف المكان، نظر إلى أحد الجنود وخاطبه بالإشارة؛ ليأذن له بالذهاب إلى دورة

المياه، ثم مشى في طريقه متجهاً إليه، ووقف عند آخر الرواق الذي يتفرع منه رواقان آخران؛ يميناً ينتهي آخره بدورة المياه، ويساراً؛ حيث لا يسمح لأحد بأنْ يذهب إليه.

تفحص بنظراته الجانب المحظور؛ فبدا له خالياً مِن الجنود، تلفت حوله كثيراً بريبة وحذر، وقطرات العرق تعبر جبينه نحو خده، ابتلع ريقه وهو يؤكد لنفسه: " أنا لست متهوراً إلى الحد الذي يجعلني أعبر المنطقة المحظورة"، لكنَّ ساقه كانت قد تحركت بالفعل نحو اليسار، ووجد نفسه يعبر ذلك الرواق بكلِّ حذر، لوهلة بدا له ألا نهاية لهذا الرواق.

استمر في مشيه حتى غمرته الخيبة؛ إذ لم يكن أمامه سوى جدار خالٍ مِن كل شيء!

زفر استياءه وخيبته، ولكنه سرعان ما التفت بذعر بعد أنْ تناهى إلى سمعه صوت يسأل: ما الذي تفعله هنا؟

ما إنْ رآها تقف أمامه حتى هدأت نفسه وعلق باستياء:

سحاب! ما الذي تفعلينه هنا؟ لماذا تبعتني؟!

-أنت، ما الذي تفعله هنا؟ لو أمسك بك أحد الجنود؛ فسيقتلك.

-سنقتل معاً الآن.

ثم ضرب على جبهته بتتابع وهو يصر على أسنانه ويقول: تباً لك! أنت تعقدين الأمور بالفعل، عموماً لنرجع سريعاً قبل أنْ يرانا أحدهم.

أشارت (مارغريت) فجأة بإصبعها إلى الأعلى دون أنْ تعلق على كلامه الأخير، وقالت: انظر لتلك البقعة الحمراء على الجدار في الأعلى، لقد لفتت نظري، هنالك شيء يومض بها.

استدار (رائد) محدقاً إليها باهتمام، ابتعد خطوتين إلى الوراء، وأخذ يدقق النظر في الجدار أمامه، حك ذقنه وقال: أتعرفين؟ لقد شاهدتِ أفلام خيال علمي كثيراً.

رفعت حاجبيها متسائلة، فأردف قائلاً: شاهدت مرة أنَّ البطل قد وقف أمام جدار خالٍ مِن أيِّ شيء، كهذا بالضبط، وما إنْ وضع يده في مكانٍ منه حتى انشق الجدار نصفين، ثم أُغلق ذاتياً.

اتكأت على الجدار وهي تقول: ماذا؟ أتعتقد بأنَّه يحوي بوابة مخفية كالسور في (بيت لحم)، ولكن كان هنالك صندوق أمام السور، ثم ضربت على الجدار بخفة وهي تتبع: وهنا لا شيء كما ترى.

لكن يدها كانت قد انزلقت فجأة وترنح جسدها في الهواء؛ إذ دُفع بجزء منه داخل الجدار، وما هي إلا لحظات حتى فُتحت بوابة مِن الجدار!

لدقائق ظلت أجفانهما لا تتوقفان عن الحركة مِن الدهشة، ثم نظر كلاهما إلى الآخر في غير تصديق، ثم تقدما إلى الأمام بخطوات واحدة.

عبرا ممراً طويلاً أطول مِن السابق بكثير، وأخيراً وجدا في نهايته باباً بنافذة زجاجية تشفُّ ما خلفها، وعلى يمين الباب عُلقت لوحة صغيرة مكتوب عليها عبارات باللغة العبرية.

أشار (رائد) إليها وسأل: هل تستطيعين قراءة ما عليها؟

حدقت فيها للحظات قبل أنْ تجيبه: مركز الأبحاث الحيَّة.

وجم (رائد) للحظة، ثم وقف على أطراف أصابعه؛ ليسترق النظر عبر النافذة، ثم قال: المكان يبدو هادئاً، لا أحد هنا، لندخل.

ما إنْ وضع يده على مقبض الباب حتى أمسكت (مارغريت) بمعصمه محاولة إيقافه، وبوجه بدا عليه الاضطراب والقلق قالت: لنقف عند هذا الحد، هذا يكفي الآن، ثم ألقت نظرة سريعة نحو الرواق، وتابعت: أخشى أنْ يشاهدنا أحدهم! لا يمكن للمكان أنْ يظلَّ خالياً هكذا.

لفظ يدها في ضيق متجاهلاً تحذيرها وأدار الباب، وهو يقول: هل تطلبين مني أنْ أتوقف الآن بعد أنْ قرأت تلك العبارات؟ أريد أنْ أعرف أيّ تجارب حية تقام هنا.

ما إنْ فُتح الباب على مصراعيه وانكشف لهما ما بالداخل، حتى عرف الجواب. تلك الأسِرَّة الممتدة على خط واحد، والتي تحمل فوقها جثثاً كثيرة مشوهة، أو بالأصح أنصاف جثث كانت كفيلة بإجابته.

انتفضت أطراف (مارغريت) وهي تنظر ناحية تلك الأكوام مِن الجثث، واحتضنت ذراعيها بخوف، وسألت بصوت يرتجف: ما الذي يحدث هنا؟! لماذا هذا المكان ممتلئ بكلِّ هذه الجثث المشوهة؟!

تناول كفها وضغط عليها بخفة؛ ليطمئنها، ودفعها للتقدم نحو الأمام وهو يقول: لا تنظري إليها وحسب، حاولي أنْ تهدئي قليلاً، لا يمكنني إلا أنْ أفكر بشيء واحد الآن، على الأرجح هؤلاء ماتوا هنا تحت تأثير التجارب.

صدمها ما سمعته؛ فوقفت فجأة، وسحبت يدها التي مازالت تنتفض وعلقت بريبة: أيُّ تجارب تقصد؟!

حينها لفت انتباه (رائد) مجموعة مِن صناديق الزجاج تحوي أشكالاً غريبة لم يتمكن من فهمها، وأحد تلك الصناديق كان يحوي شيئاً صغيراً جداً، وتحته كُتبت عبارة.

لم يجبها، وعاد ليمسك بكفها ويجبرها على المشي لتلك الزجاجات، توقف أمامها وأشار إليها وقال: انظري هنا، ما المكتوب عليها؟ ربما هذا سيجيب عن سؤالك.

حدَّقت فيها للحظات، ثم أجابته بشفتين ترتجفان: مكتوب "فايروسDVW".

حينها وصل إلى أسماعهم صوت أقدام تضرب الأرض، تيبَّسا للحظة قبل أنْ يندفع (رائد) ويسحبها بسرعة إلى تحت أحد الأسرة القريبة منهما؛ ليختبئا، وما هي إلا لحظات حتى أصبح المكان مكتظاً بالعديد مِن الرجال الذين يرتدون المعاطف الطبية.

كان يتوسطهم رجلٌ يرتدي بزة عسكرية، قصير القامة، يسير ويتحدث ويشير وسط احترام وخوف واضحين ومرتسمين على أعينهم جميعاً.

تحدثوا بلغتهم، وكان صوت ذلك العسكري يرتفع في كلِّ حين، وكأنَّه يصرخ عليهم، بينما كان أحدهم يبدو وكأنه يحاول تهدئته.

كانت عينا (مارغريت) شاخصتين وهي تستمع إلى حديثهم، وما هي إلا دقائق مِن ذلك الحوار المتنازع بينهم حتى خرجوا مِن المركز وأغلقوا الباب خلفهم.

استرق (رائد) نظرة مِن أسفل السرير، ثم قال همساً: لقد خرج الجميع، ثم التفت إليها وسأل: ما الذي كانوا يتحدثون عنه؟ لا شك أنَّك قد فهمتِ حديثهم.

هزَّت رأسها بالنفي، وقالت: ليس كل شيء، فهم يتحدثون بعبرية ليست كالقديمة التي أعرفها أنا.

-وما الذي فهمتِه؟

نظرت إليه بعينين غائرتين مِن الخوف، وأجابته: لقد كان اسم ذلك العسكري: (هيرش)، ويبدو أنَّه مسؤول كبير هنا، كانوا يتحدثون معه عن مدة انتهاء تطوير عقار ذلك الفايروس كما وصفوه.

صمتت تبتلع ريقها قبل أنْ تتبع: الذي يستطيع إذابة البَشَريِّ بسرعة دون أنْ يترك أيَّ أثر لجسده، وبأنَّهم قد عجزوا عن فهم محتويات (اللفافة المقدسة)؛ ليتمكنوا مِن إنجازه على أكمل وجه، هذا كل ما فهمته.

فرد أصابعه على الأرض، وقد بدا العرق يتصبب منه، وعلق بقوله: هذا كلام خطير جداً، أفهم منه إنَّهم يقومون بتجارب على البشر الأحياء؛ من أجل تطوير هذا العقار، هم على الأرجح يهدفون لتدمير كلّ مَن حولهم بأقل خسائر ممكنة لهم، تباً! وأنا الذي كنتُ سعيداً كون الأسلحة بدائية هنا، ولم تصل لما كانت عليه في القرن الحادي والعشرون! لكن هذا أسوأ بكثير مما ظننت، يبدو أنَّ ذلك الاختصار DVW يعني فايروس تدمير العالم.

احتضنت (مارغريت) ذراعيها، وهي تشعر بجسدها ينتفض مِن الخوف وربما البرد، وقالت بعينين تهربان: أشعر أنَّ البرد يخترق عظامي، أريد أنْ أخرج مِن هنا بأسرع وقت ممكن، دعنا نخرج أرجوك!

فوجئت بكفه يمدها إليها، رفعت إليه عينيها، فإذ به يبتسم وهو يقول:

هات كفكِ إذن ولنذهب.

شعرت بقلبها ينتفض أكثر، وهي تنظر إلى هذه الكف التي طالما امتدت إليها في مواقف كثيرة، وأخذت تحدث نفسها: لماذا يراودني هذا الشعور المبهم الآن وقد اعتدت هذا منه؟

لم تدرك بأنَّ ملامح وجهها كانت منكمشة إلا بعد أنْ لاحظت تعبيرات وجهه التي تنم عن القلق؛ فأشاحت بوجهها سريعاً، وحسرت عينيها بكفها فسأل: ألهذا الحد تشعرين بالبرد؟ لماذا تنتفضين هكذا؟

وضع يده على زر قميصه وهمَّ بفتحه وهو يقول: ليس لدي سوى هذا القميص البالي ربما سيدفئك.

أوقفته بحرج قائلة: توقف، لست مضطراً إلى ذلك، أنا بخير.

ندت مِن شفتيه بسمة ماكرة ثم قال: إذن، هل علي أنْ أفعل كما (غيث) وأضمك؛ لتدفئي قليلاً؟

تيبَّست ملامحها للحظة، ثم رمقته بنظرة غاضبة، وثمة انحناءة خفيفة على زاويتي شفتيها وهي تقول: ألا تعتقد بأنك تجاوزت حدودك قليلاً؟

غطى فمه يكتم ضحكة وهو يقول: بل أردت أنْ تغضبي وحسب؛ لأن الغضب سيرفع مِن مستوى ضغط الدم، وسيجعلك هذا تشعرين بالدفء، هل تشعرين بالبرد الآن؟

ثم مدَّ كفه أمامها مجدداً وقال: لنعد.
رمقت كفه الممدودة أمامها للحظة، وهي تحدث أعماقها: لقد فهمت الآن هذه المشاعر المبهمة، إنني لا أشعر بالبرد، أنا فقط لا أستطيع منع قلبي مِن أنْ يحبك أكثر وأكثر.
رفعت إليه عينين تغشاهما الدموع، أرخى ذراعه وهو يقول: إلى متى سأرفع يدي هكذا؟ ثم أمسك بكفها وسحبها وهو يقول: لنعد، أنتِ تتصرفين بغرابة اليوم حقاً.
توقفت فجأة والتفت إليه وسألت: هنالك شيء لم أفهمه..لماذا؟ لماذا يريدون تدمير كلَّ مَن حولهم بفايروس؟
تابع طريقه دون أنْ يجيبها بشيء، ولكنه أكَّد عليها بضرورة عدم التحدث عما شاهداه اليوم لأيِّ شخص حتى لـ (حارث)، ولم يقصد من ذلك إلا عدم توريطه ما إنْ وقع هو في أيديهم.
وفي الليل، وما إنْ همَّت (مارغريت) بالنوم حتى جذبها (غيث) مِن كمِّ قميصها وهو يقول: أماه، لا أشعر بالنعاس الآن، ما رأيك بأن أسرّح لك شعرك؟
ابتسمت باتساع وهي تدير ظهرها له وتقول: يسرني ذلك!
أمسك بخصلات منه، وقال: هل أضفره لك؟ لقد كانت أمي تجعلني أضفرُ لها شعرها وأسرحه لها كل حين، أتعلمين؟ لقد كانت تقول لي: إنَّ طريقتي تشبه التسريحات الرومانية القديمة.
أغمضت عينيها تخفي تأثرها، ثم هزت رأسها بالموافقة وقالت: افعل ما تريد.

شرع بتسريحه وعقده، بينما (رائد) و(حارث) يراقبانه، وما إنْ انتهى حتى علق ببهجة: إنَّها جميلة أماه!

أمسكت (مارغريت) بطرف الضفيرة ثم شكرته قائلة: أحسنت صنيعاً! لقد أعجبتني حقاً!

قام بفك عقدة الشريط الأبيض الذي كان يربطه في معصمه وسط تعجب ارتسم على ملامحهم جميعاً، ثم نظر إلى عينيها اللتين كانتا مثبتتين نحوه في ذهول، وقال: هل لك أنْ تستديري مرة أخرى؟ سأربط به شعرك.

فغرت شفتيها المتأثرتين عن "لكن"، ثم استكانت واستدارت بطواعية؛ فأخذ يربط شعرها بالشريط، وما إنْ انتهى حتى قال: هذا كان آخر شيء ربطت شعر أمي به.

حينئذ لم تستطع (مارغريت) مقاومة دموعها أكثر، كانت تجاهد طوال اليوم أنْ تبقى هادئة، ولكن إلى هنا لم تعد قادرة على كبت مشاعرها؛ لذا سمحت لدموعها أنْ تأخذ طريقها نحو خديها حارة وموجِعة، ثم ندت منها شهقة ضعف وهي تجذبه نحوها لتعانقه بقوة وتقول: أنت أحمق!

ثم ظلت لدقائق تبكي بحرارة، وهو يطوقها بذراعيه ويربت على ظهرها بكفيه الصغيرتين،

بينما شابت البقية نظرات حزن وتأثر، وعلق (حارث) بصوت منخفض موجهاً حديثه لـ(رائد): أعتقد بأنَّها تفهم مشاعره جيداً؛ لأنها هي الأخرى فقدت والديها مبكراً.

هز (رائد) رأسه نافياً وقال: ربما، ولكنَّها بدت مكتئبة منذ الصباح، لدرجة شعرت بأنَّها ستنفجر في أيِّ لحظة.

بعد أنْ هدأت قليلاً، قامت بمسح دموعها ثم قالت له: اسمع، سأحكي لك قصة أخرى اليوم.

هتف ببهجة: يا للروعة! أنا متشوق لسماعها!

اتكأت على الجدار؛ فجلس إلى جانبها، سرحت عيناها قليلاً قبل أنْ تُقول: يبدو أنِّي استهلكت كلَّ قصصي.

ابتسم (رائد) وعلق ساخراً؛ ليضفي مرحاً على الجو: احكي يا شهرزاد عن قصة عازف المزمار.

شاركه (حارث) الهدف ذاته، فأردف بسخرية: نعم، وأخبريه كيف أنَّ عزفه قد خدع الكبار وليس الأطفال! ثم انخرطا في الضحك، بينما رمقتهما بنظرات استياء بداية، ولكنها لم تستطع كبح ضحكتها طويلاً؛ فانفجرت ضاحكة وهي تعلق: حقاً، لقد خُدعنا به.

ثم التفتت إلى (غيث) وقالت: حسناً يا صغيري، سأحكي لك قصة.

كان هناك رجل نبيل يعيش في مدينة صغيرة، كان ذلك الرجل يكره الظلم، ويحب فعل الخير لكل الناس، لقد أحبه الناس كثيراً، حتى ذاع صيته في كلِّ أرجاء المدينة، وأصبح اسمه على كل لسان، وكان للمدينة حاكم مستبد، وكانت لديه ابنة لطيفة وطيبة، تحب الخير للناس وتكره الظلم، وكثيراً ما كانت تبدي اعتراضها على قرارات والدها وطغيانه، لكنه لم يكن يستمع إليها؛ بل كان يكيل لها المكائد أحياناً.

كانت تلك الفتاة اللطيفة قد أحبت ذلك الشاب النبيل الذي قابلته في المدينة ذات مرة، وحينما علم والدها بالخبر..

قاطعها (رائد) قائلاً: مهلاً، أنتِ تفسدينه بقصصك هذه، أحبته من أول لقاء لهما! ما الذي تتحدثين عنه؟ حتى أفشل الدراما لا تقع في هذا الخطأ.
اكتفت بنظرة ازدراء نحوه وتابعت: واستشاط غضباً، وأمر الحاكم بإلقاء القبض على ذلك الشاب النبيل، وأمر بقتله، لم ترضَ الفتاة بذلك، ولا الناس الذين احتشدوا مِن كل مكان؛ لإيقاف إعدامه، لكن والدها مع هذا، كان قد أعدمهما معاً في النهاية؛ فثار الناس على ذلك الحاكم.
دُفن الاثنان معاً، وكان الناس يقولون: إنَّ زهور الأوركيد* التي لم تكن تنبت هناك نبتت على قبريهما، ولم تنبت في مكانٍ آخر.
علق (رائد) بسخرية وهو يدير رأسه إلى الجهة الأخرى: يا لها مِن قصة غبية حقاً!
لكن (غيثا) كان قد تنفس براحة عجيبة وأرخى رأسه على كتفها، ثم ظل للحظات ينظر إلى القمر في السماء قبل أن يقول: أتساءل إنْ متُّ أنا أي زهرة ستنبت على قبري؟

---

*: زهرة الأوركيد: هي نبات ينتج زهرة مِن أجمل الزهور وأقدمها من حيث الوجود، تعيش من٧ أيام إلى ١٤ يوماً. زهرة الأوركيد في لغة الزهور ترمز دوماً إلى الحب، وهي ترمز أيضاً إلى وعد لمن تعطى له بجعل الحياة أجمل مِن أجله.

رجف قلبها للحظة، أرهبتها الفكرة، فمدت ذراعيها وطوقته قائلة: لا تقل مثل هذا الكلام، أعدك بأننا سنخرج مِن هنا، وحينما نخرج ستعيش معي إلى أنْ أصبح عجوزاً متهالكة، وستدفنني أنت، وسترى أيّ زهرة ستنبت على قبري.

ولكنه كان شارداً في عالم مختلف، ولم يكن يستمع لما تقوله، فاستمر قائلاً: الياسمين، أظن أنَّ الياسمين ستنبت على قبري، فأنا أحب البياض في كلِّ شيء.

تملكها فجأة شعور بالفقد تجاهه؛ فارتجفت، شدت عليه أكثر وكأنها بذلك تحميه مِن سواد تلك الفكرة المشؤومة التي سيطرت عليها وقالت:

أخبرتك بألا تقل مثل هذا الكلام.

لكنَّ عينيه كانتا قد غفيتا قبلاً، وراح في نوم عميق.

بعدها بدقائق وقفت (مارغريت) بعد أنْ عدّلت وضعية (غيث) واطمأنت عليه، ثم عرجت بعينيها نحو (رائد) و (حارث) وبدا لها بأنَّ كليهما نائمان.

تنهدت قليلاً، ثم حاولت أنْ تغمض عينيها لكن دون جدوى، وأخيراً قررت أنْ تقف وتتجوَّل لبعض الوقت، وما إنْ ابتعدت قليلاً عابرة الأكوام الممددة أمامها الأقرب للجثث منها للأحياء، حتى توقفت فجأة ورفعت رأسها ناظرة نحو القمر، كانت السماء صافية وملتمعة بالنجوم.

شعرت فجأة بحركة خلفها؛ فالتفت بذعر، فإذ بـ(رائد) ينظر إليها ويسأل:

هل أفزعتك؟

وجمت للحظة قبل أنْ ترد بتعجب: ظننتك نائماً!

رفع أحد حاجبيه وأجابها: وكيف أفعل ذلك وأنت تتحركين وتتقلبين كثيراً؟

أشاحت بوجهها عنه دون أنْ تجيب وعادت تنظر إلى القمر، اقترب منها حتى وقف إلى جوارها وأخذ ينظر إلى القمر هو الآخر ويسأل: غريب! لم تعلقي ولم تغضبي، ما الذي يشغلك؟

أجابته دون أنْ تنظر إليه: لستُ في مزاجٍ جيد لأردَّ عليك.

انخرطا في صمت للحظات قبل أنْ يقول: جميل! أشعر وكأنّي لم أرَ القمر لأشهر.

التفتت إليه ونظرت إليه للحظات ثم سألت: لم تجبني اليوم على سؤالي.

التفت إليها ووضع سبابته فوق شفته مشيراً إليها بالصمت ثم قال: ألم أقل لكِ أنْ تنسي؟

اقتربت منه أكثر والنظرات الملحة ترتسم في عينيها وهي تقول: لا أحد يسمعنا الآن (راد)، إنَّ هذا الموضوع يشغلني حقاً.

ندت منه ابتسامة جميلة ثم وضع سبابته بين حاجبيها ودفع برأسها إلى الخلف قليلاً وهو يقول: حسناً، سأجيبك، شرط أنْ تبعدي هذه النظرة البائسة عن وجهك وتبتسمين أولاً، والشرط الثاني أنْ تناديني بـ(رائد)، ألم تلحظي بأنَّك طوال هذا اليوم كنتِ تناديني بـ(راد)؟

أومأت برأسها موافقة وقد ارتسمت على شفتيها بسمة خجلة وهي تقول: أجبني (رائد).

كتَّف ذراعيه وسرح بعينيه مفكراً للحظة ثم قال: لماذا تعتقدين أصلاً بأنِّي أملك إجابة؟

ابتسمت بسخرية وعلقت: كفاك حماقة وكن جدياً!

-لا أعلم.

نظرت إليه مستغربة فأتبع: الحقيقة بأنَّني فعلاً لا أعلم بالتحديد، فهذا الجواب صعب، لماذا يريدون تدمير مَن حولهم بالفايروس؟ هذا سؤال صعب، هو ذاته لماذا دمر العالم نفسه في القرن الواحد والعشرون بالنووي وبأسلحة فتاكة؟ لماذا يسعى جنرالات الحروب وبعض المنظمات؛ لإنقاص عدد البشرية؟ لماذا يظنون أنَّ الأرض قد ضاقت عليهم؟

بعضهم؛ لأسباب اقتصادية، وبعضهم يفعل ذلك؛ لزيادة أرصدتهم جراء دفع فواتير الدواء، وبعضهم يفعل ذلك؛ لينعش اقتصاده في صناعة السلاح، وبعضهم؛ لأسباب دينية.

أتعلمين؟ ربما يكون هذا هو السبب، مثلاً: في قرني كان الأنجيليون الجدد يشجعون فكرة اندلاع الحرب وسقوط ضحايا كثيرة مِن البشر؛ لتسقط دولة اليهود التي كان اسمها آنذاك: إسرائيل؛ لأن هذا الدمار وسقوط تلك الدولة هي في نظرهم مبشرة بالخلاص المسيحي ونزول (يوسع) مجدداً إلى الأرض، هذا ما يعتقدون به، وكذلك اليهود يظنون أنَّه مِن أجل أنْ يخرج المسيح الجديد لهم لابد أنْ تقع معارك دموية وأنْ تستقي الأرض بالكثير مِن الدماء، ربما لذلك السبب، ولكن ما أؤمن به أنا هو أنَّ كلَّ تلك الحروب ليست إلا لمصالح اقتصادية، ولكي تبقي القوة في قطب واحد؛ لضمان بقاء البقية أتباعاً لهذه القوة الواحدة، بمعنى: إنَّ

كل تلك الحروب لا مبرر حقيقي لها، وكل المبررات التي كانوا يعطوننا إياها محض أوهام ليس إلا، ما أنا واثق منه هو: ما مِن حرب عادلة.

ابتسم بسخرية ثم ثبَّت نظره في عينيها وأتبع: ربما يكون ما ذكرته مِن أسباب صحيحاً وربما لا.

-هذه حماقة! كيف يعتقدون بأنَّ الرب يرضى بإزهاقِ كلَّ هذه الأرواح؛ مِن أجل إرسال مسيحاً جديداً؟

قالتها (مارغريت) بوجه غشيته لمحة مِن الحزن، فهزَّ (رائد) كتفيه دون أنْ يجيب، ثم اقترب منها وقال: ألم أقل لك بأنْ تبعدي هذه النظرة عن وجهك، ثم تظاهر وكأنه يدقق النظر في وجهها وعلق قائلاً: صحيح، ألم أخبرك مِن قبل؟ لقد ازداد النمش في وجهك منذ قدومنا إلى هنا كثيراً.

حسرت وجهها بكفيها سريعاً وهي تصرخ بخجل: كذّاب!

أطلق ضحكة خفيفة ثم مد كفه أمامها وهو يقول: هيا لنعد، الجو باردٌ هنا.

نظرت إلى كفه للحظة، ثم عرجت إلى عينيه؛ فشعرت بالخجل الذي كساها فجأة؛ فلفظت كفه وسبقته وهي تقول: أكرهك.... (راد).

بينما وقف متعجباً مما سمعه للتو متسائلاً: ما الذي أصابها اليوم؟!

الفصل السابع : الفتيل.

وحينما يغيب الغيث، تقفّر منا المشاعر، وتبتر منا الحياة.

في اليوم التالي، استيقظ الجميع بنشاط عدا (غيثا)، كان يترنّح في مِشيته، وكاد أنْ يسقط أكثر من مرة.

وزَّع الجنود الطعام على السجناء وأخذ كلٌّ واحد منهم حصته.

قرّب (غيث) اللقمة مِن فمه، وشعر بـ(مارغريت) تضع كفها تحت رقبته تتلمس حرارته، فصرخت بقلق: أنت محموم!

بإعياء حرك رأسه قليلاً، ثم تحدث ببطء قائلاً: أنا حقاً أشعر بثقل في جسدي، لا أستطيع الحراك، ولا حتى أنْ ألتهم هذا الشيء، ثم سقط الخبز مِن يده، وسقط هو بين ذراعيها.

تنبّه (حارث) و(رائد)؛ فوقفا سريعاً واتجها نحوهما.

سأل (حارث): ماذا أصابه (مارغريت)؟

إنَّ حرارته مرتفعة جداً.

خلع (رائد) قميصه ووضعه على الأرض وهو يشير إلى (مارغريت) أنْ تضعه فوقه.

وضعته سريعاً، وأخذوا يراقبونه وهو يشهق الهواء ويزفره بصعوبة، خلع (حارث) قميصه هو الآخر، وبلله بالماء ووضعه على جبين (غيث).

علَّقت (مارغريت) بارتباك وهي تنتقل ببصرها نحوهما: هذا لا ينفع، لابد مِن أخذ علاج يخفض حرارته، المسكين، إنه لا يشعر بوجودنا حتى!

لكنه مد يده بإعياء؛ ليلامس أصابع (مارغريت) القريبة منه، فتح نصف عينيه بإجهاد، ثم قال: أنا بخير، لا تقلقي.

حينئذٍ كان صوت جرس العمل ينتشر في المكان، وبدأ السجناء يتناقصون مِن حولهم، ودخل بعض الجنود لِيُخْرِجُوا المتقاعسين عن العمل والمتأخرين، وفي تلك الجلبة تساءلت (مارغريت): ماذا سنفعل الآن؟ أنا لا أستطيع تركه هنا، سأطلب مِن أحد هؤلاء إعطائي دواءً، اذهبا أنتما.

هزَّ (حارث) رأسه نافياً وهو يرد: محـــــال، لن نستطيع ترككما عند هؤلاء الذين لا يرحمون.

في تلك اللحظة كان أحد الجنود قد تنبّه إليهم؛ فتوجّه ناحيتهم، أحسوا باقترابه، لكنّ أحداً منهم لم يلتفت حتى توقف خلفهم ووضع فوهة البندقية على ظهر (رائد) وهو يقول له بلغته: أنت، تحرك مِن هنا.

التفت إليه (رائد) بعينين تختزلان الكثير مِن الحنق، وأشار إليه نحو (غيث)، اقترب منه، فعاجلته (مارغريت) وحدثته بلغته قائلة: أرجوك سيدي! هذا طفلي وهو مريض، ويحتاج إلى علاج؛ لخفض الحرارة.

رفع أحد حاجبيه للحظة مستنكراً حديثها معه بتلك اللغة التي فهمها رغم اختلافها قليلاً عن لغته.

اقترب مِن (غيث) ونظر إليه للحظات يتفحصه، ثم وقف ونادَى أحد زملائه وتحدث معه هامساً، ثم تقدم الآخر نحو (مارغريت)، وقال لها: أعطني إياه، سأذهب به إلى الطبيب.

ثم أمسك به؛ ليحمله، لكن (مارغريت) كانت قد شدته إليها رافضةً تسليمَه.

سحبه مرة أخرى؛ فشدته هي بقوة أكبر من ذي قبل؛ بل إنها انحنت نحوه وطوقته بذراعيها.

تملكه الغضب؛ بسبب إصرارها؛ فانتفشت أوداجه وصرخ قائلاً: أعطني إياه يا نفاية!

هزت رأسها نافية وهي تصرخ: كلا، كلا لن أفعل!

وجَّه بندقيته ناحية (مارغريت) مهدداً؛ فتحرك (رائد) و(حارث) في الوقت ذاته؛ ليقفا في مواجهته، ولكن الآخر الذي كان يقف خلفها ضربها بطرف بندقيته؛ فارتخت قبضتُها وهوت على الأرض على جانبها؛ فخطف (غيثاً) مِن بين ذراعيها، تشبثت بقدميه وهي تحاول النهوض وتصرخ: لا تدعوهم يأخذوه! لا تدعوهم يأخذوه!

ولكنه ركلها بكلِّ قوته؛ فانهارت على الأرض، وما إنْ همّ (حارث) و(رائد) بالتحرك حتى كانت العديد مِن البنادق مصوبة نحوهما، تقدم جنديان منهما وانهالاً عليهما ضرباً بأعقاب البنادق؛ أما (مارغريت) فلم تشاهد هذه العلقة الساخنة؛ لأنَّها كانت تتبع (غيثا) بعينين واجمتين، وكأنهما استحالتا إلى بياض فجأة؛ أما هو فقد استطاع أنْ يفتح عينيه رغم إعيائه وينظر إليها ويبتسم، تلك الابتسامة التي كانت تشبه كل الابتسامات الحزينة في لوحات (رامبرانت)، والتي ظلت عالقة في ذاكرتها إلى الأبد.

بعد ذلك، انسحب الجنود، وأقبل (بدر) يركض سريعاً نحوهم؛ ليدرك الخبر، وما إنْ شاهد (حارثا) و(رائدا) يقفان وهما يمسحان آثار الدماء عن وجهيهما، حتى سأل: هل صحيح أنَّهم أخذوا (غيثا)؟

مسح (رائد) الدماء عن فمه وهو يجيب: صحيح، لقد قال بأنَّه سيحمله إلى الطبيب، ولكن (سحاب)...

التفت إليها وهو يتابع: رفضت ذلـ...

قطع كلامه؛ إذ صدمته ملامح وجهها الشاحب، وعيناها المثبتتان نحو البوابة بغيابٍ تام.

اندفع سريعاً نحوها ووضع يده على كتفها؛ لتنبيهها وهو يقول: (سحاب).

نظرت إليه شاخصةً، ثم صرخت: سيقتلونه! سيقتلونه! لقد وصفه بالفأر! لقد سمعت ذلك بوضوح، ربما سيأخذونه لمركز التجارب الحيوية ذاك!

نظر (حارث) نحو (رائد) متسائلاً، بينما لم يَبدُ (بدر) متفاجئاً مما سمعه؛ لذا نظر إلى (رائد) الذي قد امتقع وجهه، وكساه الشحوب وقال: إنه يوم عيد البوريبيم*، وأخشى أنَّه سيقدم قرباناً!

ما إنْ سمعت (مارغريت) ذلك حتى وقفت على ساقيها، وتراقصت شفتاها بوجل وهي تسأل: ما الذي تعنيه؟!

دار بعينه نحو ثلاثتهم، ثم قال: الحاخام (عزرا) أغنى رجل هنا، والأسوأ على الإطلاق، وعدو السفارديم الأول، وهو صاحب قرار الفصل، يمد الحكومة بكثير مِن المساعدات المالية؛ بل إنَّ نصف المشاريع هو مَن يموّلها، وهو (حرييدم)، ويؤمن بخرافة الفطير بالدم.

---

* عيد البوريبيم: تعني: (القرعة)، وهو ذكرى لخلاصهم في بلاد فارس مِن مجزرة هامان وزير الإمبراطور الإخميني أحشويرش، حين ألقى قرعة؛ ليرى اليوم المناسب لتنفيذ قتل اليهود. لكن (أستير) اليهودية –زوجة الملك- استطاعت بتوجيه مِن مردخاي أنْ تنقذ اليهود، وتفتك بهامان وأتباعه، وقد كتب الأديب المصري نجيب الكيلاني رواية بعنوان: (دم لفطير صهيون)، والمشهورة باسم :(حارة اليهود) أيضاً يصف بها هذا العيد وطقوسهم فيها، ويروي حدثاً تاريخياً وقع فيه الراهب المسيحي *Monk Thomas* وخادمه إبراهيم عمارة ضحيةً لهذه الطقوس.

شخصت أعينهم باستنكار، بينما انهارت (مارغريت) على الأرض، وطافت عيناها كلَّ الاتجاهات بذعر.

عض (حارث) شفته بقهر بينما ظل (رائد) يحملق بالأرض بغضب وحيرة.

خيّم الصمت للحظات بدا فيها الجميع عاجزين حتى تحدث (بدر) قائلاً: مركز الأبحاث الحية، أنتما تعرفانه صحيح؟

ثم وجه أنظاره نحو (مارغريت) و(رائد)وأتبع: قد يكون هنالك أمل.

اقترب منه (رائد) يستحثه؛ للإكمال باهتمام، وبعدَ ترددٍ واضح اقترب منهم حتى وقف بالمنتصف وقال بصوت أقرب للهمس: على الأرجح ستقام مراسم احتفالهم في قصره، وقصره ليس بعيداً مِن هنا، ما إنْ تخرج مِن السجن، سترى قصره أمامك على مدّ بصرك تماماً، لكنك لن تستطيع دخوله مِن البوابات الأمامية؛ لذا بإمكانك فعل ذلك مِن الباب الخلفي، ليس الأول ولا الثاني؛ بل الثالث؛ حيث يدخل مباشرة لبهو القصر.

و كيف لنا أنْ نخرج من هنا؟ سأل (رائد).

صمت (بدر) وهو ينتقل بنظره نحو ثلاثتهم، ثم أجاب: في مركز الأبحاث هنالك مِزلاج، وُضع خصيصاً؛ للتخلص مِن بقايا تجاربهم الطبية، طوله وعرضه ربما ينفع مع بنية جسدك (رائد)، لكن في هذا مخاطرة كبيرة على حياتك، ربما ستُصاب بعدوى أو مرض، فمن يدري ما نوع تلك النفايات التي يتخلصون منها، أو ربما ستسقط على أشياء حادة و جارحة.

بلا تردد أجاب: سأتسلل إذن، لا بأس بذلك، سأكون بخير.

ثم وجه حديثه لـ(حارث): اهتم بـ(سحاب) في غيابي.

ثم التفت إليها وأتم: سأساعد (غيثا)، وسأجد طريقة تمكننا مِن تخليص جميع الأسرى هنا

-بإذن الله- وما إنْ استدار؛ ليغادر حتى شعر بقميصه يُشد مِن الوراء، عرف أنَّها (مارغريت)، وتصور شكلها وهي غارقة بدموعها، فقال دون أنْ يلتفت: لا تحاولي أبداً، مِن المستحيل أنْ أُقحمك في هذا، لا وقت لدي لأمسح دموعك؛ لذا عليك أنْ تبقي هنا.

لكن ما إنْ التفت إليها، حتى فوجئ بتلك النظرة الجامدة في عينيها، نطقت بعزم: لن تتحرك خطوة واحدة بدوني، حتى لو ربطتَ نفسك بخيط (أريان)* لن تذهب وحدك.

أمام ذلك الإصرار الذي لم يلاحظه عليها مِن قبل ظل جامداً حائراً لا يدري ما يفعل، حرك عينيه ناحية (حارث) يستشيره؛ ففهم (حارث) مقصده وأومأ موافقاً.

خفض رأسه كمن فقد الحيلة، ثم التقط كفها دون أنْ ينظر إليها وهو يقول: لنسرع إذن.

خيط أريان: هي أسطورة إغريقية، وأريان: ابنة جزيرة كريت، أحبت تزيوس الذي جاء إلى الجزيرة؛ ليقتل الوحش المونتور، فأعطته لفيفة خيط؛ كي يبسطها خلفه أثناء الطريق، ليستطيع معرفة طريق العودة إليها.

انطلقاَ نحو المصنع، ومِن هناك تسللا بُغيةَ استخدام دورات المياه كما فعلا في المرة السابقة، عبَرَا الرواق الطويل، ثم انعطفا يساراً؛ حيث تقع البوابة السرية داخل ذاك الجدار.

توقفا للحظات يلتقطان أنفاسهما ثم قال: كل ما أتمناه الآن ألا نجد أحداً بالداخل، لا وقت لدينا لنضيعه.

تلمّس الجدار وهو يسأل: أتذكرين أين لمسته المرة السابقة؟

وحينما لم تجبه بشيء التفت إليها ووجدها واقفة بخشوع تام، وقد ضمت كفيها إلى بعضهما، وتُحرك شفتيها بهمس.

وقف بجانبها، أجبره هذا المشهد على أنْ يرفع هو الآخر كفيه في خشوع، والتمعت الدموع في عينيه وهو يناجي الله في أعماقه: "ربي وربها وربه، كن معنا يا الله!".

أرخت (مارغريت) يدها، ثم رفعت عينيها ناظرة لذاك الوميض الأحمر أعلاه، وصنعت خطاً وهمياً بإصبعها بين الوميض الأحمر وبين الجدار أمامها، ثم دفعت بكفها بخط مستقيم نحو الجدار وسرعان ما انزلقت فتحة منه؛ لينشق بعدها الباب نصفين كما حدث مِن قبل.

تبادلا النظرات بعزم، ثم انطلقا سريعاً عابرَيْنِ الرواق الطويل، وأخيراً وقفا أمام البوابة.

استرق (رائد) النظرات عبر النافذة الزجاجية، فابتهج وهو يقول: الحمد لله، لا أحد هنا، لندخل، ثم أدار الباب واتجها نحو العلب الزجاجية مباشرة، تلفت حوله باحثاً عن المزلاج، ثم وجد أخيراً مربعاً مِن الفولاذ

في منتصف الجدار، اقتربا منه، ثم نظر إليها متسائلاً: هل كان يقصد هذه يا ترى؟

ضغط على يده؛ فتحرك الغطاء، حنى رأسه؛ لينظر ما بداخله، فإذ هو المزلاج كما وصفه تماماً.

دفع الغطاء وهو يقول: سأدخل أولاً، ربما تعلق كتفي، إنْ علقت عليك أنْ تدفعيني دفعاً للنزول، ثم تقدم ودفع الغطاء بساقيه، وما إنْ جلس حتى قال: أغلقي شفتيك وضمي ذراعيك إليك، حاولي ألا تلمسي شيئاً في المزلاج.

ثم انزلق بسرعة فائقة إلى أسفل، ولكن لا ليسقط على مخلفات كيمائية كما قال (بدر)؛ بل ليجد نفسه واقعاً يفترش الأرض، فقد كان مِن حسن حظيهما أنْ نُقِلت الحاوية قبل دقائق فقط إلى المحرقة.

ما إنْ وقف معتدلاً ينفض التراب عنه حتى أسرع ناحية فتحة المزلاج؛ ليخفف مِن وقوع (مارغريت) على الأرض، لكنَّها كانت قد وقعت عليه قبل أنْ يمدَّ ذراعيه؛ فترنح فاقداً توازنه وسقط معها على الأرض.

تلفتت حولها معلقة: لا حاوية هنا؟

علق وهو يحاول تحريك ساقيه تحتها بتوجع واضح: نعم، ولكن تحتك ساقان قد قمت بكسرهما الآن، ألا تشعرين بذلك؟

وقفتْ بعجل دون أنْ تعلق أو حتى تنظر إليه، ثم تلفتت حولها باحثة عن القصر، فأشار إليها بيده يميناً وهو يقف ويقول: إنَّه هناك، ذلك هو هدفنا ولا شك، لنسرع، ثم انطلقا نحو ذلك القصر في حيطة وحذر، يختبئان خلف الجدران كلما أبصرا أحداً مِن الجنود يعبر.

في بهو ذلك القصر كان (عزرا) ببطنه المنتفخ، وأوداجه المترهلة، يجلس على كرسيه الحريري، وكأنَّه مَلِك يجلس على عرشه، وحوله امتدت طاولات حوت أطباقاً تحمل حلوى فاخرة، وكؤوساً ممتلئة بالخمر، يجلس حولها رجال ونساء، وفي آخر البهو وُضع وعاءٌ كبير حوى عجيناً وفوقه أسطوانة حديدية، تحوي داخلها إبراً تشبه المسامير العريضة، ووسطها علّقت الضحية *؛ ليُصفَّى دَمُها، فيعطي النكهة الأخيرة لفطيرة الشيطان تلك.

عُزفت موسيقى الشيطان صاخبة، و بدأت الجوقة بالغناء، وبدأ المدعوون يتمايلون على معزوفات الشياطين، وآخرون وقفوا يتراقصون بمجن.

أُطبق الحديد على الضحية؛ لتخترق المسامير أجزاء جسده ببطء، صرخ بتوجع، صرخ دون أنْ يَسمعه أحد، ثم بدأ يئنّ بوهن حتى خبا صوته واختفى.

في تلك اللحظة كان الباب الخلفي الثالث قد فُتح على مصراعيه، معلناً عن اقتحام غير مرغوب فيه؛ حيث ظهر مِن خلف الباب (رائد) و(مارغريت) لتقع أعينهما أول ما وقعت على ذلك الوعاء، رفعا أعينهما لأعلى معاً، كان الدم يقطر ببطء مِن تلك الأسطوانة الحديدية، وذاك المنتفخ في جلسته نهض بعجل؛ ليتأكد مِن صحة ما وقعت عليه عيناه للتو.

---

* : استخدمت هذه الأسطوانات كتوابيت في محاكم التفتيش في إسبانيا ضد المسلمون إبان سقوط الدولة الأندلسية، واستخدمت أيضاً ضد البروتستانت الذين خالفوا الكنيسة الكاثوليكية.

أشار إلى الفرقة العازفة بالتوقف؛ فتوقفوا، واتجهت أنظار الجميع حيث وقف الاثنان يصارعان الصدمة بصمتٍ تام، لم يمهلهما الكثير فسريعاً ما أخرج مسدسه مِن جيبه، ووجهه ناحيتهما وهو يصرخ بفظاظة: كيف للحشرات أنْ تدخل قصري!

ثم أطلق النيران بحماقة، بينما خفض الحاضرون رؤوسهم بهلع، ودبّ فيهم الرعب، وانتشرت شتائمهم في المكان، و شرعوا يفرّون مِن كل مكان.

سحب (رائدٌ مارغريت) إلى خلف الوعاء؛ لتفادي رصاصاته الطائشة، التي سرعان ما ازداد عددها؛ إذ وصله المدد مِن حراسه، واصطفوا أمام الوعاء.

ووسط إطلاق النار المتتابع كانت (مارغريت) تنتفض بشدة ليس خوفاً؛ بل غضباً؛ إذ كانت عيناها محمرتين، وثمة لهيب يحرق صدرها، تاركاً خلفه كرة مِن حمم لا يمكنها أنْ تخبو حتى تحقق ما تريده.

شعر بجسدها المرتجف، وما إنْ التفت نحوها حتى فوجئ بها تستند بذراعيها على كتفيه محاولة الصعود بكامل جسدها، لتجعل منه سُلماً تصل به إلى الأسطوانة الحديدية في الأعلى.

صرخت برجاء: ادفعني نحوها!

ما إنْ نطقت بذلك حتى تحركت يداه لا شعورياً ورفعها بكل قوته؛ لتثبت قدميها، ثم ساعدها على أنْ تقذف بنفسها إلى أعلى الوعاء، وما إنْ ظهر رأسها لمن يقف في الأمام حتى تحولت رصاصاتهم للأعلى مباشرة.

ووسط تلك الطلقات العشوائية قفز (رائد) بتهور دون تفكير، مظهراً جسده أمامهم؛ لتشتيت انتباههم عنها وإشغالهم، متنقلاً بسرعة بين الطاولات تتبعه رصاصاتهم، ومع كل طلقة تصل أُذنه كان قلبه ينتفض ظاناً منه بأنَّها ستكون النهاية. أصابته رصاصتان بخدشين في ساقيه أبطآ حركته، ومع هذا ظل ينتقل أمامهم، وعيناه تراقب (مارغريت) التي تتابع الصعود وهو يفكر في أعماقه: لقد صدق (ليو) حينما وصفني بأنِّي سريع الاندفاع دون تفكير، وهل كان يريد مني أنْ أقف دون حراك؟! بعض المواقف لا تحتاج إلى تفكير بقدر ما تحتاج للاندفاع وحسب.

في تلك الأثناء كانت (مارغريت) قد وصلت إلى فوق الأسطوانة، وكانت تحاول بكلِّ قوتها فصلها بيديها وساقيها، تدفع بوهن مرة، وبقوة مرة أخرى، حتى استجمعت قواها أخيراً، واستطاعت أنْ تمدّ كلَّ جسدها على الأسطوانة وتحريكها وسط دهشة مَن بقي مِن الحاضرين يراقب الموقف؛ فسقطت الضحية غارقة في دمائها وسط الوعاء، وتبعتها (مارغريت) ساقطة بعد أنْ نالت المسامير أماكن متفرقة مِن جسدها النحيل هي الأخرى.

قفز (رائد) مختبئاً خلف الوعاء تلحقه الرصاصات، و(عزرا) يصرخ:

اقبضوا عليهما! اقتلوهما! لا.. ضعوهما داخل الأسطوانة معاً! سيدفعان ثمن إفساد فطيرتي المقدسة!

كان الحراس قد تجمعوا في خطٍّ واحد، وكانت (مارغريت) قد استجمعت قواها وتحركت بصعوبة وسط العجين؛ لتلتقط (غيثا) وتتفحصه.

جاء صوت مِن أحدهم قائلاً: سلما نفسيكما بسرعة.

اللحظات تمر ببطء، وأقدامهم تقترب مِن الوعاء، طاشت عينا (رائد) في كل اتجاه حائراً لا يدري ما الحيلة؛ أما (مارغريت) فلم تحدِث أيَّ صوتٍ، ولم تبدِ أيَّ حَراك، و(رائد) لا يعلم أهي واعية وصامتة مِن الخوف، أم أنَّها قد فقدت وعيها.
هرم التفكير منه وسط مغبّة الاضطراب تلك وضاعت خيارات النجاة مِن أمامه، عدا فرصة واحدة لإنقاذهما، وهو أنْ يَخرج عليهم ويُسقط الوعاء مهما كلفه الأمر؛ لتسقط هي و(غيث) خارجاً والباقي عليها.
تنفّس بعمق متأهباً، ثم رفع صوته وقال: (سحاب) سأعدّ إلى ثلاثة، وعليكِ أنْ تقفزي هاربةً دون النظر خلفك.
وما إنْ خطا خطوة إلى الأمام حتى سمع صوت أبواب تُفتح وجموعاً تتدفق، وكثُرَت الأصوات واختلطت، وصوت إطلاق النار يُحدِثُ دوياً مخيفاً، وغاص المكان في موجة اضطراب عارمة. حرك رأسه قليلاً عله يفهم الوضع، فإذا به يدرك أنَّ المكان قد تم اقتحامه مِن قِبل أناس مسلحين، يطلقون النار على الحاضرين، ويرى أولئك الجنود الذين كانوا يطلقون الرصاص عليه للتو على الأرض صرعى ممددين؛ بل أكثر من ذلك، كان (عزرا) على الأرض يصارع نَفَسه الأخير.
تلفت حولَه برعب فإما أنْ يتحرك الآن مستغلاً هذه الفرصة التي أتته مِن السماء، أو يبقى جثة هامدة هو الآخر.
اندفعت ساقاه نحو الوعاء، رفع نفسه بأطراف أصابعه؛ ليستطلع أمرهما، لكنه وجم ما إنْ أبصر ذلك المشهد، مشهد جعل كلَّ الضجيج

حوله يعانق الصمت، وكلّ المشاهد المتحركة بقيت ساكنة، وأسدل عليها السواد فلم يبقَ أيُّ ضوء إلا في تلك البقعة؛ حيث كانت (مارغريت) تجلس بصمت ملطخة بالعجين والدماء، تحتضن (غيثا) الذي كانت ملامحه خاوية مِن أيِّ حياة، وكأنّ الزمن قد توقف بهما، وأصبحت كعذراء سيستين* وهي تعانق مسيحها بوجه مذعور، ليبقيا عالقين على هذا الحال يشكلان لوحة شاهدة على بشاعة البشر.

شَعر (رائد) بالماء الحار يتدفق مِن عينيه فجأة؛ فانتفض يمد إليها يده، لكنها لم تستجب له ولم تلتفت إليه، كانت حاضرة، لكنها غائبة في جبّ عميق مِن الألم جفت معه العينان، فباتت منكسرة.

وأخيراً، انبلجت شفتاه منادية : سحـــــــاب.. سحـــــــاب.

ضرب الوعاء بيده؛ ليلفت انتباهها دون جدوى، ثم قرر أخيراً دفعه لتسقط؛ فهوت، ولكنها كانت على الحال ذاته، ورغم وقوعها على الأرض إلا أنَّها بقيت تحتضن (غيثا) وتشده إليها، وما يزال الجب يحاصرها بظلمته.

اتجه نحوها سريعاً وحاول إجبارها على الوقوف لكنها لم تتحرك، هز كتفيها صارخاً: سحاب، يجب علينا أنْ نهرب مِن هنا!

---

*عذراء سيستين: يقصد بها لوحة عذراء كنيسة سيستين للفنان الإيطالي رافائيل، وهي مِن أكثر اللوحات التي أثارت جدلاً؛ بسبب التعابير الغامضة التي رسمها رافائيل على وجه العذراء وطفلها، وحاول النقاد ودارسو الفن فكّها ومعرفة كنهها.

ظلت شفتاها مطبقتين، وعيناها مغيبتان في ظلمة الجب، أمسك بذراعها وسحبها بالقوة؛ فوقفت أخيراً، ثم دفع بكتفيها بقوة أكبر؛ ليجبرها على الركض.

ظل يركض وهو يدفعها ويسحبها، وهي ما تزال تحمل (غيثا) بين ذراعيها.

وأخيراً توقف تحت قناة تضخُ المياه لكل المدينة عبر أنابيب عملاقة، قرر أنْ يختبئ تحت أحد أنفاقها.

اتكأ على الجدار وقد حسر عينيه بكفه يدفع أنفاسه المرهقة، استغرق بضع لحظات وهو على هذه الحال، ثم نظر إليها، فإذا بها ما تزال واقفة ضامة (غيثا) بين ذراعيها!

رمقها بغضب وزفر بيأس ثم وقف ووضع يده على كتفيها، وقال:

(سحاب) أرجوك هذا يكفي!

ثم هز كتفيها علها تفيق، لكنها لم تردّ عليه، رفع رأسها بيده؛ فنظرت إليه، لكنها كانت ما تزال غارقة في جب الصدمة وكأنَّها لا تنظر إليه.

صفع خدها بخفة وتتابع.

-(سحاب)، هل تنظرين إليَّ؟

ضاقت عيناه وهو يتبع:(مارغريت..) أرجوك!

لكنها عادت لتخفض رأسها، وتشد إليها (غيثا).

تراجع إلى الوراء خطوة وخفض رأسه بيأس، تنهّد بألم، ثم عاد ليضغط على كتفيها؛ ليجبرها على الجلوس، فجلست أخيراً.

جلس إلى جانبها وأرخى رأسه على الجدار، شهق بقوة شعر معها وكأنَّه يستجلب لهيب الشمس إلى صدره؛ فتتكور، ثم تُخرِج زفيراً يمزّق كلَّ أعماقه معه.

ألقى بنظرة سريعة عليها، كان ثوبها ممزقاً مِن كل اتجاه، والجروح تملأ جسدها، والدماء تسيل مِن كل مكان، لكن يبدو أنَّها لم تكن تشعر بألم جروحها.

ثم مال بنظره إلى ذلك الجسد الغضّ الممزق مِن كل اتجاه؛ فارتجفت الدموع في عينيه؛ فأشاح برأسه إلى الجهة الأخرى هارباً، لفت انتباهه أصوات مختلطة بدت وكأنها لِحَشد من الناس؛ فوقف ليسترق النظر إلى الأعلى، فإذا به يرى مجموعة مِن الناس يحملون اللافتات بأيديهم وكأنها مظاهرة مِن نوع ما، لكنه لم يفهم ما كتب على لوحاتهم، أو ما كانوا يرددونه بصوت واحد.

نظر إلى (مارغريت)، وقال: شيء ما يحدُث في هذه المدينة ولا نعلمه، يبدو أنَّها مظاهرة من نوع ما، صحيح، ما كانت تلك الفِرقة المسلحة التي اقتحمت قصر (عزرا) يا ترى؟

لكنها لم تجبه، فعاود الجلوس، وقال: هل تعتقدين أنَّهم مِن أبناء السفارديم؟

ظلمة الجب التي غمرتها، جعلتها تَهذي في سكرة مِن الفقد، فأعتمتْ عينيها وأصمّت أذنيها، فلم تبدِ أيَّ اندهاش أو استجابة.

بدأ صبره ينفد؛ فقام بخلع قميصه، وبلل طرفه مِن ماء القناة، ثم عاد وجلس أمامها مباشرة متكئاً على ركبتيه، وشرع بمسح الدماء عن وجهها وهو يقول: يجب أنْ تعتني بجروحك الآن.

وما إنْ انتهى حتى قال: اسمعي، أرجوك ضعيه جانباً حتى أرى بقية جروحك!

لكنها ضمتها إليه أكثر وكأنَّها ترفض تركه، تنهد باستياء وهو يشيح بوجهه عنها، ثم عاد لينظر إليها، أمسك بذراعها؛ ليمسح الدماء عنها، لكنَّها أبت أنْ ترخي ذراعها، وظلت تحتضن (غيثا).

ضغط على مِعصمها، وقال باستياء واضح: أرجوك (سحاب)! توقفي عن فعل هذا، أنت تقتلينني هكذا، أنا لا أستطيع أنْ أصمد أكثر مِن ذلك، عليك أنْ تقفي وتنظري إلى الأمام الآن، عليك أنْ تدركي الوضع الذي نحن فيه، نحن الآن هاربان مِن السجن، ولا أستبعد أن نُتهم أيضاً بتلك العملية؛ لتغطية ضعف أجهزتهم في حماية (عزرا)، وربما سنُعدم ما إنْ يجدونا دون أية محاكمة حتى، وهذا المكان لا يبدو آمناً مطلقاً.

أومأت برأسها دون وعي، ثم أرخت به على الجدار، وما تزال ذراعيها تحتضنه.

في تلك اللحظة دوى صوت طلقات النار عالياً فجأة، انتفض (رائد) واقفاً يستطلع الخبر.

أدرك أنَّ الصوت قادم مِن أعلى؛ فاسترق النظرات قليلاً؛ وإذ به يرى مجموعة مِن الجنود قد قاموا بتطويق تلك المجموعة مِن الناس التي

كانت تتظاهر قبل قليل، ثم قاموا بإطلاق النار على صدورهم العارية بكل برود؛ فسقط العديد منهم، بينما فرّ الباقون.
هوى على الأرض ينتفض بوجل وهو يقول: لقد قتلوا الناس بدَمٍ بارد، يجب علينا أنْ نهرب من هنا، أتسمعين؟
لكن تلك الجالسة في صمت، جعلته يلتزم الصمت هو الآخر للحظات حتى استعاد هدوءه.
اتكأ على الجدار يراقب الشمس التي قد أيلت للغروب ولكن ببطء شديد، وكأنَّها هي الأخرى تتشبث بالسماء، وتأبَى أنْ تغادر، وما إنْ هبط الظلام وسكن المكان ولم يعد هناك أي ضجيج أو جنود حولهم، وقف (رائد) وهو عازم على أنْ يأخذ (غيثا)، انحنى نحوها ومسح على شعره بخفة، وما إنْ فعل حتى شعر بدموعه وهي تتدفق بغزارة مغرقة خديه، أشاح بوجهه، ثم مسح دموعه محاولاً أنْ يتمالك نفسه.
أدخل ذراعيه بين ذراعي (مارغريت) وطوّق عنق (غيث)، أحست به؛ فرفعت رأسها ناظرة إليه بنظرات عذراء سيستين نفسها، ظل للحظات ينظر إلى عينيها الغارقتين في الفقد، ثم قال أخيراً وقد شدّ على عنقه:
أعطني إياه، أرجوكِ!
ثم شعر بدموعه تحيل من رؤيته، فأتم: لأدفنه هنا، إلى متى تنوين إبقاءه بين ذراعيك؟
كانت دموعه تلك تلتمع وسط ظلام الجب، وكان صوته يحدِث ضجيجاً استطاع أنْ يخترق به هدوءه الموحش، فأرخت بذراعيها قليلاً، وكأنَّها قد رضيت لكنها سرعان ما طوقته مجدداً بذراعين ترتعشان أكثر،

وأصيبت شفتاها برعشة؛ فارتجفت؛ أمّا عيناها فكانتا شاخصتين بجمود، وأخيراً فغرت فمها قائلة بصوت يبتعد ويبتعد: لقد قتلوه!
ثم شهقت بقوة وكأنَّ روحها تصعد معها وأخذت تردد دون وعي:
قتلوووه!
ثم شهقت مجدداً وكأنَّ صدرها قد ملأه الخواء، فَهَوت بنفسها على الأرض وهي ما تزال تحتضنه وتصرخ بالكلمات ذاتها لكن دون بكاء.
ربت على ظهرها بلطف وهو يقول بصوت متقطع: يكفي، لقد مات (غيث)، أرجوك اتركيه! دعينا ندفنه هنا.
توقف قليلاً ماسحاً الدموع من عينيه، ثم أمسك بطرف كتف (غيث) الظاهر مِن تحت (مارغريت) محاولاً سحبه إليه، وحينها فقط، كانت دموعُه الساقطة على رأسها قد استحالت لوميض استطاعت معه (مارغريت) أنْ تحرره مِن بين ذراعيها أخيراً.
في صمت حمله متجهاً نحو القناة، ووضعه على الأرض، ثم التقط صخرة، وبدأ بالحفر وبدأت الحفرة تكبر شيئاً فشيئاً؛ أما (مارغريت) فقد ظلت في مكانها تحتضن ساقيها بصمت.
وضع (غيثا) في الحفرة، ثم بدأ يحثو عليه التراب، حينها فقط وقفت (مارغريت) تجر ساقيها جراً، وما إنْ وصلت إليه حتى كان التراب قد غطّى جسده كله عَدَا وجهه، خلع (رائد) قميصه، وبلل طرفه بالماء مجدداً، وأخذ يمسح الدماء عن وجهه؛ فظهر وجهه الملائكي كما كان دوماً.

أبعدت (مارغريت رائدا)، وأخذت تنظر إلى وجه (غيث) تملأ عينيها منه للمرة الأخيرة، ثم انحنت نحوه وطبعت قُبلة على جبينه، ثم ابتعدت قليلاً فاسحة الطريق لـ(رائد)؛ كي يكمل مهمته، مفترشة الأرض بساقيها، تحتضن كفيها بخشوع.

ما إنْ انتهى مِن دفنه حتى وقف ينظر إليها لدقائق وهي ما تزال على حالها تفترش الأرض وتحتضن كفيها بصمت.

استدار خلفها ثم انحنى، ونزع الشريط الأبيض مِن شعرها الذي كاد أنْ يسقط؛ فانساب شعرها خلف ظهرها.

شعرت به، فحركت رأسها قليلاً ولكن دون أن ترفعه أو تنظر إليه.

جلس خلفها، وأمسك بشعرها وجمعه، وعقده لها بالشريط الأبيض مجدداً، ثم قال: (غيث) لم يمت، لقد ترك في قلب كلِّ واحد منا ذكرى جميلة يصعب علينا نسيانها، وإكراماً ووفاء له علينا الآن أنْ نعمل معاً؛ حتى لا يتكرر ذلك مع غيره.

ظل ممسكاً بالشريط بكلتا يديه للحظات صامتاً محاولاً دفع دموعه، ثم تابع: لقد أظهرتِ اليوم قوة لم أرها من قبل رغم إيقاني بأنَّه ميت فور رؤيتي لدمه، إلا أنَّني رأيت في عينيك إصراراً أدهشني؛ لهذا خاطرتُ بحياتنا وأصغيت إليك ورفعتك؛ لتحرري جسده، لقد كنتِ شجاعة حقاً...؛ لأنكِ... منحته قبراً في النهاية، لو لم تفعلي ذلك؛ لكانوا قد تخلصوا مِن جثته بطرق أخرى، أنتِ حقاً ..

خبا صوته وهو يتم (سحاب).

ثم خفض رأسه محاولاً إخفاء دموعه التي خذلته وتدفقت سريعاً.

ثم نهض معتدلاً، ظل صامتاً للحظات، تنفّس فيها بعمق وأخيراً مدَّ كفه إليها وحاول أنْ يرسم بسمة بددتها الدموع وهو يقول: والآن، ألن تعودي إليَّ؟

نظرت إلى كفه الممدودة أمامها للحظة، ثم أمسكت بها وهي تومئ برأسها، وما إنْ نهضت

حتى نظرت إليه بعينين منكسرتين، احتضنت ذراعيها، وقالت بصوت يخبو ويتلاشى في العدم: أريد أنْ أبكي أولاً.

غارت عيناها وأتمت: هل يمكنك أنْ تضمني؟

برد وجهه للحظة؛ إذ لم يسمع ما قالته، ولكنه ظل ينظر إلى عينيها الغائرتين في الظلمة، وشعر بهما وكأنهما تناديانه بوهن؛ فاندفع نحوها وطوقها بين ذراعيه، وهو يقول بصوت يرتجف: (مارغريت)، أرجوك! تخلصي مِن حزنك الآن على كتفي وسأنسى ذلك.

بوهن أرخت رأسها على كتفه ونطقت: لا فائدة.

شعرت بدموعه الحارة تبلل شعرها وكأنَّها أضواء تتشكل؛ فتزيح عتمة الجب؛ ليظهر مِن خلفه (غيث) وهو يبستم لها للمرة الأخيرة قبل أنْ يستدير مغادراً ملوّحاً لها بكفه مودّعاً.

وحينها فقط...

شعرت بالدموع تملأ عينيها، وبأنَّ الخواء في أعماقها قد تبدد بين ذراعيه، فندت منها شهقة أوجعته، وبكت أخيراً قاذفة بالألم على كتفه، تاركة إياه يغادرها مع (غيث).

لكنهما لم يدركان أنَّ ثمة فوهات بنادق قد حاصرتهما، ولم يُمنحان الوقت الكافي؛ لتجفيف دموعهما إلا بعد أنْ سمع (رائد) صوتاً يقول بالعربية: الهاربان مِن السجن.

كانت مجموعة مِن الجند تقف أمامهما، ويتوسطهم ذلك الرجل المدعو: (هريش).

رفعت (مارغريت) رأسها؛ لتستوعب ما حولها، فدسَّ (رائد) رأسها بين ذراعيه مجدداً، وهو يعد فوهات تلك البنادق الموجهة نحوهما. شعرت بقلبه يرتجف، اقترب ذلك الرجل منهما، فشدّ عليها بقوة أكبر وأنى له أنْ يحاول إخفاءها!

ابتسم ذلك الرجل بسخرية وكأنَّه يستمتع برؤيته لنظراته الوجلة، ثم قال وهو يُخرِج شيئاً مِن جيبه: الهاربان، كان مِن المفترض إعدامها الآن معاً، لكن الفضل لـ(هاشيْم)* الذي أظهر لنا شيئاً.

مد أمامهما ساعة الزمن، وأتبع: أيكما الذي سافر بها؟

---

١ هاشيْم: تعني: الإله بالشكنازية، ومع أنَّ لفظ (يهوه) هو ما ورد في التوراة كأحد أسماء الرب، إلا أنَّ نطقه محرّم على غير رئيس الكهنة الذي يمكنه ذلك في يوم الغفران أثناء قراءته للتوراة، ولذلك يتم استبدالها بأدناوي، أو هاشيم، أو شيما بالعبرية السامرية.

الفصل السابع: الاشتعال.

تحتشد الأمنيات مع الموت وتكثر، وكأنَّ الروح محصورةٌ في قاع حضورها تأبى المغادرة دونها.

في السجن، دخلت فِرقةٌ مكونة مِن ثلاثة رجال، كان ثلاثتهم يرتدون بزّات عسكرية سوداء، ويلثمون أفواههم بأوشحة سوداء.
تنقّلوا بين السجناء؛ بحثاً عن أحدهم، بدأ السجناء يلتفُّون حول بعضهم بذعر، ويتشبثّ الواحد منهم بيد الآخر في ريبةٍ وقلق، وبدأت همساتهم تعلو قائلة بوجل: فرقة إعدام!
وأخيراً وقف ثلاثتهم أمام (حارث) موجهين بنادقهم نحوه.

****

كانت (مارغريت) مقيدة على كرسي، ولكنها كانت كمن لم يستوعب بعد الذي حدث؛ إذ كانت نظراتها ما تزال شاردة وكأنَّها ما زالت مغيبةً رغم كل الفوضى والجَلَبة حولها؛ أما (رائد) فقد كان معلقاً على عجلة بالسقف رأساً على عقب، صرخ بوجهه (هريش) وهو يقول: أخبرتك أنْ تخبرني بكلِّ ما تعرفه عنها!
أجابه (رائد) وهو يشعر بأنَّ دماءَه التي تجمّعت في رأسه ستنفجر الآن وتخرج مِن أنفه، وبأنَّه سيغيب عن وعيه: لقد أخبرتك بكلِّ ما أعرفه عنها، أنا نفسي لا أعرف كيف تعمل، لو كنتُ أعرف لما كنت هنا.
كان صبر (هريش) قد بلغ ذروته، فأشار إلى أحد الجنود نحو (مارغريت)، ثم أمره بلغته التي لم يفهمها (رائد)، ولكنه سرعان ما فهم حينما اقترب الجندي مِن (مارغريت) ومزق ثوبها من عند كتفيها؛ فصرخ قائلاً: قلت لك بأنَّ هذه المرأة لا شأن لها، فلماذا تفعل ذلك؟!
بلكنة ساخرة أجابه: سيجعلك هذا تتحدث!

ثم أشار إلى الجندي ليقوم بتمزيق بقية ثيابها؛ فصرخ (رائد) بضعف وقال: سأخبرك بكلِّ شيء، ولكن دعها!

كان العالِم (أخميل) الذي اكتشف بأنَّها ساعة زمنية يقف مستنداً إلى جدار الغرفة يراقب المشهد بصمت.

اقترب (هريش) مِن (رائد) وضربه على وجهه بعصا كان يحملها وهو يقول: تحدث إذن، وإلا، فإنَّ هذه المرأة ستتعرى أمامك وستلفظ آخر أنفاسها هنا.

رمقه (رائد) بنظرات حانقة وهو يحاول التفكير بأيِّ شيء يخرجها مِن هنا، ثم التمعت في ذهنه فكرة ، ومِن دون تردد قال: لا أظنك تريد أنْ تفوّت على نفسك فرصة قراءة اللفافة المقدسة؟

رفع (هريش) حاجبيه مندهشاً وسأل: كيف تعلم بشأن اللفافة المقدسة؟

التقط نفسه بصعوبة وهو يجيب: قلت لك بأنَّني سأخبرك بكلِّ ما أعرفه، لكنِّي لا أستطيع أنْ أجيبك وأنا هكذا، أنزلني؛ حتى أستطيع الحديث معك، وسأخبرك بكل شيء.

أشار بعينيه إلى الجندي؛ فقام بتحريره وأنزله على الأرض، شعر رائد بالإعياء، وإنَّه على وشك التقيؤ، لكنه تمالك نفسه ثم أجلسه على الكرسي وقيّده.

اقترب منه (هريش) وقال: والآن، تحدث بسرعة.

نظر (رائد) نحو (مارغريت) التي كانت ما تزال خافضة رأسها مغمضة عينيها، وقال: تلك المرأة التي أردت قتلها قادرة على قراءة تلك اللفافة، كنتَ ستفقد شيئاً ثميناً.

التفت ناظراً إليها باحتقار، ثم عاد لينظر إلى (رائد) بنظرات تُوحي بعدم تصديقه، فقال (رائد): أنت تريد مِن الساعة الزمنية أنْ تعود بك إلى الوراء؛ لتكشف سرَّ العقار الموجود في اللفافة والذي تسعى إلى تطويره، ألستُ محقاً؟

اتسعت عيناه بدهشة لاحظها (رائد)؛ فاطمأنت أعماقه لتمكنه مِن تخمين الأمر تخميناً صحيحاً؛ لذا تابع يقول: صدقني، لن تفدك ساعة الزمن بشيء، فهي ساعة غبية لا يمكنك أنْ تحدِّد أيَّ زمن تريده كما تشاء، ولا يمكنك التنبؤ أين ستدفع بك.

ثم التفت ناحية (مارغريت) وأكمل: أمّا هذه المرأة التي بين يديك، فهي تجيد قراءة العبرية القديمة وقراءة الأرمينية أيضاً.

قاطعه قائلاً: تكذب!

اسألها إذن، أحضر اللفافة، وانظر كيف ستقرؤها لك جيداً، هذه المرأة قمتُ باختطافها واستغلالها وإحضارها معي إلى هنا؛ لأني سمعتُ بهذا العقار، وأردت أنْ أعرف تكوينه؛ لأصنع له مصلاً مضاداً، لكنَّ الأطباء كانوا قد دخلوا المكان، فلم نتمكن حينها مِن قراءة اللفافة، لقد رشوتُ (عزازيل) في (بيت لحم)؛ ليدخلني سجيناً حتى أصل إلى هذا المركز، وإلا لما تمكنت مِن دخوله.

حكّ (هريش) ذقنه، وقال مشككاً: مجموعة أكاذيب، إنَّ الوضع الذي رأيتكما فيه لا يدل على أنك قمت باستغلالها مطلقاً، ثم برزت من بين شفتيه بسمة ماكرة وهو يتبع: بل إنَّكما متواطئان في ذلك معاً، هل تعتقد أنَّه بإمكانك خداعي يا أحمق؟!

تفصّد العرق مِن جبين (رائد) وابتلع ريقه وهو يحاول كشف أعماق (هريش) مِن خلال ملامحه وهو يتجه نحو (مارغريت).
جذب رأسها مِن ذقنها ورفعه وهو يقول: أنتِ أيتها المرأة...
أشار إلى لوحةٍ على الجدار، ثم سأل: ما المكتوب تحتها؟
أجابته ببرود: لا يمكنني رؤيتها.
احمرَّ وجهه غضباً؛ فنزع ورقة مِن يد العالم (أخميل) وقرّبها مِن عينيها، وهو يقول: اقرئي هذه إذن.
حدَّقت فيها للحظات، كان مكتوب عليها معلومات بسيطة دوّنها ذلك العالم عن الساعة الزمنية، ثم أغمضت عينيها وأخذت نفساً عميقاً قبل أنْ تجيبه ببرود: لا يمكنني قراءتها.
جفلت عينا (رائد) للحظة، وحاول أنْ يميل برأسه اتجاهها عله يراها جيداً، فهي بردها هذا قد أفسدت كلَّ ما خطط إليه؛ أما هي فقد مالت بعينها ناحيته، ومع أنَّها أبصرت نظرات الرجاء في عينيه وتلك الإيماءات التي تطلب منها أنْ تغير رأيها إلا أنَّها تجاهلت ذلك وقالت: لقد كذب بشأن معرفتي للعبرية والأرمينية.
أطلق (هريش) ضحكة مستفزة، بينما بردت أطراف (رائد) كلها وهو ينظر إليها محاولاً تفسير موقفها ومعرفة ما تفكر به.
محال...
هل تود هذه المجنونة أنْ تموت؟ ما الذي تفكر به؟
اقترب منها (هريش) وبصق على خدها، وقام بشتمها بالعبرية.

فاصطكت أسنان (رائد) ببعضها؛ أما هي فحدجته بنظرات تحدٍ واحتقار أثارت غيظه؛ لذا أشار إلى الجندي وقال: لا نفع منهما أعدمهما حالاً.

ثم قرب رأسه منها وأخذ ينظر إلى عينيها وقال لها بالعبرية: سأرى كيف ستصبح نظراتك وأنت تشاهدين أطرافك تنتزع منك واحدة تلو الأخرى.

وعلى غير المتوقع اقترب العالم (أخميل) مِن (هريش) وقال: سيدي، إنَّ الرجل لم يكذب بشأن فهمها للعبرية، هي مَن كذبت، ثم ألقى بنظرة سريعة عليها؛ ليشاهد ردة فعلها، وكانت النظرة التي اعتلت وجهها دليلاً على فهمها لما قاله؛ لذا أتبع بكل ثقة: يبدو أنَّها قد فعلت ذلك عمداً، يبدو أنَّها تريد أنْ تموت، لكن سيدي أرجو أنْ تسمح لي، فأنا مازلت في حاجة إليه، وأودُّ أنْ استفسر منه عن بعض الأمور المتعلقة بالساعة.

حدجها (هريش) بنظرة ساخرة وهو يتمتم بتهكم: لا تخافي! سأحقق لك رغبتك، ولكن بعد أنْ تقرئي اللفافة.

كانت النظرة المستهترة وغير المبالية التي رمقته بها كفيلة بدفع آخر شكوكه نحوها، فأطلق ضحكات ساخرة، ثم اقترب منها وسدد على خدها صفعة قوية بكفه جعلت فكيها ينزفان، ثم أمر الجندي بإخراجها مِن الغرفة، وما إنْ حرر قيدها مِن الكرسي، ودفعها للمشي حتى التفتت ناحية (رائد) لتلتقي عيناها بعينيه، عينا (رائد) اللتان تفيضان بالقلق، وعيناها اللتان تشعان بأملٍ غريب أثار دهشته؛ لذا انحنت شفتاه قليلاً مشكلتين بسمة، وأومأ لها برأسه مطمئناً.

التفت العالم (أخميل) إلى (هريش) وقال: أرى مِن الأفضل ألا تقم بقتله الآن، فأنا أريد أنْ أستفسر منه عن بعض الأمور حول الساعة الزمنية، أرجوك!

أجابه بامتعاض وهو يغادر: افعل ذلك إذن، وبسرعة، ثم أغلق الباب خلفه.

تقدم (أخميل) منه، وما إنْ أصبح أمامه حتى قال بالعربية: اسمك: (رائد) صحيح؟

أثار ذلك دهشته ولكنه سرعان ما تظاهر بأنَّ الأمر عادي جدا؛ فأومأ برأسه موافقاً دون أدنى اهتمام، فأتبع (أخميل) قوله: أهنئك! أنت تملك سرعة بديهة مثيرة للإعجاب حقاً، إنَّني مندهش! كيف استطعت معرفة السبب وربطه باللفافة المقدسة؟!

لم يهتم (رائد) لما قاله، وأشاح بعينيه إلى الجهة الأخرى مما حدا بـ(أخميل) أنْ يتحرك إلى الجهة الأخرى، ويقف أمامه مرة أخرى ويقول: أخبرني الآن، ما الذي تعرفه عن هذه الآلة؟

رفع (رائد) رأسه وأحدَّ النظر في عينيه للحظات ثم قال: أريد أنْ أعرف أولاً إلى أين أخذوها؟ هل ستكون في مأمن كونها تستطيع قراءتها؟

ابتسم (أخميل) برقة وهو يجيب: تستطيع أنْ تقول هي في مأمن حتى تقرأها، أجبني الآن، ما الذي تعرفه عن الساعة؟

زفر الهواء بضجر وأجاب: لا أعرف شيئاً غير الذي قلته.

ازدادت ابتسامة (أخميل)، ثم صمت للحظات قبل أنْ يقول: بعد أنْ اطمأننت أنَّها لن تُقتل الآن لم يعد يهمك شيء! هل هذا يعني أنَّ هناك مَن تعتمد عليه في إخراجها؟

رمقه (رائد) بنظرة سريعة، ثم عاد ليطيش بعينيه في أرجاء الغرفة. مال (أخميل) عليه وقال: ومع هذا لا ينفي كونها ما تزال في خطر، وأنت حتماً تفكر الآن بحل يمكنها مِن الهرب قبل أنْ تقتل؛ لذا ما رأيك أنْ نعقد اتفاقاً؛ لسلامتها؟

رفع عينيه ناظراً إليه باهتمام، فأتم (أخميل): سأضمن لك إخراجها مِن هنا، شرط أنْ تخبرني بحقيقة الساعة؟

ندت مِن شفتيه بسمة ساخرة تنم عن عدم الثقة ثم سأل: وما الذي يضمن لي أنَّك ستحميها حقاً وستنقذها؟

تلفت (أخميل) حوله بحذر قبل أنْ يخرج ورقة، ويكتب عليها: ماذا إنْ أخبرتك أنَّني أعرف أنَّك مبعوثٌ مِن والي بغداد؟

شخصت عيناه بوجل وهو يقرأ ما كتب، ثم سرعان ما عاد إلى طبيعته وضحك بسخرية وأجاب: وإن كنتُ كذلك، فما الفائدة مِن تهددي الآن؟! ما الذي يهم بالتهمة إنْ كانت النهاية هي الموت؟ لا يهمني بأيِّ طريقة سأقتل بعد الآن.

ابتسم بخيبة وهو يرد: ظننتك أذكى مِن ذلك!

ثم عاود الكتابة على الورق، فكتب: ماذا إنْ علمتَ بأنَّني صديق (جياد)؟ ثم رفعها أمام عينيه، ظل ينظر إلى الورقة للحظات في ذهول، ثم أخذ يتفرس في عيني (أخميل)، ثم ابتلع ريقه بصعوبة وقال: يمكننا الاتفاق

الآن... إنَّ وجه الساعة الأول مجرد غطاء، في داخل الساعة ستجد ساعة أخرى مخبأة، إنْ دققت فيها ستجدها أرقاماً لأعوام باللاتينية، لكنَّ الصدق إنَّني لا أعرف كيف تعمل، وكيف يمكنني اختيار الفترة الزمنية، ماذا يمكنني أنْ أخبرك أيضاً؟

صمت للحظة ثم تابع يقول: ربما يفيدك هذا، مخترع الساعة هو العالم (أينشتاين)، عالم من علماء القرن العشرون، أظنك تعرفه، لقد نقلتني الساعة ثلاث مرات، وفي كل مرة كانت تومض بشدة، هذا كل ما أستطيع أنْ أقدمه لك.

ربت على كتفه، وقال قبل أنْ يستدير: شكراً لك! أظن أنَّ هذا كافٍ، ولا تقلق سأفي بوعدي.

ثم لوّح بكفه مودعاً، لكنَّ (رائدا) أوقفه بقوله: مهلاً...

التفت إليه مستفهماً وإذ بـ(رائد) يسأل: أريد أنْ أعرف فقط، هل (جياد) مسـ..

قاطعه الصوت الذي نادى على (أخميل) مِن الخارج في اللحظة ذاتها؛ فالتفت (أخميل) نحو الباب للحظة، ثم عاد لينظر إلى (رائد) ويجيب: بماذا يفيدك معرفة هذا الآن؟ صلِّ، واطلب المغفرة مِن الرَّب. ثم لوح له بيده مودعاً، ثم تمتم وهو يدير مقبض الباب: مِن المؤسف حقاً أنَّ شاباً بعقلك سيموت هكذا!

ثم أغلق الباب خلفه، وما هي إلا دقائق قضاها (رائد) باسترجاع بعض ذكرياته سريعاً، حتى سمع صوت فتح الباب ودخلت فرقة مكونة مِن

أربعة رجال يرتدون ملابس عسكرية سوداء، ويلثمون أفواههم بأوشحة سوداء.

لم يرفع (رائد) رأسه لينظر إليهم، وظلَّ محدقاً في أحذيتهم وأطراف بنادقهم بيأس، أغمض عينيه على صوت إعادة تعبئة الرصاص.

سمع صوتاً نسائياً يحدثه بالإنجليزية: (راد)، تُهمته الهرب مِن السجن، واغتيال الحاخام (عزرا)، وإفساد عيد البوربيم، وأردف أحدهم: والتجسس مِن قبل العرب.

لكنه لم يستمع لتلك الملاحظة الأخيرة وبدا غير آبه؛ إذ كان مغيباً في بحر مِن الأمنيات غرق فيه فجأة، فاللحظات التي يصبح الموت فيها قريباً، تحتشد الأمنيات، وتكثر الرغبات، وكأنَّها تتمسك بالروح حتى آخر قشة.

تبهت صورٌ وأخرى تلتمع، يضيق بعضُها ويتسع بعضُها، ولا شيء سوى زحام وسط نزْر من الوقت، إنَّها الرغبة في الحياة التي تعانق كلَّ مُقبلٍ على الموت.

ما هو أهم شيء الآن؟

لقد أردت كثيراً أنْ أقول لـ(ليو): إنِّني أحبه، وإنِّني أشكره، فلماذا لم أفعل ذلك؟ لقد كانت صداقتي معه مِن نوع مختلف، كان صديقاً ووالداً ومعلماً.

لقد أردتُ أنْ أخبر (مارغريت): إنَّني أحبها، وإنَّني قادر على البقاء معلقاً في الزمن إنْ كان ذلك يعني البقاء معها، لماذا لم أفعل؟ كل ما فعلته تجاهها كان حماقة!

لقد تمنيت أنْ أذهب إلى (جياد) وأعتذر منه؛ لشكّي فيه، ولأشكره على صنيعه الأخير.

لقد أردت أنْ أُقول لـ(بتّال): إنَّني أحبه، وإنَّني شاكر له قبل أنْ أرحل ولكني لم أفعل، وأردت أنْ أقول لـ(باتر): إنَّني قد سامحته رغم كل شيء، ولكني غادرت دون قول شيء، لقد أردت أنْ أرى (بارعا) يكبر، لكن يبدو أنِّي لم أعد أملك الوقت لذلك.

على الفكرة ذاتها، علته بسمة شاحبة تنتظر مصيرها، تنتظر أنْ تُفرغ تلك البنادق ذخيرتها عليه، ولكن، لمَ أصبحت هذه اللحظة طويلة إلى هذا الحد؟

اقترب منه أحدهم ووضع البندقية على رأسه، فلم يجرؤ على رفع عينيه وقال محدثاً نفسه وهو يغمض عينيه: ها قد انتهى كل شيء.

لكنه فوجئ بفوهة البندقية وهي تتحرك على رأسه بعبث ويقول صاحبها بلكنة إنجليزية مألوفة عنده: إنَّه لمشهد عجيب حقاً، لم أكن أتوقع أنِّي سأراه يوماً! صاحب اللسان السليط قد غَدَا حَملاً وديعاً وهو على حافة الموت!

فتح عينيه بذهول وهو يهمس: الصوت...!

لم يكن الصوت غريباً عليه، لقد أحدث ذات مرة ربكة في أعماقه، لقد كان صوتاً ارتبط مع صاحبته بلوحة ظهر فيها القمر خلفها.

رفع عينيه ببطء؛ ليتأكد، وإذ بها تزيح الوشاح عن وجهها، وتبتسم قائلة: ها قد التقينا مجدداً يا تلميذ معلمي (ليونهارد).

ارتجفت شفتاه وحاجباه، وهو ينطق باسمها: (فــــــــان)! القائدة (فان)!، ولكن كيف؟ ما الذي تفعلينه هنا؟

أجابته وهي تبتسم وترفع أحد حاجبيها: الشيء ذاته الذي تفعله أنت هنا، ولكننا سبقناكم بكثير، حتى أصبحنا مواطنين صالحين أليس كذلك؟

قالتها وهي تلتفت إلى الذي بجانبها، والذي بدوره أزاح وشاحه مجيباً بسخرية: صالحون! ومِن الدرجة الأولى أيضاً قائدة (فان).

نطق (رائد) ببهجة: (ستييف)!.

ابتسم وقال: أهلاً بك (راد)، سعدت بلقائك مجدداً!

التفت (رائد) إلى الآخر الذي إلى يسارها مستطلعاً، وقال: وذاك؟ أيمكن أنْ يكون....؟

أجابه سريعاً وهو يزيح وشاحه: (لانسلوت)، لم نتقابل مِن قبل، ولكني أتيت؛ لأقاضيك على دخولك مختبري، وسرقة قنابلي أنت وحلفك المجنون.

ندت من شفتيه بسمة مرتاحة، وأخذ نفساً عميقاً كمن استعاد وعيه فجأة وقال: يا للجنون! مَن كان يعتقد هذا؟!

تقدم الرابع نحوه؛ ليحل وثاقه، ويقول: آسف (راد) بشأن ما تعرضت له أنت و(مارغريت)!

لكنْ بَدَا وكأنَّ (رائدا) لم يكن يسمع شيئاً سوى صوت قلبه حينها، وقف معتدلاً يمسح على يديه مثبتاً نظره على (حارث) للحظات، شعر خلالها بغاشية مِن الدموع تملأ عينيه، ثم قال: (ليو)، أعني (حارث)، ارتجف صوته وهو يتم بتأثر: هل أخبرتك سابقاً لأي مدى... أنا أحبك؟!

تعجب (حارث) إلى درجة أنَّه شك في أذنيه للحظة، ثم ضحك بسخرية وهو يعلق: ماذا أصابك؟!

لكن (رائدا) قابل سخريته تلك بعناق وقال وهو يدفع دموعه: أشكرك مِن كل قلبي! أنا سعيد؛ لأنَّني قابلتك (ليو)!

زرع هذا المشهد المؤثر على أفواه ثلاثتهم بسمة منشرحة، ثم اقتربت منهما (فان) وبيدها كيس ممتلئ بسائل أحمر، وعلقت: معلمي، يبدو أنَّ تلميذك يشعر بأنَّه وُهب حياة أخرى بعد الموت، مثلما فعلت أنت بالضبط حال رؤيتنا.

أشاح وجهه بحرج، مخفياً ابتسامته، فوقفت بينهما (فان) وقالت وهي توجه حديثها لـ(رائد): عليك أنْ تلعب دور جثة الآن، لقد أُمرنا بذلك.

ثم أدخلت يدها بالكيس، ورشقت قليلاً مِن السائل على صدر (حارث) وهي تقول: هكذا سيبدو أنَّك قد اقتربت منه أثناء قتله، هكذا سيبدو الأمر واقعياً.

ارتبكت ملامح (رائد) كمن تذكر شيئاً فجأة وسأل: ولكن مهلاً، ماذا عن (مارغريت)؟ إنَّها لا تزال حبيسة هنا.

التفتت إليه وقالت مطمئنة: الوضع في الخارج مضطرب، ألم تشاهد ما حدث في منزل (عزرا)؟ لقد بَدَا بعضهم يضرب بعضاً، الأمر يسير وَفْق صالحنا، لدينا مهمة يجب أنْ ننهيها خلال أيام؛ أما (مارغريت) فلا تقلق عليها ستبقى في حماية (أخميل)، لن يدعهم يمسونها بأذى.

عبَّر عن رفضه بقوله: مهما يكن، بقاؤها هنا أخطر بكثير.

أمسك (حارث) بكتفه واستحثه على الموافقة بقوله: لا تقلق عليها.

ابتسمت (فان) وهي تقول: (راد)، عليك أنْ تثق بي هذه المرة.

مع أنَّه بدا متحيراً، إلا أنَّه أظهر إيماءات موافقة على وجهه وقال: إنْ كان الأمر متعلقاً بكِ، فإني سأمنحك ثقتي بكل تأكيد، ثم اقترب منها وشرع ذراعيه متأهباً ليُرشَق بالسائل على صدره، لكنه صدم بها وهي تفرغه كله فوق رأسه وتقول بسخرية: هكذا سيبدو أكثر واقعية!

بارتباك حاول مسحه عن عينيه وعلق متمتماً بتذمر: ما زلتِ متوحشة كما كنتِ!

الفصل الثامن : فتح البوابات.

نصبح أقوياء في تلك اللحظة التي نشعر فيها بثقة مَن حولِنا بنا.

خارج أسوار (القدس) العملاقة، وعلى مَقرُبة مِن التلال المحيطة بها، احتشدت جموع غفيرة، قُسمت لفِرق ومجموعات مسلحة بالسيوف والرماح والسهام.

وداخل تلك الأسوار وبالتحديد وسط منزل يقع في أطرافها، كان خمستهم يجلسون مجتمعين بعضهم حول بعض، يتناقشون في مهماتهم الجديدة بعد أنْ نجحوا في إخراج جثة(رائد) التي نقلت إلى المحرقة، وسط مراقبة وانتشار كبيرين مِن الجنود.

(رائد) الذي لم يكن قد استوعب بعد كثيرا مما حدث، وجه حديثه لـ(فان) باهتمام متسائلاً: هل يمكن أنْ تخبروني الآن ما الذي يحدث؟

شاركه (حارث) الرغبة ذاتها وهو يؤكد: أنا أيضاً أريد أنْ أعرف، ما الذي يحدث بالضبط؟

ثم التفت (رائد) نحو النافذة ووقف قليلاً على أطراف أصابعه؛ فتمكن مِن رؤية بعضٍ مِن الجنود المجتمعين، فتمتم معرباً عن عدم راحته: كأنَّ ثمة شيء مضطرب هنا!

وقفت (فان) وهي تقترب منه وتنظر نحو النافذة وتجيب: نحن ننتظر فقط انفجار الفتيل؛ لنبدأ العمل.

علته ملامح التعجب والحيرة ثم فكر قليلاً قبل أنْ يقول: أتعنين بالانفجار قيام ثورة مِن قبل أبناء السفارديم؟!

علق (ستييف) وهو يمسح سلاحه بقطعة قماش: قيـــــام؟ لقد قامت بالفعل، لكننا ننتظر نقلة نوعية لهذه الثورة، وقد حدث هذا بالأمس.

فغر فمه كمن استوعب شيئاً للتو وقال: هكذا إذن، لقد فهمت الآن، هذا ما حدث في قصر (عزرا)، لقد أصبحت ثورة مسلحة!

أومأ له بالموافقة، ثم اتجهت أنظاره نحو(فان) التي وقفت إلى جوار (رائد) و(حارث) وابتسمت بثقة وهي تقول: لا شك بأنكما لا تعلمان بهذا، على بُعد مسافات قصيرة فقط يقف جيشان مِن مئة ألف جندي في حلف واحد، وصف واحد، وهدف واحد، هو دك هذه القوة التي تهدد سلامهما معاً، ثم مدت يدها إليهما، وقالت: هذا يعني أننا حلفاء هنا، فهل ستكونون معنا؟

تبادلا النظرات للحظة في دهشة، ثم ابتسما بانشراح، ثم صافحاها معاً وهما يجيبان بصوت واحد: هذا أكيد.

وجهت حديثها لـ (لانسلوت) الذي كان يتفحص الأسلحة وقالت: أخبرهما بالخطة.

ابتسم موافقاً، ثم التقط لفافة ومدها أمامهما، كانت تحوي صوراً ومواقع محددة بعلامات.

سأل (حارث) بفضول: إلى ماذا تشير هذه العلامات؟

أجابه (ستييف): إلى مصانع الأسلحة، وهي خمسة، الخطة تنصّ على أنْ نقوم بحرقها جميعاً في وقتٍ واحد.

لم يستطع (رائد) الاستماع لبقية التفاصيل فقاطعه؛ ليستفسر عما يشغله بقوله: عذراً، ولكن ماذا عن مركز الأبحاث، إنه على مقربة من السجن؟

حدجته (فان) بنظرة مطولة قبل أنْ تبتسم وهي تجيبه: لا تقلق، لدينا حلفاء هناك.

صمت للحظة مفكراً، ثم تبادل النظرات مع (حارث) ونطق: لا تُخبريني بأنَّه (بدر)!

صحيح.

ابتسم بسخرية وهو يعلق: لقد خمنت بأنَّه لم يكن شخصاً عادياً، إنَّني أشتعل حماسة الآن.

ابتسم (لانسلوت) لـ(رائد) وهو يقول: لا تقلق، إنَّ القنبلة التي أعددتها لهناك، سيكون مدى تدميرها على المركز فقط، وما أنْ تصل الجيوش حتى يتم تحرير جميع السجناء مِن بقية السجون.

ازدادت سعة ابتسامته، لكنه عبس للحظة؛ إذ تذكر موضوع البوابات؛ لذا سأل: ماذا عن البوابات؟ إنها مجهزة بنظام إلكتروني وحماية، كيف سنخترقها؟

تبادل (ستييف) و(فان) نظرات تنم عن عدم الثقة للحظة قبل أنْ تجيبه: لم نستطع إيجاد ثغرة لها حتى الآن، لكننا وضعنا أعيننا على عدة أشخاص، سنحاول أسرهم أثناء تلك الفوضى؛ ليمكّنونا مِن فتحها.

اعترض قائلاً: ولكن هذا سيستغرق وقتاً، وسيؤخر دخول الجيوش، وسيمنحهم وقتاً لضبط أنفسهم!

بتوتر مسحت (فان) على جبينها كمن تفكر وهي تجيب: أعلم بأنَّ هذا ليس مضموناً، ولكن لا بدَّ مِن المخاطرة في الحرب.

رمق (رائدٌ حارثا) بنظرة قلقة تعبِّر عن ارتيابه في نجاح هذه الخطة، ثم اتجه نحو النافذة التي كانت إلى جوارها طاولة صغيرة تحوي شمعداناً، نظر مِن خلال النافذة، ثم مالت عيناه يميناً ناحية الشمعدان، ظل يحدق

فيه للحظات سارحاً، مما جعل (فان) تقترب منه وتنادي عليه؛ للفت انتباهه، ولكنه لم يجبها؛ إذ تذكر فجأة تلك اللفافة التي شاهدها في منزل (جياد) في تلك الغرفة التي كانت تحوي شمعداناً كبيراً هي الأخرى.

علته بسمة زهو، ثم قطب جبينه محاولاً تذكر ما شاهده في تلك اللفافة بدقة، بينما كانت تنظر إليه (فان) باستغراب وهي تقول: أعلم أنَّك تفكر بأنَّ هذا غير مضمون، ولكني أعدك بأني..

قاطعها بقوله: أنا...

التفت الجميع نحوه متطلعين؛ فإذ به يتبع: أنا سأفتح البوابات، هذه مهمتي.

علتهم ملامح الحيرة والتساؤل؛ لذا أوضح قائلاً: لن أحتاج سوى الذهاب إلى بابٍ واحد لفتح البقية، في الواقع لقد شاهدت الخريطة سابقاً وطريقة فتحها.

وجَّه حديثه إلى (حارث) وأتبع: لقد فهمت الآن، عازف المزمار ذاك استغل شكِّي به وجعلني أشاهد اللفافة عمداً، وحينما همس إليَّ بأنَّ مهمتي اقتربت كان يعني بها فتح البوابات.

رفع (ستييف) حاجبيه مستنكراً وهو يسأل: ولكن، هل تذكرها جيداً؟!

نظر إليه (رائد) بثقة، ثم ابتسم بزهو وهو يقول: وكيف لا أتذكرها؟! لطالما ربحت بمسابقات قوة الملاحظة!

باعتراض مبطن قالت (فان): إنَّه نظام متطور، فهل حقّاً تستطيع اختراقه؟!

ابتسم بحرجٍ، ثم حكَّ شعر رأسه بلا مبلاة وهو يتمتم: عليكم أنْ تثقوا بي وحسب، لماذا تريدون مني كشف ماضيي الأسود؟ هل يجب علي أنْ أصرح بأنَّي كنت قرصاناً للحواسيب ذات مرة!

ابتسم (حارث)، ثم خفض عينيه أرضاً وهو يعلق: إذن، (جياد) هذا كان يقوم بإشعال الثورة ودفع بنا للقدوم إلى هنا، ولا شك بأنَّه أرسل الختم معجلاً بتحريك والي بغداد، لقد لعب بالجميع بمزماره، تباً له!

ثم ضحك بسخرية وأتم: مع أنِّي سعيد بذلك الآن، ولكن ينتابني شعور بأنَّنا كنا حمقى ونتحرك ببطء!

وقفت (فان) وقد التقطت بندقيتها، ثم وجهت أنظارها نحو (حارث) و(رائد) وهي تقول: ما يهم الآن هو أنْ تعرفا استخدام هذه، هل سبق أنْ جربتماها؟

كتَّف (رائد) ذراعيه وقال: هل يجب علي أيضاً أنْ أعترف بأنَّي هربت مِن الخدمة العسكرية؟

حينها دوّى صوت انفجار هائل، جمدهم لدقائق في أماكنهم، ثم خرجوا جميعاً إلى الخارج مستطلعين الأمر، كان دخاناً عظيماً يتصاعد مِن أحد القصور في إحدى الضواحي القريبة منهم.

لقد بدأ الثوار بهجمتهم، ظننت بأنَّنا نملك وقتاً أطول.

علقت (فان) بذلك، فرد (رائد) سريعاً: لا بأس، قد أكون هربت مِن حمل الأسلحة النارية، ولكن شفرة سيفي حادة، أنا مستعد لذلك.

بتهكّم قال (حارث): أيّ سيف تقصد؟! يبدو أنَّك تحمست حقاً، لقد تركنا سيوفنا في (بيت لحم).

التفتت إليهم (فان) وقالت: اسمعوا.

اقترب الجميع ملتفاً حولها مصغياً باهتمام، فقالت: سنعبر هذه الفوضى، وسنعبر عبر طرفين متصارعين، يريانِنا أيضاً عدواً مشتركاً، سيشرح (لانسلوت) خطة تقسيمنا للمواقع المحددة، اعبروا بقدر ما تستطيعون من بين رصاصتهم، وأدخنة الانفجارات وأنتم أحياء؛ بل يجب عليكم البقاء أحياء، وإلا فانسحبوا. ليأخذ الآن كلٌّ منكم سلاحه.

عادوا إلى المنزل سريعاً، وقُسمت الأسلحة بينهم، التقط (رائد) مسدساً صغيراً وأخذ يتفحصه وهو يتمتم: أظنني سألقي به ما إنْ أفجر به أول رصاصة، إنني لا أحتمل صوته، ثم علق في حزامه سيفاً اختاره شبيهاً بسيف (الكلاييج) الذي أعطاه إياه (حارث) مِن قبل، ثم لفتت انتباه على الطاولة قنبلة يدوية الصنع، التقطها يتفحصها، وإذ بـ(لانسلوت) يقول: دعها، إنَّها تالفة، أتود أنْ أعطيك غيرها؟

قلبها (رائد) بين كفيه وقال: لا بأس، سآخذها معي، أشعر بأنَّها ستكون مفيدة لي.

اكتفى (حارث) بسيف وخنجر، بينما تسلح البقية ببنادق.

تحدث (لانسلوت): ستتوزعون ثلاثتكم على بقية المواقع، ولنبدأ أولاً بمصنع الدبابات، وبعد أنْ تفجروه؛ سُيفتح الطريق أمامكم للبقية، تذكروا... أنتم تعرفون جيداً الطرقات وأماكن الاختباء، وتذكروا أنَّكم قادرون على تغيير تحركاتهم، وفِعل ما هو أصح حال دراستكم للوضع؛ أما مركز الأبحاث وهو الأبعد سيكون مِن نصيبي، وأنت يا (رائد) ستتجه إلى البوابات.

سأل (رائد): ولكن قبل ذلك، أين هو مكان كنيسة القيامة؟
أجابته (فان): لا وجود لها.
أردف (لانسلوت): بل موجوة، ولها أثر باقٍ أعرف مكانه جيداً، ليست بعيدة كثيراً عن السجن.
صفق (رائد) بكفيه، وقال: جيد، مِن هنالك أستطيع أنْ أنطلق؛ إذ إنَّ مركز البوابات يقع على خطها نفسه.
خرجوا جميعاً، ووقفوا بحذر يستطلعون مجرى الأمور بالخارج، ثم قالت (فان): سنلتقي بعد يومين أو ثلاثة أو أسبوع أو شهر، لن نخرج مِن هنا إلا بعد أنْ نشعلها (هولوكوست) لأسلحتهم المدمرة، ثم استدارت وتبعها (ستييف) نحو الجهة الجنوبية؛ أما (حارث) الذي كان مِن المقرر له أنْ يذهب معهما بقي واقفاً ينظر إلى (رائد) في صمت للحظات، وأخيراً أمسك بكتفه مبتسماً وقال: أعلم إلى أين ستتجه الآن؟ لكن افعل ذلك سريعاً، ولا تتأخر في فتح البوابات، سأكون بانتظاركما سالمين.
أمسك (رائد) بكفه الموضوعة على كتفه وربت عليها وهو يقول: أكيد سلنتقي -بإذن الله-، ثم ضغط على كفه والتمعت في عينيه نظرة قلقة وهو يتم: ولكن في حالة إنْ لم أعد...
قطب (حارث) حاجبيه مستنكراً، فأتبع (رائد) وهو يبتسم بمرارة: (مارغريت) ستبقى تلميذتك دوماً.
ابتسم (حارث) بسخرية، وضرب على كتفه قبل أنْ يستدير وهو يقول: آسف! لا يمكنني أنْ أحفظ وصيتك وأعمل بها، لقد أصبحت هرماً كما تقول؛ لذا يجب عليك أنْ تبقى؛ لتعود معها.

ثم سار؛ ليلحق بـ(فان) و(ستييف)، ولكنه ما إنْ ابتعد عنه بمسافة خمس خطوات فقط حتى توقف فجأة وقال: أنت خاطفها؛ لذا لا يهمني أنْ تبقى معلقاً في الزمن أو غيره، لا يهمني أنْ تكون وهماً أو حتى قادماً مِن المريخ، عليك أنْ تكمل ما بدأته فقط، وإلا فإنَّني سأضربك كما كنت أفعل دوماً، ثم تابع طريقه بينما ندت مِن (رائد) بسمة مضطربة، وهو يتمتم باسمه.

اتجه (فان) و(ستييف) و(حارث) نحو الجنوب، واتجه (رائد) مع (لانسلوت) نحو الشمال؛ حيث يقع السجن الذي يحتضن بسرية مركز الأبحاث الحية.

كانت المدينة كلها قد تحولت إلى ساحات قتال، وحرائق الانتقام تنتشر بسرعة كبيرة في بيوت الحاخامات اللذين أيدوا الفصل ذات مرة.

وصلت مجموعة (فان) إلى مصنع الدبابات في منتصف الليل، لكن مع هذا كان المكان يعج بالجنود؛ لذا اضطروا للبقاء لساعات مراقبين فقط، حتى يخف عددهم أو تصل مجموعة من الثوار إلى هنا، بينما كان (رائد) و (لانسلوت) يقفان أمام ذلك السجن الذين كان قد خوى على عروشه إلا قليلاً من الحراس؛ لأنَّ الأوامر صدرت بتوجههم لإخماد ثورة أبناء السفارديم.

وقف (رائد) يراقب وضع السجن مِن بعيد، ثم اقترب مِن (لانسلوت) الذي كان يُجهز قنابله وسأل: هل ترى الوضع؟ ما زال هنالك مجموعة مِن الجنود، ومَن يدري، ربما يوجد في الداخل كثير منهم، كيف سندخل؟

وحينما لم يتلقَّ جواباً مِن ذاك المشغول بقنابله، صمت لدقائق مفكراً ثم قال: هل تعتقد أنْ نجدَ بوابة ترشدنا فوراً نحو المركز نستطيع مِن خلالها أنْ ندخل؟

أمسك (لانسلوت) قنبلة بكفه وعلّق بتهكم: ندخل؟! أنت تتحدث معي وتقول: ندخل!

(لانسلوت) يا عزيزي لا يدخل إلى مكان مِن بابه؛ بل يقتحمه مِن الخلف اقتحاماً، سنفجّر بوابته الخلفية، وهكذا سنضمن بقاء السجناء، وحتى لا يصل أيضاً الثوار إلى هنا؛ فتحدُث مذبحة لا نريد حدوثها.

اندهش (رائد) للحظة، ثم لانت ملامحه عن بسمة رضى وهو يقول بامتنان: سيد (لانسلوت)، أنا لم أشكرك على قنابلك في (دومدري)، شكراً لك!

بادله الابتسام ثم قال: لنلتف إلى الخلف الآن.

انطلقا سريعاً نحو البوابات الخلفية، فوجداها خاوية على عروشها هي الأخرى، مانحة إياهما فرصة تفجيرها بكل سهولة.

اندفع (لانسلوت)؛ ليرمي بقنبلته، لكنَّ (رائدا) أوقفه قائلاً: مهلاً، إنْ فعلنا ذلك؛ سنحدِث ضجة وسيجتمعون هنا حتماً.

بثقة أجابه: وهذا ما نريده، ثم قذف بقنبلته اليدوية، وألحقها بثلاث أخرى ألحقت البوابات ضرراً بليغاً، وأسقطت جزءاً ليس صغيرا مِن الجدار، اهتزت معه أركان سَكَنِ الجنود ومركزِ السجناء، وبسرعة هائلة بدأ الجنود يحتشدون عند البوابة الخلفية؛ ليستطلعو الخبر؛ لذا خوى سكنهم منهم، عدا (مارغريت) التي كانت ما تزال مقيّدة على كرسيٍّ في إحدى

الغرف، لقد مضى يومان عليها لم يدخل جوفها شيء ولم ترشف سوى رشفات مِن الماء، كانت في حالة تامة من غياب الوعي؛ إذ كانت روحها كالمعلقة، لا تشعر بأي أحد حولها، لا تصرخ بوجع، ولا تتأوَّه بألم، ولسانها لم يقل إلا شيئاً واحداً: ألحقاني بهما سريعاً.

قرأت كلمات اللفافة مجبرة، وكانت تظن بأنَّهم سيقتلونها بعدها، لكنهم لم يفعلوا.

صوت دوي الانفجار جعلها تفيق قليلاً وتدرك اضطراب الوضع في الخارج، التقطت أذناها أحاديث الجنود المختلطة التي دبت مرة واحدة، ثم بدأت تخف وتختفي تدريجياً؛ أما رائحة الدخان فقد بدأت تتسلل إلى رئتيها دافعةً إياها للسعال بشدة.

تلفتت حولها، ما مِن أحد، وقد بدا المكان لها خاوياً، وفجأة، اقتحم الغرفة (أخميل) وانتشر الدخان في الغرفة، وبدون أيّ تعليق اتجه ناحيتها فوراً وحرر يديها وقدميها وسط دهشة منها واستغراب.

دفعها للوقوف سريعاً، لكنّ ساقيها كانتا مخدرتين؛ فهوت على الأرض سريعاً، أسندها وهو يقول: لقد تحركوا أخيراً، سيفجرون المركز بلا شك، لنهرب بسرعة مِن هنا قبل أنْ يصلنا الحريق.

اختزلت حاجبيها تعجباً وهي تسأل: ولكن، لمَ تنقذني؟!

ساعدها على النهوض وهو يجيب: ذلك الشاب الذكي، عقد معي صفقة وقد وعدت بأنِّي سأسلمك له.

تجمدت أطرافها للحظات، شعرت وكأنّ ماءً بارداً سكب على رأسها فجأة؛ فانتفض جسدها، ثم لان وجهها عن بسمة منشرحة وهي تسأل: ذلك الأحمق حي؟!

أومأ برأسه مؤكداً بـ: نعم.

زفرت بارتياح، وشعرت معها بأنَّ الدم ينتشر في أطرافها بسرعة، والحياة تدبُّ في جسدها مجدداً؛ فاستعادت طاقتها ووقفت بنشاط رغم إعيائها، وخرجت معه راكضة.

كان الممر خالياً، لكنَّ الدخان كان ينتشر بسرعة كبيرة ويزيد مِن اختناقهما، عبراً غرفا عدة، ثم توقفت (مارغريت) فجأة وكأنَّها قد تذكرت شيئاً للتو وصرخت: الساعة! ثم نظرت إليه مستفهمة: سيد (أخميل)، أين ساعة الزمن؟

أدخل يده في جيبه بحثاً عنها لكنه ارتبك حينما لم يجدها وقال: لقد نسيت، لقد تركتها في مركز الأبحاث.

شحب وجهها وتجمدت في مكانها، ثم تحركت شفتاها باضطراب ونطقت: ما الذي تقوله؟! هل أنت جاد؟ بدونها لن يعود (رائد) إلى عصره؟

استدارت نصف استدارة وكأنَّها تهم بالعودة؛ لذا نهرها بقوله: توقفي! لا يمكننا الرجوع الآن، الدخان ينتشر في المكان بسرعة، ستختنقين قبل أنْ تصلي إلى المركز، وحتى لو وصلت إليه، فإنَّه سينفجر في أيِّ لحظةٍ مِن الآن.

توقفت كتمثال لا يمكن له أنْ يصور سوى مشهد الموت.

زاغت عيناها في الدخان الأسود الذي كاد أنْ يلتهمهما، شعرت وكأنَّها قد وقعت داخل دوامة تصارعها فيها التناقضات والرغبات، فإنْ ترغب بشيء والواجب يملي عليك ضده، لهو إحساس مربك حدَّ التيه، وكل خيار منهما يحمل معه طعماً يشبه الموت!

إنْ تفجَّر المركز بالساعة الزمنية، فهذا يعني بقاء (رائد) معي إلى الأبد، هذا ما تريدينه (مارغريت) ورغبت به! وإنْ استرجعتها، فهذا يعني فراقه عاجلاً أم آجلاً وهذا ما لا أريده!

أغمضت عينيها وأخذت نفساً عميقاً، ثم أدارت يدها خلف ظهرها ونزعت الشريط الأبيض الذي ربطه لها (غيث)؛ فانساب شعرها خلف ظهرها.

لفَّت الشريط حول فمها وأنفها، ونظرت إلى (أخميل)؛ لتعلن عن قرارها بلا تردد، بعد أنْ رفضت ذاك التيه قائلةً: لقد أديتَ واجبك، فشكراً لك سيدي!

ثم اندفعت عائدة أدراجها تشق طريقها بين الدخان والنيران.

حاول أنْ يلحق بها؛ ليوقفها... لكن الأدخنة الكثيفة حالت مِن رؤيته، وخنقت أنفاسه؛ فأجبرته على التقدم دونها.

أثناء ذلك كان (رائد) و(لانسلوت) قد انفصلا؛ حيث اتجه (لانسلوت) إلى المركز؛ كي يفجره، واتجه (رائد) إلى مساكن الجند التي كانت تستعر فيها النيران التي أشعلها الثوار غضباً وانتقاماً لمذبحة القناة.

كان المكان يعج بالفوضى، فالهاربون مِن النيران كثر والعالقون أيضاً كثر.

وأثناء ما كان (أخميل) يشق طريقه نحو الخروج، اصطدم فجأة بـ(رائد) الذي عرفه سريعاً، ولكن ما إنْ أدرك (رائد) إنَّه وحده حتى نظر إليه بعينين تدوران بفزع وهو يسأل: أين هي؟! لماذا ليست معك؟!
لم ينتظر منه جواباً، فعيناه الجاحظتان أجابتاه، فغر فمه بخيبة، ثم قفز سريعاً؛ ليتابع طريقه نحو النيران، لكن الآخر أوقفه بقوله: لقد عادت إلى مركز الأبحاث الحية.
ما إنْ سمع ذلك حتى استدار نحوه بهلع، ولم يُمنح ثانية واحدة ليستوعب حتى كان دويٌّ انفجار المركز قد صم الآذان...
تجمد في مكانه، وغابت العينان، واستحالتا إلى بياض فجأة.
كل الأصوات حوله قد خَبَت، ولا شيء سوى ذكريات تعبره سريعاً، في لحظة أضحى فيها السؤال حاداً كسكين يطعنه... هل تبددت سحابته؟ هل تبعثرت؟
هوى على ركبتيه بوهن وما تزال العينان غائبتين وسط شريط مِن الأحداث يسبقه، يعبره الندم، يدميه اللوم، تقتله ألـ (لَوْ)، مشاعر متناقضة تتراقص أمامه في غير انتظام، تستفز غضبه، تستحضر دموعه، تستجلب البكاء لكن دون صوت أو دموع، حتى دوت مِن فيه صرخةٌ لم يتمكن مِن سماعها، انهار برأسه على الأرض، يضربه بكفيه وهو يرتعش قائلا:
(لا يمكن...!)
وهو على هذه الحال وصله صوتٌ يقول: وكأنَّ الوقت يسمح أنْ تعانق الأرض الآن! رفع رأسه ببطء وما إنْ استوعب أنَّه صوت (لانسلوت)

حتى انفجر الدم في عروقه، همَّ بأنْ يستدير نحوه، ويجذبه مِن ياقة قميصه ويضربه بكلتا يديه، ويصرخ في وجهه بأنَّ سحابته قد تبددت في الفناء، لكنه ما إنْ استدار حتى جحظت عيناه غير مصدقتين ما تريانه؛ إذ كانت (مارغريت) تستند إلى كتف (لانسلوت) بثوبها الممزق، وشعرها المعفر بالتراب، ووجهها الملطخ بالرماد والدماء، وشفتيها الداميتين، وذاك الشريط الأبيض يحيط برقبتها.
ابتسمت بثقل ومدت يدها التي تحمل ساعة الزمن وبصوت يتلاشى مع أنفاسها المتقطعة قالت: ساعتك الزمنية (رائد)، ثم تهاوت؛ فعاد (لانسلوت) ليسندها؛ أما رائد الذي كان ما يزال ينظر إليها بعينين شاخصتين، شعر أنَّ رؤيته أصبحت ضبابية، وبدمعة انسلت هاربة نحو شفتيه، صرخ (لانسلوت) وهو يساعدها على النهوض:(راد)،لا شيء يوقفك الآن، انطلق نحو هدفك، افتح الطريق؛ للانتصار الكبير قبل أنْ يستجمعوا قواهم، بسرعة، تحرك!
أطبق فمه مشيراً بنعم، ثم مسح عينيه، وأطلق ساقيه للريح متجهاً إلى البرج المركزي لكلِّ البوابات، والذي يقع على امتداد كنيسة القيامة.
وصل لأذنيه صوت الانفجارات المتكررة، وهو ما يزال يركض متابعاً طريقه، وما إنْ أصبحت سارية البرج على مرأى بصره حتى توقف يستطلع الوضع مِن مسافة ليست ببعيدة. بجوار البرج وقفت مجموعة ليست بالقليلة مسلحة، وأحدهم كان يحمل بازوكا، ما إنْ وقعت عينا (رائد) عليه حتى ابتسم وهو يدخل يده في جيبه؛ ليخرج القنبلة التالفة ويقول: لنرَ إنْ كان (ليو) محقاً بأنَّ الذي يحمل أسلحة أكثر هو الأكثر

جبناً، ثم شرع في عدهم وابتسامته تزداد اتساعاً، أليس مِن الغريب إنَّني حينما كنت موشكاً على الموت كنتُ خائفاً ورغبتي بالحياة ازدادت؛ أمّا وأنا أهم بإلقاء نفسي للموت ابتسم بثقة، أهذا هو الفارق بين الرغبة والرهبة؟

أخذ نفساً عميقاً، وصوت (حارث) يُقذف مِن ذاكرته وهو يقول: إنَّها غريزة البقاء!

وصوته وهو يقول: بتُّ أؤمن بأنَّ بعض الأشياء لا تُؤخَذ إلا بالقوة.

اتبسم وهو يحدث أعماقه: نعم، هو ذا، ابتسم؛ لأنَّ هذا خياري الآن، ثم اندفع نحوهم فجأة، رافعاً القنبلة بإحدى ذراعيه، وما إنْ استوعبوا وجوده وصوبوا أسلحتهم نحوه حتى كانت القنبلة تحلق عالياً وتسقط إلى جوارهم؛ فاندفع نصفهم أو يزيد هاربا، وكان أول الهاربين صاحب البازوكا كما توقع، بينما وقف بعضهم جامدين في أماكنهم بانتظار الانفجار؛ أما هو فقد أشهر سيفه واندفع مهاجماً إياهم مستغلاً ارتباكهم، ومع أنَّ بعضهم قد استلَّ سلاحه سريعاً وأطلق الرصاص، إلا إنَّ رصاصتهم كانت طائشة، و(رائد) يندفع نحوهم مواجهاً إياهم بسيفه، ولولهة شعر وكأن (بتّال) و(باتر) يقفان ينظران إليه؛ فصغرت تلك الأعداد أمامه، فواصل تقدمه نحوهم وضربهم بسيفه، شعر بأنَّ جميع رفاقه: (لانسلوت، و ستييف، و فان، و حارث، و مارغريت) يركضون معه وإلى جانبه، يضربون معه بسيفه؛ فَهَانَ عليه ألم الرصاصة التي عبرت كتفه محدثةً جرحاً عميقاً.

التحم بهم وأسقط منهم عدداً ليس بالقليل، ثم استطاع أنْ يصل إلى بوابة البرج، ولم يَهَب نفسه وقتاً ليلتقط أنفاسه، فصعد درجات السلم يسابق خطواته يدفع بأمنياته لتسبقه، أمنيات لعالَم يخلو مِن الحروب، يخلو مِن روح الإمبراطوريات، ويرى أنَّ جميع البشر أبناء لآدم وحواء.

وإلى حيث شاشات الحواسيب العملاقة، وقف يستدعي مِن الذاكرة صورة ذلك المخطط، وشرع بالضغط على أزرار الحاسوب وكأنَّه يعزف إيقاعاً علمه إياه عازف المزمار.

لم يقف الجنود في أماكنهم؛ بل صعدوا يلحقونه، ولكنهم أجبروا على الوقوف حينما دوى صوت انفجار قريب منهم جعل الأرض تهتز مِن تحتهم، وتزامن ذلك مع ضغطته الأخيرة للأمر: (افتح)، ثم سقط على الأرض هو الآخر مِن أثر الانفجار.

فُتحت كل البوابات مِن كلِّ اتجاه، واندفعت الجيوش محدثة ثورة كثورة بركان فيزوف عام ٧٩م.*

اعتدل (رائد)، ثم سحب سيفه واندفع هو الآخر؛ لينضم إليهم.

---

*بركان فيزوف: اشتهر هذا البركان بثورانه سنة ٧٩ م، و الذي أدى إلى تدمير و دفن المدن الرومانية: بومباي، و هركولانيوم، وعدة مستوطنات أخرى، صحبه تشققات وأصوات وهزات أرضية خفيفة ضربت جنوب إيطاليا. حاول العديد مِن سكان المدينة الفرار في قوارب بحرية، لكنَّ الغازات والرماد والطفوح البركانية غطتهم جميعاً، وسببت اختناقهم، وطمروا تحت الرماد هم ومدينتهم.

الفصل العاشر : احتـــــــــواء.

يبقى الحب آيلاً للفناء ما لم يأوِه الاحتواء

فتح عينيه ببطء شديد، حدَّق بالسقف للحظات قبل أنْ يستوعب أنَّه ينام على سرير، نهض بذعر ودارت عيناه؛ لتتفحصا المكان باستغراب، التفت ناحية الباب وإذ به يجد إلى جانبه امرأة محجبة قد أوقعت بوعاء الماء، شاخصة عيناها بذهول، طرفت عيناه بتتابع، وأخذ يضغط على جبينه، وتمتم قائلاً: لا شك أنَّني أحلم، هل عدت إلى بغداد؟

هتفت المرأة بصوت مبتهج وعال: أخيراً، لقد استيقظ (رائد)!

أزاح بكفه وقال: عروب، هذه أنتِ؟ أنا لا أحلم حقاً! لكن كيف؟!

هزت رأسها نافية وقد التمعت دمعة في عينيها، ثم استدارت هاتفة بصوت أعلى مِن ذي قبل: لقد استيقظ (راااائد)، ألا تسمعوا؟

وصلته أصوات تعبيرات الفرح التي أطلقوها قبل أنْ يتدافعوا نحو الباب، أصوات عرفها وأحبها كثيراً.

كان أول القادمين نحوه(بتّال)، قفز على السرير وجذبه إليه معانقاً، ومع أنَّ (رائدا) أطلق صرخة توجُّع عندما ضغط (بتال) على كتفيه، إلا أنَّه تجاهل ذلك وعانقه أكثر وهو يقول: يا لك مِن أحمق! لقد استغرقتَ أربعة أيام لتفيق، لقد عشنا أياماً مرعبة، أتفهم هذا؟

لكنّ (رائدا) ظل فاغراً فمه غير مصدق ثم نطق: (بتّال)! هل هذا حلم جميل؟ إنْ كان كذلك أتمنى أنْ أظلَّ نائماً، ثم رفع ذراعيه وطوّق ظهره، ثم ارتخت ملامحه وشد عليه معانقاً.

كان يقف حول السرير: (باتر، و حارث، و لانسلوت، و فان، و ستييف، و عروب، و كنان). تأملهم للحظات وأخذ ينتقل بعينيه بينهم يفغر فاه بدهشة ثم قال: الجميع هنا، معقول!

ثم ضاقت عيناه قليلاً وهو ينظر إلى (حارث)؛ ففهمه سريعاً، وأجاب: لا تقلق، الجميع بخير حقاًّ، إنَّها بالغرفة المجاورة.

ضربه (بتّال) على رأسه وقال: كنتُ عند البوابة التي تقع عند البرج الذي كنتَ فيه، الحمد لله أنك لم تسقط ميتاً مع أنَّك كنت مُثخَناً بالجروح، ومع أنِّي اندفعت نحوك وحدثتك وساعدتك على النهوض إلا أنَّك لم تكن تستوعب شيئاً حينها، ثم فقدت وعيك، لقد قاتلتَ بضراوة حقاًّ، إنَّني فخورٌ بك!

ابتسم (رائد) خافضاً عينيه بخجل، شعر بعينيه تدمعان، ومع ذلك نظر إلى (بتال) وقال: (بتّال)، أنا أحبك حقاًّ!

وجم وجهه للحظة لم يستوعب تبدل ملامح (رائد) المفاجئ، وتلك التعابير التي عبر خلالها عن مشاعره فجأة؛ لذا طرفت عيناه بتتابع قبل أنْ يطلق صوتاً ينمُّ عن السخرية، ثم ضحك وهو يقول: لا شك إنَّك ما زلتَ فاقداً لوعيك!

لكنه لم يعر سخريته أيّ بال، والتفت إلى (باتر) الذي بادره بقوله: آسف رائد! أنا مدينٌ لك باعتذار، قبل كل شيء أرجو أنْ تتقبل عذري، هزَّ رأسه نافياً وهو يقول: لم أشعر بذلك أبدا، لقد عَمِلنا معاً في النهاية، وهذا شرفٌ لي، ثم التفت إلى (كنان) فعاجله قائلاً: مرحباً صديقي صاحب الإيمان بالفكرة، ضحك (رائد) قائلاً: (كنان)، يا لك مِن غريب! أما زلتَ

تذكرها؟ أنا لم ألقِ لها بالاً حينها، رفع حاجبيه وقال: وكيف لي أنْ أنساها؟ كلماتك تلك التي لم تلقِ لها بالاً قد غيّرتني كثيراً، وهذه هي النتيجة، أنا هنا؛ لأنَّني آمنتُ بفكرتي.

ابتسم (رائد) بخجل، ثم التفت إلى (حارث) وقال: (ليونهارد)، ثم صمت وهو يبتسم ثم أتبع: (حارث)، لقد عدت.

أومأ له مبتسماً برضى، ثم أشاح بعينيه عنه؛ إذ شعر بدموعه وهي تحاول التمرُّد، أدرك (رائد) ذلك؛ فالتفت ناحية (لانسلوت) وقال: أشكرك؛ لأنك أنقذت (مارغريت).

وضع يده على صدره تعبيراً عن القيام بالواجب، فالتفت (رائد) إلى (فان)؛ ليشكرها، ولكن ما إنْ رآها تنظر إليه متطلعة حتى عادت إليه طبيعته ورغبته في استفزازها، فقال: أودُّ أنْ أشكرك كثيراً، مع أنَّي كلما رأيتك شعرت بألمٍ في كتفي.

رفعت حاجبيها بازدراء، فضحك بخفة وأتبع: لكن ذلك الألم منحني أملاً؛ لذلك شكراً لك قائدة (فان).

ثم التفت لـ(ستييف) وقال: شكراً لك. لا يمكنني أنْ أنسى صنيعك، لقد كنا حِلفاً غريباً حقاً، ولكننا استطعنا أنْ ننجز الكثير، أشكرك.

تحدث (بتّال) معلقاً: ما يزال أمامنا الكثير، ينبغي علينا إصلاح فوضى كبيرة حقاً؛ لذا سنمكث هنا لأشهر، ثم نظر إليهم جميعاً وقال: لنخرج الآن ونتركه يستريح، ثم ربت على كتفه وقال: أسرع واستجمع قواك، ثم خرج الجميع عدا (عروبا) بقيت واقفة في مكانها، نظر إليها باستغراب،

وما إنْ همَّ؛ ليفتح فمه، حتى قالت هي: وأخيراً رأيتُ تلك السحابة التي كنتَ تهذي باسمها في بغداد.

عبس وجهه وقال بارتباك: حسناً، لا تخبريها بذلك!

انتفخ فمها بضحكة ساخرة حاولت إخفاءها لكنَّها لم تستطع، ظلَّ ينظر إليها باستغراب ثم قال: دعكِ مِن هذا الآن وأخبريني ماذا عنكِ؟ لمَ أنت هنا؟ لقد وعدني والي بغداد بتحرير..

قاطعته بملامح مندهشة: بربك، كيف طرأ على ذهنك ذلك الشرط المجنون؟! كيف غامرت بحياتك من أجله؟! إنَّك مجنون حقاً!

ابتسم برقة ثم رفع عينيه إلى السقف محدقاً وهو يقول: مِن المؤسف حقاً أنْ تقولي أنت هذا!

رفعت حاجبيها مستفهمة فأتبع: ألم أعدك بأنَّني سأفعل ذلك؟ لو لم أشعر بأجنحة حريتك أولاً لمَا أقدمت على ذلك.

وجم وجهها للحظة، لقد كان جوابه صدمة لها وهي التي لم تتصور للحظة بأنَّها السبب في ذلك فعلاً، تطلع إليها وهو يسأل: لماذا صمتِ فجأة وكأنك أصبحت صنماً؟!

هزت رأسها بحرج وهي تجيب: أنا فقط لم أتوقع، لقد صدمني ذلك!

ثم رفعت عينيها إليه وقالت: ولكن تبقى مجنوناً حقاً.

ابتسم موافقاً وهو يعلق: الحياة تحتاج للمخاطرة، والمخاطرة تحتاج لبعض الجنون، ألست محقاً؟

أومأت موافقة وقالت: مع أنَّي نلت حريتي، إلا إنَّ (بتّال) أسرني مجدداً؛ لذا أتيت برفقته.

قطب حاجبيه وسأل: ما الذي تقصدينه؟
ابتسمت بخجل، فغر فمه مندهشاً للحظات قبل أنْ يستوعب، ثم ضحك وهو يعلق: هل يعني ذلك بأنَّك أصبحتِ....يعني هو... أعني... لقد تزوجتما؟
صمت للحظة ثم أطلق صوتاً ينم عن البهجة والسخرية في الوقت ذاته وهو يقول: مَن كان ليتصور ذلك؟!
ثم التفت إليها وقال: مبارك لكما إذن!
ثم انخرط في الضحك قليلاً، ونزل عن السرير، لكنه كان يعرج قليلاً في مشيته.
تقدم بضع خطوات ثم سأل: ماذا عن (بارع)، هل أتى معكم؟
هزت رأسها نافية وهي تتبعه ثم قالت: لكنه يدرس كل يوم بجد، هل تعلم أنَّه قد طلب مِن (بتّال) أنْ يحضرك معه، هل ستعود إلى بغداد؟
وصل إلى الباب، ثم استدار وهو يقول: لا أعلم، ربما، وربما لا، ثم نظر بحيرة؛ حيث كان الجميع يجلس في الصالة منخرطين في ضحكاتهم وحديثهم، تأملهم للحظات، كانوا يبدون وكأنَّهم يعرفون بعضهم منذ سنوات عديدة، وعلق متمتماً: بدأت أشك بأنَّني كنتُ غائباً عن الوعي لأربعة أيام فقط.
سبقته (عروب) ووقفت أمام أحد الأبواب وأشارت إليه وهي تقول: هنا، إنَّها في هذه الغرفة.
طرق الباب طرقتين ولم يصبر حتى يتلقى جواب (مارغريت) ففتحه سريعاً، وما إنْ أبصرته حتى أطبقت شفتيها صامتة غير مصدقة.

كانت تلبس فستاناً أبيض، وثمة آثار خدوش على جبينها وخدها، وآثار بعض الدماء متخثرة تحت شفتيها، اقترب منها وهو يبتسم باتساع، ظلا ينظران إلى بعضهما للحظات دون أيِّ كلمة، هو يبستم بشغف، وهي تنظر إليه بدهشة، وأخيراً وكما هو متوقع باغتها بضربة على جبينها واندفع بانفعال يقول: لماذا فعلتِ ذلك؟ لماذا عدت إلى المركز؟ ماذا لو متِ هناك؟ لماذا لا تفكرين جيداً؟ هل تعلمين كيف تجمدت أطرافي حينما علمتُ بأنَّك عدتِ إلى المركز؟

مسحت جبينها بتوجع ثم رفعت عينيها تنظر إليه بتذمر وتقول: ما الذي فعلته؟ أهكذا تقابلني؟! رأسي ما زال يؤلمني!

تراجع إلى الوراء قليلاً وهو يكتف ذراعيه رافعا أحد حاجبيه، ولكنها تجاهلته وقالت: اثبت في مكانك للحظة، أريد أنْ أنظر إليك، هل أنت بخير حقاً؟

وجم وجهه للحظة، ثم لان عن بسمة لا تخفي سعادته بهذا الشعور الذي غمر قلبه جراء كلماتها تلك، اقترب منها وفوجئت به يجلس على حافة السرير؛ فعدلت مِن جلستها بتوتر، ولكنها فوجئت به يمسك بمعصمها ثم يدير كفها وينظر في راحتها؛ فذهلت وحلت عاصفة ضربت أركان قلبها؛ فأخرستها، بينما كان هو يبتسم باتساع، وتحدث وهو ما يزال ينظر لراحة كفها ويقول: هذه كفك حقاً! لوهلة ظننتُ بأنَّي قد فقدتك عندما انفجر المركز، لقد أظلمت الدنيا بعيني وكرهتُ كلَّ شيء حينها، ولأول مرة أشعر برغبة عارمة في أنْ أضربك حقاً، ما كان عليك أنْ تفعلي ذلك.

ابتسمت بتوتر ثم سحبت يدها وأخذت تعبث بها بياقة ثوبها، ثم مسحت بها على جبينها وأحمّر خداها وهي تقول: لقد فعلت، ونلت مني.

انحدرا في صمت للحظات، كان خلالها كل منهما ينظر باتجاه، كلاهما حاول أنْ يبدو طبيعياً بلا جدوى، وكلاهما كان يحاول إخراس صوتا في أعماقه، كلاهما حاول أنْ يلتقط شيئاً؛ ليتحدث ويُخرس به الصوت الآخر في أعماقه، بيد أنَّ (مارغريت) فشلت في ذلك؛ وإذ بها تتحدث : هل تعلم؟ سأخبرك الصدق، لقد ترددت للحظة قبل أنْ أعود وألتقط الساعة.. لقد فكرت...

صمتت قليلاً مترددة حينما نظر في عينيها، ثم ابتسم لها يحثها على المتابعة؛ لذا ابتلعت ريقها وقالت: الحقيقة، لقد أردت تركها تنفجر مع المكان حتى في اللحظة التي وصلتُ فيها إلى المركز وقابلت (لانسلوت) وأمسكتها بيدي، كانت فكرة أنْ أدعها تنفجر تتملكني بقوة.

انحنت زاويتا فمه مشكلتين بسمة مريرة أثارت حيرتها؛ وإذ به يزيد مِن حيرتها حينما صدمها بردِّه: ولماذا لم تفعلي؟ لماذا لم تتركيها في مكانها لتنفجر؟

فغرت فمها للحظة، ثم أشاحت بعينيها وهي تبتسم بتوتر وتقول: وهل كنتَ ستغفر لي لو فعلت؟! أنا لست حمقاء إلى هذا الحد، لست أنا.....نية..

صمتت دون أنْ تكمل، لقد أُرهقت لحدِّ الوجع، فلم تعد تستطيع أنْ تنطق بما يخالف ما تفكر فيه، لقد ملَّت مِن لعبة إخفاء المشاعر هذه، تمنت

للحظة لو تصرخ في وجهه وتخبره بكل شيء كما فعلت في منزل (جياد).
صمت (رائد) للحظات حائراً هو الآخر، كانت تراوده الأفكار ذاتها، والإرهاق ذاته، والوجع ذاته، كتَّف ذراعيه وقال بلهجة ممتنة دون أنْ ينظر إليها: إنني ممتن لكِ؛ لأنك تبعتني إلى كل هذا الحدّ دون أنْ تشعري بالتردد! لا أعلم إلى أيِّ حدٍّ أنا ممتن لكِ حقاً.
أشاحت بوجهها إلى الجهة الأخرى؛ لتخفي حمرة الخجل التي كست ملامحها وردت بتوتر: ما الذي تتحدث عنه الآن؟! ليس هناك داع لأنْ تشكرني، أنت لا تتصرف على طبيعتك ما الذي أصابك اليوم؟ يبدو أنَّك تلقيت ضربة على رأسك مجدداً.
ابتسم وهو يحرك رأسه ويقول: حقاً، إنني لست على طبيعتي منذ أنْ رأيت وجهك المغطى بالدم والملطخ بالرماد، وأنت تمدين لي ساعة الزمن، وجهك ذاك، لا يمكنني نسيانه، ويدك تلك لا يمكنني أنْ أتركها بعد اليوم.
فغرت فمها وهي تهم بسؤاله عما يعنيه حديثه، ولكنها أطبقت شفتيها عن لا شيء، ودارت عيناها في كلِّ الاتجاهات باضطراب واضح؛ أما هو فقد وقف معتدلاً وقال: لقد سألتني إنْ كنت سأغفر لكِ لو تركتها تنفجر؟
صمت للحظات حاول خلالها أنْ يخفي بسمة الخجل التي برزت على شفتيه رغماً عنه، ثم أخذ نفساً عميقاً قبل أنْ يتم: ماذا إنْ قلتُ لك: بأنَّ هذه هي رغبتي؟ ماذا إنْ قلت لك: بأنَّني أريد أنْ أبقى عالقاً في الزمن مِن أجلك؟

ذُهلت للحظة، شعرت خلالها بأنَّ قلبها قد توقف عن النبض؛ لذا أخذت نفساً عميقاً قبل أنْ تنظر إليه بحدة وتقول: توقف عن المزاح معي! هل تفهم ما يعنيه أنْ تبقى عالقاً هكذا؟

هذا يعني بأنَّك ستبقى بلا ماضٍ ولا مستقبل! لن يستطيع أيّ إنسان أنْ يعيش هكذا.

كتف ذراعيه وابتسم وهو يجيبها: ما الذي يعنيه الماضي؟ وما الذي يعنيه المستقبل؟

رفعت حاجبيها باستنكار؛ لذا أتبع: إنَّني أسألك ما الذي يعينه؟ الماضي يشكل حاضر الإنسان وقد لا يشكله، ولكنه في النهاية هو شيء لا ينفك عنه، وشيء لا يمكن استرداده؛ أما المستقبل فإنه شيء لا يمكنك أنْ تثق بقدومه، الشيء الوحيد الذي يمكنك أنْ تثق به هو الحاضر فقط.

فرد ذراعيه وأتبع: (رائد) الواقف أمامك الآن لا يعترف بكلِّ هذه الأمور، ولا يريد إلا شيئاً واحداً.

باهتمام نظرت إليه مصغية، فأتم: كنتُ دوماً أقول: إنَّك سحابتي، أنا الآن أريد أنْ أكون السماء التي تحتويك (سحاب).

تجمد كلُّ شيء في وجهها عدا الدمعة التي تعلقت بأطراف جفنيها، تابع (رائد) بانفعال وقال: ماض.. حاضر.. مستقبل.. كل ذلك لا يعنيني!

حينما اصطدمت بكِ في (دمودري) كان هذا قدراً، وهذا فقط ما يعنيني.

صمت للحظة؛ ليخفف مِن حدة اندفاعه، ثم أتبع بصوت أكثر هدوءاً واتزاناً: إنَّني لستُ قادراً على الكتمان بعد اليوم، لن أفعل هذا مرة أخرى، وعليك ألا تحاولي إيقافي، فلا أعلم متى سأحصل على مثل هذه

الشجاعة الآن، أنتِ كذلك، لست مضطرة لإخفاء مشاعرك، أنا أحبك وأنت تعلمين هذا، وأعلم بأنَّك تحبيني بعمق؛ لذا أعتقد بأنَّه الوقت المناسب الآن؛ لأطلب منك أنْ نجعل الكذبة حقيقة، أعني لنتزوج (سحاب) ونبقى هنا سوياً، أو لنذهب إلى (بغداد)، أو حتى لـ (دومدري)؛ حيث التقينا، أي مكان ستختارينه سأذهب إليه معك.

انتفضت فجأة وكأنَّها أصيبت بلسعة حشرة؛ فضمت ذراعيها وتمتمت بصوت مسموع: تقول كل ذلك دفعة واحدة!

رفعت سبابتها مشيرة نحو الباب لتنطق بعد عناء: اخرج.

باستنكار رفع حاجبيه وهو يكرر: اخرج! هل قلتِ اخرج الآن؟! هل يعني هذا بأنَّك تطردينـ...

حسرت عينيها بكفها وقاطعته بانفعال: حالاً ..! فوراً..! الآن..!

طرفت عيناه للحظة؛ ليستوعب الموقف، ثم مطَّ شفتيه متذمراً، ثم استدار دون أي تعليق، وما إنْ أمسك بمقبض الباب حتى قال دون أنْ يستدير: ربما لم أقلها قولا لائقاً وصحيحاً؛ لذا سأكررها مجدداً، أنا أحبك وأريد أنْ أكون..

شعر بشيء يرتطم برأسه، فنطق: (ز-و- جك) متقطعة.. استدار خلفه؛ وإذ به يجد الوسادة التي قذفته بها ملقاة على الأرض بجانب قدميه.

-أنا أيضاً.

مع أنَّها قالتها بصوت منخفض، إلا أنَّه تمكن مِن سماعها؛ لذا عرج بعينيه نحوها ببطء غير مصدق، كان وجهها محمراً، فسأل ببطء لا يخلو مِن الشغف: أنتِ... ماذا؟!

لكن الباب الذي فُتح عنوة أخرسهما ووضع حداً لتطلعاتهما؛ إذ ظهر مِن خلفه (حارث) بملامح لا تخفي قلقها وسأل: ما الذي حدث؟ سمعت صراخ مـــ..

قطع كلامه بعد أنْ وقعت عيناه على وجهها المحمر؛ فأشاحت به سريعاً إلى الجهة الأخرى.

رمق (رائدا) بنظرات مرتابة وهو يغلق الباب بقدمه، فعلق (رائد) بحرج: لمَ تنظر نحوي بريبة هكذا؟

ثم زم شفتيه في تذمر واضح.

-ما الذي فعلته؟ هل (مارغريت) تبكي؟ هل جعلتها تبكي؟ اعترف.

أمسك بمقبض الباب مجدداً وأجابه ببرود: لقد فعلت فقط ما أخبرتني به، ألم تقل إنَّه علي أنْ أكمل ما بدأته؟

ثم خفض صوته متمتماً: لقد أخبرتها فقط أنّي أحبها، وأريد أنْ أتزوجها؛ فطردتنــ...

حينها كان قد قُذف مجدداً بوسادة أخرى، استدار سريعاً بغضب وهو يصرخ قائلاً: أنتِ! لكنه هدأ ما إنْ أبصر ملامحها الجادة وهي تنطق: أنا أيضاً!

لوهلة شعر بقلبه يخفق باضطراب منتظراً ما بعد " وأنا أيضاً"، بينما كان (حارث) يشاهدهما باستغراب، وأخيراً أفصحت عن قولها المرتقب وأتمت: أنا أيضاً أريد أنْ أخرج، ابتعد عن الباب.

فغر فمه ببلاهة وتراقص حاجباه، وقبل أنْ تمنحه فرصة للتعبير عن شعوره بالخيبة كانت قد قفزت عن السرير، وعبرت مِن جوراهما باندفاع؛ وإذ بها تتجه إلى دورة المياه.

علق (حارث) باستغراب: لقد ذهبت لدورة المياه!

أما (رائد) فقد نطق ببلاهة: آآآآآآه !

ثم عاد لينظر جهة السرير محاولاً أنْ يستوعب ما حدث، وما يشعر به في أعماقه مِن فوضى وخيبة واضطراب، عبس، ابتسم، قطب حاجبيه، وأخيراً أطلق صوتاً ينم عن السخرية ثم قال: لا أعلم لماذا أشعر بأنّي أصبحت، مثل: لعبة (ماريو) حينما يُضرب على رأسه، وتظهر شاشة سوداء مكتوب عليها: gime over.

انتفخ فم (حارث) بالضحك حتى انفجر، وترنح جسده؛ فاستند إلى الباب، ثم انزلق جالساً غارقاً في القهقهة، نظر إليه (رائد) بازدراء وهو يعلق: هل كانت هذه النكتة مضحكة إلى هذا الحد؟! هل تعرف (ماريو) أصلاً؟!

أجابه وهو ما يزال يضحك: لا، أبداً، ولكن لا شك أنَّه كان صاحب حظ سيء، عليك... عليك...

انخرط في القهقهة مجدداً، وبالكاد خرجت منه مفهومة (إعادة المحاولة راد).

كز رائد على أسنانه وهو يرمقه بامتعاض، ثم جمع كفيه وقال: تظن بأنَّها هربت مني هكذا!

ابتسم بسخرية وأتم: سأجعلها تدفع ثمن تجاهلها لي الآن، سأعرف كيف انتزع الموافقة منها انتزاعاً، نظر إلى (حارث) الذي كان ما يزال

يضحك وبدا أنَّه لم يسمعه، فانحنى وأخذ يدفعه؛ ليتزحزح عن الباب، ولكنه كان قد فقد قدرته على الحراك مِن شدة الضحك.

****

لم تحضر (مارغريت) لتناول طعام العشاء، وحينما سأل (رائد) عنها أجابته عروب: إنَّها متعبة، وتريد أنْ تتناول طعامها في غرفتها، فصمت دون أي تعليق، بينما رمقه (حارث) بنظرة لا تخفي سخريته، ولم يستطع أنْ يخفي ما يفكر به لدقيقة؛ لذا مال برأسه عليه وهو يتمتم بسخرية واضحة: لقد تجاهلتك طوال اليوم!

نصب (رائد) شوكته؛ لتشطر قطعة الخيار نصفين وهو يرد: وليس هذا وحسب؛ بل إنَّها تتحاشاني، وتسلك طريقاً مختلفاً كلما رأتني، وكأنني أصبحت فجأة شيطاناً، ثم ضرب بالشوكة الطبق وأتبع بانفعال: سأقبض عليها!

التفت الجميع ناحيته باستغراب، بدا أشد وضوحاً على(كنان) الذي سأل: ماذا سيد (رائد)؟ ألم يعجبك الطعام؟

التفت إليه (باتر) ليصعقهم جميعاً ببرده البارد: إنه يعاني من مشكلة عاطفية فقط، ليس من الضروري أنْ تعرف كل شيء (كنان).

انتفخ فم (حارث) بالضحك، وأشاح بوجهه إلى الجهة الأخرى، بينما كان (رائد) يحدق في باتر غير مصدق؛ أما (بتّال) فقد رمقه بسخرية وعلق إمعاناً في استفزازه: ما ذنب الطبق لتضربه هكذا؟ ليس هو مَن طردك وتجاهلك اليوم!

اتسعت حدقتا عيني (رائد)، ثم حدج (حارثاً) مطولاً، بينما ضربت (عروبُ) كفَّ (بتّال) وهي توبخه قائلة: توقف عن السخرية، إنَّك حقاً لا تصدق أنْ تجد شيئاً لتسخر منه، يكفيه أنَّها تجاهلته طوال النهار، عليك أنْ تراعي شعوره على الأقل.

كان (رائد) قد وصل إلى أقصى مراحل احتماله؛ لذ حينما التفتت إليه وجدته ينظر ناحيتها ويبتسم ببلاهة وهو يقول: مِن الواضح جداً بأنَّك حريصة على مشاعري!

تمايل (بتّال) إلى الخلف منفجراً بالضحك، وضربت (فان) على الطاولة وكأنَّها قد التقطت خيطاً وفهمت أخيراً ما يدور وعلقت لا تخفي استهزاءها: إذن، هذا ما حصل، تم طرد سليط اللسان، وهو هنا يضرب الطاولة، لطالما كنتُ انظر إلى تلك المرأة بإعجاب حقاً، ثم صمتت وهي تسند ذقنها بذراعها إمعاناً في السخرية وأتبعت: مِن الجميل رؤيتك مطروداً تتوعد بالقبض عليها! أتظن نفسك شرطياً؟

ثم انخرطت بالضحك. ابتلع (ستييف) اللقمة التي في فمه ثم علق بهدوء: أودُّ أنْ أفعل مثله مع أحدهم وأوسعه ضرباً، هل مِن الضروري أنْ أصبح شرطياً؟

أبعدت اللقمة عن فمها وسألت: مَن تقصد بهذا؟

رفع (حارث) يده وهو يقول: هل تحتاج مساعدة (ستييف)؟ سأساعدك.

انتقلت ببصرها بينهما وهي تقول: هل تسخران مني أنتما الآن، معلمي؟

(رائد) الذي شعر بأنَّه قد استردَّ شيئاً مِن كرامته بانقلاب الطاولة عليها مدَّ لسانه نحوها ساخراً، ثم وجه أنظاره نحو (بتّال) الذي كان ما يزال

يضحك وسأل: صحيح، كنتُ أودُّ أنْ أعرف كيف تم التعاون بينكما، هذا شيء لم أتوقعه مطلقاً.

علقت (فان): المسكين، يحاول تغيير الموضو...

تلقت ضربة فجأة على جبينها مِن (ستييف)، التفتت إليه وإذ به يقول: آسف! أردت تناول الطبق هناك، فزلت يدي.

فغرت فمها وهي تقول بسخرية: حقاً!

ثم ضربته بالمعلقة على فخذه وهي تقول: أووه، لقد انزلقت مِن يدي!

علق (بتّال) وهو ينظر نحوهما موجهاً حديثه لـ(حارث): معلمي، لقد بدأت أشك في أمرٍ ما، أنت لا يحيط بك سوى المجانين، ما السر في ذلك؟

رفع (حارث) أحد حاجبيه وقال: أتلمح لشيء ما؟

رفع كفيه معتذراً وهو يقول: أبداً، كنتُ أمزح وحسب!

لم تجبني على السؤال.

عاد (رائد) ليسأله بجدية؛ فالتفت إليه وأجاب: بما أنَّ (ببين) كانت المملكة الأقوى في أوروبا وقد اعتدي على أراضيها هي الأخرى، أرسل الوالي مبعوثين يعرض عليهم التعاون، وهذا ما حصل.

أسند وجهه على كفه وهو يتمتم: ذلك الوالي يدعو للإعجاب بحق! صدقاً، إنَّها المرة الأولى التي أثق وأتبع فيها رجلاً سياسياً، ثم تابع تناول طعامه وما إنْ انتهى حتى وقف؛ فدارت أعناق الجميع نحوه، رمقهم باستغراب؛ فتظاهروا بالانشغال في الحديث والطعام، اتجه ناحية

غرفتها، وما إنْ همَّ بطرق الباب حتى التفت إلى الخلف، فوجدهم جميعاً ينظرون إليه بتركيزٍ شديد، رفع حاجبيه مستنكراً وقال: إلام تنظرون؟
لم يجبه أحد، وعادوا ليتناولو طعامهم وكأنَّهم لم يفعلوا شيئاً.
كتَّف ذراعيه وأخذ ينظر إليهم الواحد تلو الآخر، ثم ابتسم وهو يتمتم: أنتم خليط عجيب من الأصدقاء، لم يخطر ببالي مطلقاً أنْ أحظى به.
ابتسم الجميع ومع ذلك تظاهروا وكأنهم لم يسمعوا، إلا إنَّ الفضول كاد يقتلهم؛ لذا ظلوا يسترقون النظر إليه وهو يطرق الباب، وحينما لم يجبه أحد، أداره ببطء وفوجئ بخلو الغرفة، لفتت انتباهه الستائر التي كانت تندفع إلى الداخل كالأمواج بفعل الريح، صمت للحظة مفكراً، ثم فغر فمه معلقاً: لا يمكن!
دلف الغرفة، وأغلق الباب، واتجه سريعاً نحو النافذة، ألقى بنظرة مستطلعاً محدثاً نفسه: أيعقل أنَّ تلك المجنونة خرجت مِن هنا؛ كي لا تراني؟ ألهذا الحد اختارت تجنبي!
لمح أطباقها التي لم تلمسها إلى جوار السرير، فازداد يقينه بأنَّها قد خرجت مِن النافذة، شَّمر أكمامه وتسلق هو الآخر وقفز منها نحو الفناء، احتار بداية أي اتجاه يسلك، ثم قرر أنْ يتجه إلى خلف المنزل، وما إنْ اقترب مِن نهاية الجدار الخارجي حتى أبصرها واقفة في صمت تنظر إلى القمر، والريح تعبث بشعرها وتحركه يساراً، اقترب منها؛ فشعرت بوقع خطواته على الحشائش؛ فالتفتت مذعورة، وما إنْ وقعت عيناها عليه حتى بدا وكأنَّها قد ازدادت رعباً؛ فاندفعت تقول متلعثمة:
كيف.......مِن أين.. ما الذي؟

اقترب منها أكثر حتى وقف بمحاذاتها وهو يسأل: لماذا لم تأكلي عشاءك؟

وضعت يدها على بطنها وهي ما تزال تحدق فيه بدهشة، ابتعلت ريقها أخيراً، ثم أشاحت بوجهها عنه وقالت: لقد فعلت.

-كاذبة، لقد رأيت أطباقك كما هي.

أشارت إلى الأمام بوجه شاحب وهي تسأل: هل هذا يعني أنَّك جئت مِن النافذة أيضاً؟

رمقها بغيظ، ثم اقترب منها خطوة؛ فابتعدت خطوة إلى الوراء، رفع أحد حاجبيه متعجباً وقال باندفاع: إلى متى تنوين الهرب هكذا؟! لقد جئت؛ لأخبرك فقط بأنَّه لا يمكنك الهرب أكثر من ذلك.

فرجت شفتيها هامة بالرد لكنها سرعان ما أطبقتهما وهي تشعر باضطراب نبضاتها، فعادت لتشيح بوجهها للحظات صامتة، زاغت خلالها عيناها نحو الأرض، وحينما طال صمتها شعرت به يقترب منها حتى وقف إلى جوارها ورفع رأسه وأخذ يحدق في القمر للحظات ثم تحدث قائلاً: لا يهمني، إنْ هربتِ سألحق بك أينما ذهبت، لا يهمني إنْ لم تتحدثي، سأتحدث أنا.

صمت قليلاً، وضاقت عيناه وهو يحدق بالقمر ثم قال: أتعلمين متى شعرتُ بأنَّك كنتِ كالسحابة لي؟

باهتمام رفعت عينيها قليلاً، ولكن دون أنْ تنظر إليه فأتبع: في دار (العلالي) مررتُ بظروف قاسية جداً، جعلتني أبدو مختلفاً، كنت مكتئباً صامتاً، ولكن في كلِّ مرة كنتُ أشعر بوجودك يحيطني كسحابة تمطرني

بالأمل، وفي أشد اللحظات التي ظننتُ فيها أنّي سأفقد حياتي، رأيتك تمسكين يدي وتسيرين معي في شوارع (دومدري)، شعرت بكِ وأنا أسحبك لتركضي معي وأنت تصرخين وتقولين: دعني!

غارت عيناه وكأنَّهما تسترجعان تلك الذكريات، ثم ندت مِن بين شفتيه بسمة وهو يتبع: منذ تلك اللحظة أدركت أنَّني أحبك بالفعل.

التفت إليها، كانت عيناها ما تزالان تدوران في كلِّ الاتجاهات عدا اتجاهه، فابتسم وهو يتم: أعلم أنَّك تحبينني، لقد أخبرتني بذلك سابقاً في منزل عازف المزمار، ولكني أريد أنْ أعرف..

قاطعته بعصبية مصطنعة: لقد كنت ثملة حينها!

رفع حاجبيه مستنكراً للحظات، بينما ظلت هي تهرب بعينيها عنه، ثم مال برأسه قليلاً نحوها؛ فأحنت ظهرها قليلاً إلى الوراء، أسند خده بسبابته وإبهامه وسأل بلكنة هازئة: تريدين القول: إنَّك لم تكوني بعقلك حينها!

أمال برأسه أكثر نحوها وأتبع: إذن، دعيني أسألك، ما الذي ستقولينه وأنتِ بكامل عقلك الآن؟

اعتدلت واستدارت نصف استدارة، وظلت صامتة للحظات قبل أنْ تقول بتردد: أنا فقط لم أتخيل شيئاً كهذا.

رفع حاجبيه متسائلاً، فتابعت وقد خفضت عينيها إلى الأرض: أنا فقط كنتُ مستمتعة بالأوقات التي أقضيها معك... ولكن في كل مرة، في كل مرة..

غارت عيناها وهي تتبع: كان قلبي يرتجف مِن فكرة أنْ تختفي عني فجأة، كما حدث في المرة الأولى، وفي لحظات كثيرة ظننتُ أنَّنا سنموت وينتهي كل شيء، لقد ظننت ذلك بالفعل عندما حبسوني في الغرفة...، تحدج صوتها وهي تتبع: لم أكن لأتخيل أنَّك ستقف أمامي مجدداً لتقول لي كل ذلك بكل تلك البساطة، هذا أكثر مما تخيلته وأكثر مما أستحقه.

رفعت عينيها إليه وهي تنطق باسمه (رائد)؛ فابتسم بلطف، ورفع كفيه أمامها وهو يقول: أنا أمامك الآن كما ترينني بوضوح، لن أختفي مجدداً، والساعة في جيبك تؤكد هذا، وأقول لك: إنَّ قراري هذا لم يأتِ فجأة كما تعتقدين، وليس دافعه التهور، أعرف أنَّك تفكرين هكذا، لقد كنتُ طوال الوقت أفكر به، أنا قادر الآن على أنْ أترك كلَّ شيء خلفي؛ لأبقى مِن أجلك، أنتِ تستحقين أكثر مِن هذا.

شعرت بدموعها تنهمر نحو شفتيها سريعاً؛ فغطت وجهها بكفيها، ثم هوت جالسة الاحتباء على الأرض، فلم تعد قدماها قادرتان على حملها، احتضنت ساقيها ودفنت ووجهها، انحنى قليلاً ووضع يده على كتفها وهزه وهو يقول: لا تبكي، أرجو...

لكنه فوجئ بها تندفع قائلة: لقد سألتني ما الذي سأقوله لك وأنا بكامل عقلي؟ سأجيبك الآن:

في المرة الأولى التي رأيتك فيها، وصفتك بالشاب الأحمق المندفع والمتهور، ولكن ما حدث بعد ذلك حينما أوقفت الطبيب عن ضربي، في تلك اللحظة التي مسحتَ بها على شعري، في تلك اللحظة التي قلتَ فيها مازحاً: اهربي معي، في تلك اللحظة التي كنتَ تسخر فيها من اسمي، في

تلك اللحظة التي أردتَ أنْ تذهب بها؛ لإنقاذ الملك مع (ليو) وتركتني في المعمل، في تلك اللحظة التي اشتريتَ لي فيها الفستان، في كل مرة كنتَ تحدثني بمنتهى تلك البساطة والبراءة وفي كل مرة تمد لي فيها كفك؛ لتساعدني...كنتُ..

عضت على شفتها السفلى في محاولة يائسة؛ لإيقاف دموعها، ثم عادت لتتبع بالاندفاع ذاته: حتى حينما غادرتَ واختفيت مِن أمامي.. في كلِّ مرة كنتُ أفكر فيها بك.. وحتى في تلك المرة حينما ارتطمتَ بكتفي في (سر من رأى)، والتقيتُ بك مجدداً بعد غياب خمس سنوات لم تغب فيها عن ذاكرتي، وحينما مددت كفك لي وأنت على ظهر الحصان وقلت: إنَّك ما زلت خاطفي، حتى حينما قطعت التفاحة مِن أجل أنْ تواسيني وتعتذر، في كل مرة.. نعم في كل مرة.. حتى حينما مات (غيث) ومددت كفك لي، وحتى حينما رأيتك وأنت تقرض الأرض بأصابعك بعد الانفجار وأنا أمدُّ لك ساعة الزمن، في كل مرة.. في كل مرة، أردت أنْ أقول..

رفعت عينيها نحوه؛ وإذ بها ترى الكف ذاتها ممتدة لها وتعلو شفتيه بسمة ودودة وهو يسأل: ماذا؟!

تجمدت ملامحها، ثم شعرت بكفه وهي تصبح ضبابية، فلفظت بها، وحسرت جفنيها لتتناثر دموعها، ثم وقفت واندفعت نحوه وعانقته وهي تقول: أردت أنْ أقول لك..

ثم اختلطت دموعها على كتفه وهي تتم بصوت مرتجف: إنِّني أحبك أيضاً!

لوهلة، لم يستوعب فيها ما يحدث؛ إذ اختلطت نبضات قلبه السريعة بنبضاتها، ابتلع ريقه، ثم نطق بتردد ســحـ...مارغـ..

أما هي فقد ازداد بكاؤها، رفع ذراعيه بتردد وعانقها أخيراً وهو يبتسم، ولم يلبثا إلا قليلاً حتى سمعا صوت خطواتٍ تقترب منهما؛ فالتفتا سريعاً وإذا بـ(حارث) ينتقل ببصره نحوهما باستغراب، فدفعا ببعضهما واستدار كلاهما معطياً ظهره للآخر، وزاغت عينا كلٍّ منهما على الأرض، احمرا واصفرا وباتت ملامحهما كورقة خريف يابسة.

غطت (مارغريت) فمها وهي تلوم نفسها بأعماقها: ما هذه الحماقة التي ارتكبتها للتو؟! ما الذي قلته؟ بل ما الذي فعلته ؟ كيف اندفعتُ هكذا؟ كيف انجرفت بمشاعري هكذا؟ هل عانقته حقاً؟ هل فعلت ذلك؟ إنَّ هذا لا يشبهني!

أما الآخر، فكان يطرف بعينه يميناً ناحية (حارث) بارتباك مجاهداً إخفاء البسمة التي تكاد تفضح ما يشعر به، هل قالت ذلك حقاً؟! هل نطقت به؟! ما الذي أحضرك (ليو) الآن، أريد أنْ أهرب، يجب أنْ اختفي، إنْ لم أفعل ذلك الآن وبهذه اللحظة سينفجر قلبي...

وقف (حارث) بينهما، ورمقهما بنظرة ازدراء قبل أنْ يسأل بتهكم: ما الذي يحدث هنا؟!

ثم وجه نظراته المرتابة صوب (رائد) واتبع متسائلاً: ما الذي حدث لحلف المجانين؟

التفتا نحوه وقالا بصوت واحد: لقد ارتطمت به\ها بينما كنتُ أعبر.

صمتا فجأة، وما إنْ التقت عيناهما حتى عادا ليستديرا ويعطي كلٌّ منهما ظهره للآخر، كتَّف (حارث) ذراعيه وتنقل ببصره نحوهما بصمت، ثم جذب رأس كلٍّ منهما وضربه بالآخر عنوة وهو يقول: هكذا لن يكون ارتطامكما ببعض كذبة.

ما إنْ اعتدلا وهما ينظران نحوه بتعجب وتوجع مِن أثر الضربة، حتى أمسك بكف (مارغريت) يسحبها ناحيته وهو يرمق (رائدا) بامتعاض ويقول: (مارغريت)، إنَّ بقاءك هنا مع هذا الفتى الطائش يبدو خطراً، وما إنْ ابتعدا قليلاً عنه وهو ما يزال ينظر إليهما بدهشة حتى توقف (حارث) فجأة وقال: إنْ كان لديك وقت لتضيعه في خِداعها بكلامك المعسول، فكن رجلاً واذهب إلى الشيخ أو إلى الكنيسة أو حتى إلى الجحيم إنْ شئت وتزوجها، ثم حدجه طويلاً بامتعاض قبل أنْ ينطق: (غبي)! ويسحب (مارغريت) التي لم تكن أقل اندهاشا مِن (رائد).

فرج (رائد) فمه عن ضحكة مصدومة وهو يتمتم: أهذا هو الذي كان يستحثني قبل أيام على إكمال ما بدأته؟! يتصرف الآن وكأنه والدها، لقد جعلني أبدو غاية في الحقارة!

ثم انخرط في ضحك بائس.

الفصل الحادي عشر : النافذ من الزمن.

في كلِّ سماء، هنالك سحاب.

خرجوا عابرين الشوارع المهدمة، والمنازل المحترقة.
لم تكن خسائر المعركة بالقليلة مطلقاً، قصدوا الذهاب إلى (المسجد الأقصى) أو الآثار الباقية منه.
عبَروا؛ ليروا (الهيكل) الذي بُني فوق الأقصى الشريف.
أشار (بدر) إلى أحد جدرانه، وقال: هذا هو حائط البُراق الذي كانوا يطلقون عليه: (المبكَى).
غشي (رائد) إحساسٌ بالرهبة وهو يتأمل المكان، فشرع يضغط على ذراعه اليسرى وهو يقول: أشعر بالرهبة (حارث)، لقد كان وقوفي هنا مجرد أمنية ما خلتها أنْ تتحقق مطلقاً!
ابتسم له برضى بينما التفت هو إلى (مارغريت) وقال وهو يشير إلى أحد الجدران: هل ترين ذلك؟ هذا المكان ثالث مكان مقدس عندنا في الإسلام.
تقدم (بتّال) بضع خطوات حتى أصبح أمامهم جميعاً، ثم استدار ناحيتهم، وشرع ذراعيه وقال: سنبنيه مجدداً، لا يهم أبداً عدد المرات التي يهدمونه فيها، سنكون في كلِّ عصر وفي كلِّ زمن وفي كلِّ وقت، مهما اختلفت أسماؤنا وشخصياتنا، سنكون قادرين -بإذن الله- على إعادته وبنائه.
تقدم نحوه (حارث) وضرب على راحة يده، وهو يقول: أحسنت (بتّال)!
حك (باتر) شعره بإهمال، وعيناه تتفحصا الأرجاء وقال: ومع هذا لدينا أعمال بناء كثيرة، يبدو أنَّ مهمتنا يا أخي لن تنتهي خلال أشهر فقط، كما علينا أنْ ننفِّذَ الوعود التي قطعناها مع (ببين).

أجابه بثقة: لا بأس، لنفعل قدر ما نستطيع، ثم التفت إلى (رائد) متسائلاً: ماذا عنك؟ هل قررت ما الذي ستفعله؟

ألقى نظرة سريعة نحو (مارغريت) و (حارث) قبل أن يجيبه: يبدو أنَّ مهمتنا هنا قد انتهت، سنحدد ما سنفعله لاحقاً.

ربت على كتفه، وقال: مع هذا والي بغداد يريد أنْ يكافئك، عليك أنْ تعود إليه.

تحدثت (مارغريت) فجأة مفصحة عن رغبتها بكل وضوح: (رائد)، لنكن مع الفرق التي ستعيد إحياء (دمشق)؛ لنزرعها بالياسمين.

ثبّت عينيه نحوها للحظات قبل أنْ تعلوه بسمة مشرقة، تبادل النظرات مع (حارث) الذي أيّده بعينيه ثم أجابها: سنفعل إذن، إن كانت هذه رغبتك.

أشار (بتّال) بعينه نحو شقيقه (باتر) وهو يقول: هذه ستكون مهمته إذن، ستكونون معه-بإذن الله- لكن بعد أنْ يستتب الأمر هنا قليلاً.

بعدها شرح (بتّال) لـ(رائد) ما ينوي فعله، فانخرط في الحديث معه، وفي تلك الأثناء، انسحبت (مارغريت) بهدوء عن المجموعة وراحت تتأمل كلَّ الأشياء حولها، لاحظ ذلك (حارث)؛ فتبعها، شعرت بشخص يتبعها؛ فالتفتت وراءها، وما أنْ رأته حتى عاجلها بقوله: ما الذي يقلقك (مارغريت)؟ عيناك تقولان شيئاً.

صمتت قليلاً وهي خافضة رأسها إلى الأسفل تنظر إلى قدميها، ثم عادت لترفع رأسها، وتستدير قائلة: سيد(ليو)، هل تعتقد أنَّه مِن الحكمة أنْ يترك الإنسان ماضيه وحاضره ومستقبله مِن أجل شخص يحبه؟

اقترب منها وقال: لن أجيبك ولكن سأسألك سؤالاً، هل كان مِن الحكمة بأنْ تبعتنا إلى (ببين)؟ هل كنت تتصورين وقتها بأنَّك ستبقين وحيدة لخمس سنوات؟ ثم هل مِن الحكمة أنْ تتبعي (رائداً) إلى القدس؟ بمعنى، هل مِن الضروري أنْ يسير كلُّ شيء بحكمة وعقل؟

نظرت إليه بدهشة فأتبع: إنَّه قراره وخياره، وعليك فقط أنْ تحترمي هذا القرار.

قالت معترضة: لكن... ثم صمتت وسرحت عيناها في السماء التي كانت ممتلئة بالسحاب، وقالت: ربما اضطر أنْ يتخذ قراره هذا بعد أنْ أخبرته بمشاعري نحوه.

تقدم ناحيتها ثم جلس على الحشائش وثبت سيفه فيها وقال: ما الفرق؟ أخبرته بذلك أو لم تفعلي، هو كان أيضاً يبادلك المشاعر ذاتها منذ البداية، مهما حاول كبتها وإخفاءها أو حتى عدم إقراره بها، هل فكرتِ لماذا كان ينعتك بالطفلة إذن؟ ولماذا توقف عن ذلك؟ لقد حاول أنْ يكتم ذلك جاهداً، لكنه لم يستطع في النهاية، عليك أنْ تفهمي أنَّ (راد) لم يتخذ هذا القرار بتهور أو لشعور لحظي، لقد كبر هذا الشعور معه تماماً كما كبر معكِ.

أشاحت بوجهها إلى الجهة الأخرى مخفية دموعها التي خذلتها، وعرجت سريعاً على خدّيها، صمتت قليلاً ثم قالت مفصحة عن حقيقة شعورها وما يؤلمها: ومع هذا، أشعر بالذنب حياله!

تنفس بعمق قبل أنْ يجيب: هو أيضاً يشعر بذلك، في النهاية الحب هو أكبر ذنب نرتكبه حيال أنفسنا، ومع هذا لا نستطيع أنْ نعيش مِن دونه.

رفعت رأسها ناظرة إليه للحظات دون أنْ تجيب، فابتسم وقال: متى سنعاود التدريبات؟ أرى أنَّ عضلاتك قد ارتخت.

ابتسمت برضى، ثم أدخلت يدها في جيبها تتلمس ساعة الزمن، وهي تمعن النظر في السماء، ثم تمتمت: ألا تعتقد أنَّ كلَّ السموات في كلِّ مكان ممتلئة بالسحاب؟

بعد ذلك التحقا بالمجموعة، وأثناء عودتهم وعلى بعد خطوات، توقف ثلاثتهم بعد أنْ فوجئوا برجل يقف على مد بصرهم، ينفث الدخان وبيده غليون؛ فصرخوا بصوت واحد: عـــــــازف المزمار؟

لوح لهم بيده، وقال ببرود: الحلف المجنون، ها قد التقينا مجدداً.

اقترب منهم ثم شعت مِن شفتيه بسمة، وقال: لقد أحسنتم حقاًّ! أديتم مهمتكم بكل نجاح.

ثم عبر مِن أمامهم؛ ليكمل طريقه دون أنْ ينتظر منهم أيّ جواب، استدار (رائد) نحوه سريعاً؛ ليوقفه بقوله: لقد كذبت في كونك (سفارديم)، وساعدتنا بالتواصل مع والي بغداد، أخبرني بربك مَن تكون أنت؟ هل من الممكن أنْ تكون...

توقف دون أنْ ينظر إليه وأجاب: من أنا؟ حسناً، أنا رجل أينما وجد الظلم فهو موطنه.*

ثم تابع طريقه وعينا (رائد) تتبعه بدهشة، شعر بأنَّه قد سمع هذه الكلمات من قبل، وما إنْ استدار ليتابع طريقه حتى تذكر أين سمعها؛ فعاد يلتفت وينظر إليه، ولكنه كان قد اختفى عن الأنظار، رفع إصبعه مندهشاً وقال:

لقد تأكدت الآن، هذا الرجل هو أيضاً مسافرٌ عبر الزمن، ولكن مَن يكون؟

ثم ندت مِن شفتيه بسمة واسعة وهو يتمتم: تشي تشي**.

****

مضى يومان بعد ذلك الحدث، كان ثلاثتهم يسيرون داخل المدينة قاصدين الذهاب إلى القناة،

وبيد (مارغريت) شتلة من زهرة الياسمين.

توقف (حارث) بالأعلى، بينما هبطت (مارغريت) و(رائد) إلى الأسفل نحو القناة للمكان ذاته الذي اختبئا فيه.

تلفتت حولها في شك وقد بَدَأ القلق يغشاها.

وقف (رائد) وتراجع عدة خطوات وكأنه يَعُد، ثم أشار بيده وقال: هنا، هنا بالضبط.

اقتربت منه وسألت: هل أنت واثق مِن ذلك؟

-بكل تأكيد.

جلست على ركبتيها، وبدأت تحفر، ثم غرست شتلة زهرة الياسمين، وسرحت عيناها على التراب ثم قالت: لقد نبتت زهرة الياسمين على قبرك وستلحقها أخريات، وحينما تشتم عبيرها تأكد أنَّ (سحاباً) أحبتك كثيراً وافتقدتك كثيراً

---

* عبارة قالها الثوري الماركسي الكوبي (تشي جيفارا) وهي: إنني أحس على وجهي بألم كل صفعة توجه إلى مظلوم، فأينما وجد الظلم فإنَّه موطني .

**: تشي والتي أُطلقت على (جيفارا)، وأصبح يعرف بها (تشي جيفارا)، وهي تعبير أرجنتيني يعبر به عن التعجب، وقصد بها هنا (رائد): بأنَّه يشبهه في غموضه.

شكراً لك (غيث)؛ لأنك منحتني الدفء يوماً! لقد أتيت اليوم؛ لأقول لك: لن يموت أحدٌ بعدك مثلما متَّ يا (غيث)، ثم ضمت كفيها بخشوع تام وبصمت مطبق أغلقت عينيها، لكنَّ دموعها كانت تحدِث ضجيجاً دون صوت وهي تتحدر بحرارة على خديها.

ظل (رائد) يراقبها بصمت، والهواء يحرك أطراف شعرها، والشريط الأبيض الذي تدلَّى بوضوح مِن تحت وشاحها.

أخرج سيفه مِن غمده، وقذف بالغمد إلى جانبها؛ ليلفت انتباهها؛ فاستدارت نحوه متسائلة وماتزال عيناها ممتلئة بالدموع؛ فأجابها وهو يبتسم: لطالما كنتِ تريدين مبارزتي بالسيف، صحيح؟ أريد أنْ أرى الآن إلى أيِّ حدٍّ أفادتك تدريبات (ليو).

ابتسمت وهي تمسح دموعها، ثم وقفت معتدلة تضحك وتبكي في آن واحد، لقد كانت تعلم أنَّه يفعل ذلك؛ ليخفف مِن حزنها؛ فسحبت سيفها بعد أنْ هدأت، وقالت: أنا مستعدة الآن.

شدّ على قبضة سيفه، ووقف متأهباً وهو يقول: ثقي بأنّي لن أتوانَى معك. اندفعت نحوه والتحم سيفاهما، وظلا يصدّان بعضهما ويدفعان بعضهما، يلتقطان أنفاسهما بإجهاد، ولكن دون أنْ يتوقفا؛ أما (حارث) فقد ظل يراقبهما مِن الأعلى بكلِّ شغف ودون ملل تعلوه ابتسامة مشرقة، وما إنْ أوشكت الشمس على المغيب حتى غرزت (مارغريت) سيفها في الأرض معلنة بذلك استسلامها وقالت: استسلم، لقد هُزمت، ثم هوت على الأرض واتبعت: أنت حقاً لم ترحمني.

مدَّت ذراعيها بإنهاك، ثم تمدَّدت على الحشائش تتنفس بعمق.

أدخل سيفه في غمده، واقترب منها، ثم تمدد إلى جانبها هو الآخر، وعلق قائلاً وهو يتنفس بعمق ويزفر براحة: إنَّني فخورٌ بك جداًّ!

أدارت رأسها ناحيته، وقالت: هل أعدُّ هذا اعترافاً منك بقوتي؟

ابتسم دون أنْ يلتفت وأومأ برأسه مؤكداً.

أغمض عينيه، وقال: أشعر أنّي لا أستطيع الحراك الآن، أنا مجهد تماماً.

رفعت رأسها قليلاً وهي تشير نحو السماء، قائلة: انظر إلى السماء، خفت صوتها وهي تتبع: والسحاب.

أدار رأسه ناحيتها وقال: لا حاجة لي بأنْ أنظر إليها ولديّ سحابتي هنا، لكنها بدت وكأنَّها لم تسمعه، وأكملت حديثها قائلة: ألا تعتقد أنَّ السحاب موجود في كل سماء؟

شعر بكلماتها الأخيرة بوتد طعن قلبه ومزقه وأحيا فيه ريبة وشكّاً؛ لذا نهض جالساً وفي عينيه سؤال، لكنها تظاهرت بعدم رؤيتها لذاك السؤال ونهضت هي الأخرى وأخرجت الساعة الزمنية مِن جيبها وقربتها منه، قائلة: انظر إليها.

أبعدها بضيق وهو يقول: (سحاب)، ما الذي تقصدينه بكلامك؟

لكنها ظلت تقلّبها بين يديها في صمت، ظل يمعن النظر في وجهها محاولاً قراءة ما تخفيه، ثم سأل: ما الذي يدور في ذهنك؟ إنْ كنتِ تعتقدين أنَّني سوف أعود وأتركك، فهذا محال.

قاطعته بعينين مسترسلتين في مدى بعيد يتجاوزه وقالت: لقد أخبرني (أخميل) بأمر.

اقتربت منه حتى جلست إلى جانبه، وقربت الساعة وهي تشير إلى منتصفها وتقول: أتذكر الساعة المختبئة في داخلها؟

ثم فتحت الغطاء.

وأتبعت: هل ترى؟ إنها تشير لأعوام.

حركت العقرب إلى عام ٢٠١٦ م؛ فأمسك (رائد) بكفها وقال: توقفي هنا، ما الذي تنوين فعله؟

أبعدت كفه وهي تقول: لا تقلق، هي لن تتحرك هكذا، لقد فعلنا ذلك سابقاً، أتذكر؟

ثم أشارت إليه لمنتصف الساعة، وأتبعت: هل ترى؟ هذا بمثابة زِر، إنْ ضغطنا عليه فهل تتوقع أنَّه سيتحرك؟

قاطعها بغضب واضح: قلتُ: توقفي!

لكنها استرسلت قائلة: قلتُ لكَ: لا تقلق، لن تتحرك، لكن سيدهشك ما ستراه الآن، ثم ضغطت على الزر؛ فخرج مِن قرصِ الساعة قرصٌ آخر أصغر حجماً ليتمدد ويصبح عرض الساعة بقرصين دائرين، أحدهما أصغر مِن الآخر، ثم قالت وهي تضغط على الزر: وإنْ ضغطتُ على الزر داخل القرص الثاني الصغير؛ فسيظهر..

حينها ظهرت مِن منتصف القرص الصغير قطعةٌ مستطيلة امتدت إلى خارجه مِن المنتصف، وكانت هذه القطعة المستطيلة تحوي سبعة أرقام تشير إلى الأيام، ثم مدتها ناحيته، وقالت: انظر، هل يذكّرك شكلها بشيء الآن؟

دقق النظر إليها للحظات رغم توجّسه منها، ثم قال: تشبه آلة الكمان، أليس كذلك؟

ابتسمت وهي تهز رأسها موافقة، وتعلق قائلة: بالضبط، كان (أينشتاين) يحب العزف على الكمان، أليس هذا صحيحاً؟ لقد أخبرني (أخميل) بهذا.

علق قائلاً: لم أكن لأفكر في ذلك أبداً، كيف استطاع (أخميل) معرفة كل هذا؟

خفضت رأسها معلقة: لقد عرف أكثر مِن ذلك أيضاً، يبقى الكمان معطلاً دون قوسه.

التفت إليها، وقال: حسناً، يكفي إلى هنا، لا أريد أنْ أعرف أين قوسها لتعمل، أخفها الآن ولنعد، وابقِ ذلك القوس معك، إنْ احتجته يوماً؛ فسأطلبه منك، ثم أمسك بالساعة ودسّها في جيبها، ثم وقف معتدلاً ومدَّ ذراعيه بكسل، وقفت هي الأخرى، وثبتت عينيها نحوه تتأمله وهو يسبقها ببضع خطوات.

أخرجت الساعة مِن جيبها ثم نزعت العقرب مِن منتصف القرص الكبير، ثم رفعته..

ارتجفت يداها مع شفتيها، وغرقت عيناها بالدموع حتى أصبحت لا تراه، ثم وبدون تردد مررت العقرب على المستطيل، وكأنَّها بذلك تعزف لحناً للنهاية، وتضع فصول القصة الأخيرة لحبها العذري، أذِنت للساعة بأنْ تعمل، حينما شعر بأنَّها لا تتبعه؛ استدار ناحيتها متسائلاً، لكنه تصلب في مكانه وهو يرى الساعة تهتز في يدها!

قفزت نحوه وأمسكت بكفه ووضعتها فيه وظلت ضاغطة عليها؛ لئلا تسمح له بتحريكها، حاول أنْ يسحب كفه، أنْ يدفع بها، لكنَّ نظرة الرفض التي كانت تعلو عينيها أوهنت مقاومته، ثم بدأت الأضواء تنتشر، شعر أنَّها تتلاشى شيئاً فشيئاً وهو ينظر إليها، طفرت عيناه بالدموع، وثمة سؤال مسفوح بوجع انبرى مِن بؤرتيه بـ: لـــــــــــمَ؟

أما هي فظلت عيناها مثبتتين نحوه بالرفض ذاته، وشفتاها تنفتحان وتنطبقان عن قول: ستراني في سمائك كلما رأيت السحاب.

ثـــــــــــــم..

اختفى، وظلت هي تعانق الفراغ وسط ريح مِن البكاء عصفت بها؛ فجعلتها تهوي على الأرض.

شعرت بخطوات تقترب منها، رفعت عينيها ناظرة إليه، كانت عيناه هو الآخر تحتضن الصدمة بالدموع، سألته بصوت مجروح: (ليو)،هل أخطأت بقراري هذا؟

هز رأسه نافياً وقد تحدرت دموعه، ثم أجاب: أعتقد أنكِ اخترتِ الصحيح له.

أغمض عينيه وهو يستدعي حديثاً لـ(رائد) مِن الذاكرة، حديثاً لوصية سمعها منه قبلاً، ثم فتح عينيه ليتم: " تلميذتي ".

الفصل الثاني عشر : شيء ما زال يومض.

الأشخاص العالقون في الذاكرة هم أولئك الذين استطاعوا أنْ يجعلوا في كلِّ ما يحيط بنا شيئاً يرتبط بهم.

في لندن، في شارع (هارلي)، وفي شقة صغيرة، كان رجل يقف قارعاً الباب منادياً: (رائــــــــــد... رائــــــــد... أيها الأحمق! هل أنت هنا؟).

تنبَّه إلى أنَّ الباب غير موصد؛ فدفعه ودخل، عبَرَ الصالة التي كانت تعجّ بالفوضى، فالأريكة أُلقيت عليها بعض الملابس بإهمال، والتلفاز مفتوح.

نظر بازدراء، وتمتم: هذا (الرائد) لا يمكنه أنْ يتخلَّص مِن فوضويته!

ثم اتجه نحو غرفة النوم وفتحها؛ وإذ به يجده ممدداً على الأرض، اندفع نحوه يتفحصه بوجل، حركه بقلق عله يفيق، وهز كتفيه قائلاً: هل أنت بخير؟ هل أصابك مكروه؟

فتح نصف عينيه ينظر نحوه دون استيعاب، ثم عاد ليغلقهما، هزه مجدداً؛ ففتح عينيه باتساع، وشهق: (زيــــــــــن)! أهذا أنت (زين)؟

باستياء عاتبه قائلاً: لقد أفزعتني! هل كنت نائماً على الأرض هكذا؟

نهض وهو يتلفت حوله بذهول، وثمة شعور غريب يحيطه، شعور بأنَّه قد فقد للتو شيئاً مهماً لا يدري ما هو.

وقف (زين) واتجه نحو سريره الذي كان يعج بالفوضى، وكثير من الكتب كانت مُلقاة عليه، بعضها كتب دراسية وأخرى ثقافية.

أمسك بكتاب (أحجار على رقعة الشطرنج) لـ(وليام كار)، ووضعه على المِنضدة، ثم التقط كتاباً آخر (محاكمة الصهيونية) لـ(روجيه جارودي)، ومجموعة قصص مصورة مِن ديزني بعنوان (العم ذهب في جزيرة على حافة الزمن) لـ(دون روزا)، ثم وضعها على المنضدة وهو يعلق ساخراً: يا لكَ مِن متناقض حقاً! أما زلتَ تقرأ قصص الأطفال هذه؟!

ثم قام بترتيب بقية الكتب، بينما الآخر كان ما يزال جالساً على الأرض تعلوه نظرات تعجب وحيرة.

التفت إليه وقال: يا رجل، تجهز سريعاً، سأسبقك إلى المقهى؛ لنتفق على رحلتنا إلى المتحف.

بدا على وجهه الاستنكار وهو يسأل: أي متحف تقصد؟!

تنهد بضجر وقال: هل نمتَ على الأرض وفقدت ذاكرتك مثلاً؟ ألست أنت مَن طلب مني أنْ نسافر إلى (سويسرا)؛ لزيارة متحف أينشتاين في (برن)؟

صمت (رائد) دون أن يجيب، وظلت عيناه معلقتان في ذاكرةٍ من بياض.

خرج (زين) وهو يقول: اسمع، سأسبقك إلى المقهى، لا تخبرني بأنَّك نسيت مكانه أيضاً، تجهز وتعال ولا تنسَ هاتفك، لقد اتصلت عليه مراراً لكنه كان مغلقاً.

تلفّت (رائد) حوله وشعور الضياع يعانقه، ثم وقف وخرج من الغرفة ونظر للحظة نحو شاشة التلفاز التي كانت تعمل مع صوت مكتوم.

التقط له بعض الملابس التي على الأريكة، ثم دخل الحمام، وما إنْ خلع قميصه؛ ليستحمّ حتى رأى الشاش الملفوف على كتفه وآثار جراحةٍ على بطنه، تلمس بطنه متعجباً، ثم صعد إلى كتفه وضغط عليه؛ فشعر بتوجع، أثار ذلك دهشته فسأل: ما الذي حدث؟ متى أُجريت لي جراحة هنا؟!

وحين لم يجد الجواب تابع استحمامه، ولبس قميصاً أزرق وبنطالاً أبيض، ثم بدأ البحث عن هاتفه النقال في كل مكان دون أنْ يجده، وفجأة برقت في ذهنه صورة (حارث)؛ فتوقف عن البحث، وما إنْ عبر الصالة التي كانت نافذتها مفتوحة حتى لمح على شاشة التلفاز تقريراً يقول: "في مثل هذا اليوم صعدت أول رئيسة وزراء بريطانية (مارغريت تاتشر)، وألقت أول خطاب لها في البرلمان".

أعاد فمه نطق اسم (مارغريت) بمرارة، ثم تراجع إلى الوراء قليلاً ناظراً إلى الجزء الظاهر مِن السماء مِن خلف نافذته، اقترب منها واستند بذراعيه على الطاولة، وأخذ يحدق في السحاب، شعر بشيء يثور في قلبه، ويتصاعد تدريجياً لينتشي في صدره، ويوقظ في أعماقه ذكرى قد غابت عنه مدة يجهلها، فهمس: السحاب جميل اليوم! ولكن...

ثم سرح وسط تتابع صور مِن الذاكرة وأتم: هل كنتِ تعتقدين أنّي سأكتفي بذلك فقط؟ أنت مخطئة، ثم استدار مغادراً وخرج مِن الباب.

****

شيء ما، كان تحت الطاولة يومِض ويتحرك.

تمت.

رباعية العالق في الزمن ستكتمل بالعودة لدمشق:

***

- لم تكن الريح قاسية، كانت الزهرة ميتة وهي على الغصن.

***

-أنتِ تعرفين بأنني أريدها، الجميع يعرف بأنني أريدها، حتى هي تعرف بأنني أريدها ولكن....

***

-أتعرف ما معنى أن تكون الوحيد الناجي من مجزرة!!

***

- إنني جزء من عائلة العلالي بعد كل شيء.

***

- لولا المآسي لما تطلعنا للسماء بأمل، لولا المآسي لفقدت كثير من الأشياء بريقها.

***

رفع الرضيعة للأعلى وسقطت أشعة الشمس عليها وندت منه بسمة دافئة اختلطت بدموعه التي سالت على خديه وهو ينطق: سأسميها (حياة)، إنها (حياة).

العودة لدمشق قريباً